الأمير الحافى
بقلم : طيب بن بوبكر
منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

طيب بن بو بكر

الأمير الحافى

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الكرم

تقع الكرم. وهى مدينة صغيرة. فى شمال تونس العاصمة وتبعد عنها بحوالى ثمانية عشر كيلو متر. ويربط بينهما قطار حلق الوادى.. وطريق طويل اسمه شارع الحبيب بورقيبة.

ومحطة القطار فيها تفصلها إلى قسمين - الكرم الشرقى 'والكرم الغربى .

الكرم الشرقى

الكرم الشرقى تعتبر عاصمة المنطقة وفيها يمتد شارع الحبيب بورقيبة الذى يربط العاصمة بالضواحى الشمالية، وعلى حافتى الشارع ارتفعت العمارات الضخمة، وقد حولت الدور الأرضية فيها إلى مغازات ودكاكين ومقاهى. وبالكرم الشرقى ثلاثة مدارس ابتدائية ومستشفى وجامع وحانتان.. وقاعتا سينما، واحدة غير مسقفة، تفتح فى الصيف فقط. وهناك مركز شرطة وملعب وثلاث صيدليات وسوق.

ووراء العمارات من الجهة الشرقية هناك الفيلات التى يسكنها أثرياء المنطقة، ووراء الفيلات مباشرة هناك البحر - البحر الأبيض المتوسط الذى يمتد على طول الساحل التونسى.

أما وراء المحطة من الناحية الأخرى فهناك :

الكرم الغربى

الكرم الغربى هى العالم الآخر للمنطقة. هنا حيث تكثر الأحياء الشعبية ويسكنها آلاف البشر يجمع بينهم فقر مشترك. ومن بين هذه الأحياء هناك حى النور.

حى النور

كان حى النور فى يوم ما حيا كبيرًا قديمًا بنيت فيه البيوت فى تنافر شديد.. بيت من الطوب، وبيت من القزدير وبيت من الطين وكثر ساكنوه حتى أصبح حيا مخيفا حقا..

ولهذا اتخذت البلدية إجراء ثوريا؛ وقامت بهدم البيوت التى بنيت بطرق غير شرعية على أراضى ملك للدولة. وبنت مكانها حيا جديدا فخما - مقارنة بالأحياء المجاورة وطبعا كان ساكنو الحى الجديد من الميسورين الوافدين على العاصمة، من مناطق فلاحية وكانوا قد تكبروا على الفلاحة فباعوا أراضيهم؛ وهرعوا يشترون الديار فى العاصمة وضواحيها.

ولم يبق من الحى القديم والسكان القدماء إلا خمسون بيتا تختفى مباشرة وراء الحى الجديد وكأن البلدية نسيت هدمها.

هذا ماتبقى من حى النور، خمسون بيتا. خمسة وعشرون بيتا تواجهها خمسة وعشرون بيتا أخرى يفصل بين الصفتين طريق غير معبد عرضه ثلاثة أمتار.. إذا مضيت معه إلى الآخر أدى بك إلى بقعة سوداء تنبعث منها روائح كريهة فهى مزبلة الحى.

أما إذا استدرت إلى اليسار أو اليمين فستدخل مجموعة من الأحياء الشعبية ضربت بينها مجموعة من الأنهج الضيقة والأزقة القذرة والدروب

الوعرة. وهناك وراء حى النور - مقهى وجامع وسوق النور.. بمكانها الفريد، ثلاثتهم متلاصقون منفصلون عن العمران.. المقهى فى الوسط وعلى يمينها الجامع وعلى يسارها السوق؛ وهُم بقايا من الحى القديم لم تجرؤ البلدية على هدمها.

ويبدأ الحى القديم بمحل جزار لصاحبه العم مبروك وينتهى بدكان بقالة، متواضعة لصاحبها العم على من السكان القدماء للحى. وقد كانا أكثر الناس ترحيبا بالسكان الجدد فى الحى الجديد المجاور.

وذات مساء شتوى من سنة ١٩٦١، كان الحى هادئا وكانت الشمس فى طريقها نحو الاختفاء؛ فى حين راح الليل يسدل ستاره على الأحياء ويشملها بظلامه وبدأت الأضواء تنبعث من نوافذ البيت الصغيرة، أما صومعة الجامع فقد كان لها الفضل فى إنارة النهج الذى ترتفع فى وسطه. وبدأت مقهى النور تستعد لتستقبل زبائن المساء من العمال والطلاب وجميعهم تقريبا من الحى القديم : وراح العم على والعم مبروك يستعدان لإغلاق دكانهما وهما يغلقان دائما فى نفس الوقت فإذا حدث وتأخر أحدهما فى الإغلاق تعمد الآخر التأخير؛ وقد سادت بينهما منافسة غير شريفة وربطت بينهما علاقة فاترة برغم أنهما لا يبيعان نفس المواد.

كان رذاذ من المطر يتساقط عندما فتح باب أحد البيوت.. ثالث بيت على يسار الداخل للحى فتح الباب بعنف واندفع صبيان يجريان فى الحى يصرخان يرددان بنفس اللوعة والانبهار.. أمى ستلد.. ستلد الآن.. أمى ستلد.. ودخل أحدهما إلى بيت مجاور وهو يصرخ ويكرر نداءه - خالتى عزيزة.. أمى ستلد.. ستلد الآن.. واندفع الآخر إلى أقصى الحى قاصدا آخر بيت على اليمين وهو يردد صراخه - أمى ستلد.. ستلد الآن..

وفى الحال هبت النسوة مسرعات إلى البيت المعنى وأفسح المجال للقابلة سالمة وكانت امرأة سمينة تمشى ببطء شديد وتابعها الابن الأكبر الذى ذهب لمناداتها وكان فى الخامسة من عمره تابعها ماسكا بثيابها يحثها على الإسراع، ولما دخلت القابلة الغرفة حيث كانت المرأة التى ستلد مستلقية على فراشها ذاهلة.. منعا الغلامين من الدخول، فظلا واقفين وسط الدار ينتظرون متى تلد أمهما وتخمد آلامها.

وكان بيتهم كمعظم بيوت الحى، ثلاثة غرف على اليمين تواجهها ثلاثة غرف أخرى وقد جعلت أول غرفة على اليسار مطبخ وكان المرحاض عبارة عن زاوية صغيرة بجوار المطبخ وكان وسط الدار الذى يفصل صفتا الغرف طويلا وعرضه متران وينتهى ببئر وبجوار البئر انتصبت شجرة وحيدة من أشجار الخوخ وقد عبد وسط الدار بالأسمنت، ولكنه كان يحمل عديدا من الحفر والشقوق مما يدل بأنه لم يدخل عليه تحسينات منذ مدة طويلة. ولم تكن جدران الغرف أحسن حالا من وسط الدار..

فقد تقشرت كلها واختفى لون الجير الذى دهنت به ذات يوم بعيد.. وظهرت فيها حفر عديدة فاغرة فاها فى ذهول، وبدا البيت كله على وشك السقوط والانهيار إذا لم يتداركه البناءون بالأسمنت والجير.

بينما كانت الأم تئن وتصرخ وتخفت صراخها ليرتفع من جديد عاليا حادا وينخفض مصحوبا بأنات وتأوهات وشكات تذيب قلبى الصبيين الواقفين وسط الدار وقد بكيا خوفا عندما اشتدت آلام أمهما وصراخها. وفى تلك اللحظة كان أبوهما السيد يوسف بن عمر جالسا وحيدًا فى أول غرفة على يمين الداخل، مواجهة للمطبخ، كان يجلس وحيدًا على كرسى بالٍ قديم يدخن سجارة رخيصة فى هدوء عظيم.

وقد كان السيد يوسف بن عمر بحارًا بالديوان القومى للصيد البحرى. وبدا رجل فى الخمسين أسمر اللون طويل القامة، قويا فى رشاقة. وبدت فى ملامح وجهه المشدود آثار الصلابة وقوة الشخصية؛ فهو رجل من صلب هؤلاء البحارة العظام الذين أنجبتهم جزيرة جربة.. رجال واجهوا الحياة فى قمة قسوتها. وتعرضوا لمخاطر جمة لاتحصى. وواجهوا بإصرار وصمود عظيمين أشد العواصف هوجا وجبروتا فى البحار والمحيطات البعيدة.. البعيدة جدا.

راح الرجل يسلى نفسه بمراقبة ابنيه فى انتظارهما القلق لولادة أخيهما أو أختهما.

وفى الحال ارتسمت على ملامح الرجل علامات الفخر والإعجاب. فقد كان الأخوان برغم فقرهما الواضح الذى بدا فى ثيابهما البسيطة جدا. فكان الأخ الأكبر محمد يرتدى سروالا قديما مرقعًا ومعطفًا رخيصًا باليًا.. وحذاء مثقوبًا من الأمام حيث أطلت أصبعان من أصابع قدمه.

فى حين أوشك الأخ الأصغر فوزى على الاختفاء فى معطف أكبر منه، وغاية فى القدم ممزق فى الكتف الأيمن. وبرغم هذا فقد كان الصبيان موفورى الصحة والعافية وأطلت من عيونهم السود نظرات تقطر رقة وخوفًا على أمهما.

وبرغم أن البرد راح يزداد وطأة كلما أوغل الليل، فإن الصبيين ظلا يقفان وسط الدار منتظرين متى تلد أمهما وتنتهى آلامها.. غيرمباليين بالبرد ورذاذ المطر مما أوحى أن فى جسديهما الصغيرين تجرى دماء أجدادهما البحارة العظام؛ الذين أنجبتهم جزيرة جربة..

وفجأة ارتفعت صرخة عالية من الأم راحت تنخفض فى أنات خفيفة متقطعة.. وبعدها بلحظة جاءت تلك الصراخات الشهيرة التى يرسلها الإنسان فى اللحظة الأولى التى ينزل فيها إلى هذه الدنيا. وأطلت امرأة من الغرفة ونادت الصبيين قائلة :

- محمد فوزى ألف مبروك لقد أنجبت لكما أمكما أخًا آخر.

فصرخ الغلامان فى بهجة وتعانقا فى سرور.. وطلبا أن يسمح لهما بالدخول لرؤية المولود الجديد.. ولكن المرأة اعترضت قائلة :

- انتظرا قليلا..

وتلقى الأب التهانى ممن صادف تواجده هناك.. ثم سمى المولود الجديد «طارق».

وفى السنة التالية انتفخ بطن الأم من جديد.. فتما فطم طارق بسرعة غير معتادة محافظة على صحة الأم وصيانة لحليبها المتروك للمولود الآتى وفى آخر الصيف أنجبت الأم فتاة سميت «منية». وكان إنجابها بعد ثلاثة ذكور؛ أحدث فرحة عارمة عند الأب والأم والأخوين محمد وفوزى.

أما طارق فقد وجد نفسه وبسرعة مذهلة يكاد يكون مهملا.. فقد نالت الأخت الجديدة معظم اهتمامات الأم وعناية ودلال الأخوين والأب.

فراح الرضيع يحبو بصورة مبكرة وأسرع من المعتاد ويحاول الوقوف والمشى. وراحت يداه تمتد إلى أى شىء يكون بمتناوله. فيمزقه أو يكسره.. ومن هناك راحت العائلة تعامله بشىء من الخشونة.. وكأنه كبر ولم تعد تليق به هذه الأعمال الصبيانية.. وعرف بسرعة مبكرا - الصفعات والتأنيب والعقاب.. فراح طارق فى خوفه الغامض يحبو كل يوم وحيدا إلى الباب

الخارجى للبيت.. وهناك يجلس أمام العتبة يلعب بالتربة - يتمرغ فيها. يرفعها عاليا.. قدر إمكانه.. يضعها فوق رأسه وفى فمه. ويتطلع إلى أخويه وأبناء الجيران.. من مكانه. هناك فوق التربة.. يتطلع إليهم وهم يلعبون الكرة ويتصارخون ويتعاركون.. فيملئون الحى ضجيجا. مؤنسا.. ويحاول طارق بكل جهده أن يقلدهم أن يقف ويعدو مثلهم. ويقلدهم فى صراخهم وصخبهم وهكذا تعلم الطفل منذ الصغر. مبكرا.. أن يعتمد على مجهوده الخاص. أن يعتمد على نفسه فى كل شىء تقريبا.

أحيانا، كانت تمر إحدى فتيات الجيران. فتجده ملقى هناك.. متسخ الثياب مغبر الوجه.. فتحمله إلى بيتها. حيث تنظفه وتغسل ثيابه. تلطفه وتعطيه الحلوى - التى يعشقها طارق - وعندما تفتقده العائلة فى المساء ترسل أخويه يبحثان عنه، حتى يعثرا عليه فى بيت الجيران فيعودان به إلى البيت برغم احتجاجه.

إن «طارق» وقد بلغ الآن الرابعة من عمره. راح يعدو مع أضرابه فى الحى حافى القدمين. منفوش الشعر - رث الهندام وسخ اليدين، ومغبر الوجه. كان يجرى صارخًا. صاخبًا. زاعقًا.. لاعبا بالكرة.. ملقيا بالحجارة.. شاتما أضرابه بطلاقة متناهية.. كان واحدا من هؤلاء الأطفال الفقراء السعداء بفقرهم.

لكن، ذات مساء لما دخل طارق بيتهم. لاحظ بصورة لا يمكن معها أن يخطئ.. أن بطن أمه منتفخ بشكل جعله يفهم أنها قريبا ستنجب أخًا أو أختًا أخرى.. وأحس طارق قلقا غامضا.. لسبب ما لم يسعده النبأ.. لم يفهم السبب ولكنه كان يشعر به شعورًا قويا كحقيقة مؤكدة.

وفى آخر الشتاء أنجبت أمه طفلاً سموه «كمال» وقد فرح طارق لأن المولود الجديد ذكر وليس بنتا مدللة كأخته.

* * *

كان طارق يحب الجلوس كثيرًا فى أمسيات الشتاء مع أخوته حول أبيهم. الذى يروح يروى لهم قصصا شيقة عن رجال عظماء عاشوا فى أزمنة رائعة وقديمة. رجال مثل محمد رسول الله وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وعنترة بن شداد.. والملك سيف.

كان طارق يعشق هؤلاء الرجال ويشعر وهو يستمع لأبيه وهو يروى سيرة حياتهم. يشعر بهم وكأنهم أحياء - برغم علمه أنهم ماتوا منذ سنوات بعيدة.

وكانت تنتابه رغبة جامحة لو كان بإمكانه أن يصبح فى يوم ما واحدا من هؤلاء الرجال العظماء... وقد شغل بال طارق فى تلك الفترة - الحى الجديد.. كان يحلو له أحيانا أن يبتعد عن أبناء حيه وأصدقائه سمير وطاهر وفتحى ومحمود. ويمضى وحيدا مخترقا شوارع وأنهج الحى الجديد.. متطلقا فى فضول عظيم للجدران البيضاء النظيفة. وقد أطلت منها أغصان خضراء زاهية لأشجار البرتقال والخوخ والياسمين.

وبين الفينة والأخرى كانت تمر سيارة زاعقة، فيتابعها الصبى بعينيه فى عجب ودهشة.. حتى تختفى بعيدًا عندها يعود الصبى يشرئب بعنقه إلى النوافذ ذات الستائر المخملية المسدولة.. يشرئب بعنقه يحاول أن يخترق ببصره الستائر ليرى ما وراءها.. ليستطلع سر الناس الذين يسكنون هذا الحى الهادئ الصامت النظيف..

وكم كان يود لو كانت لهم هم أيضا حديقة حتى يزرع فيها شجرة من أشجار الياسمين ذات الرائحة الفائحة. أجل كان سيحب ذلك دون شك، شجرة ياسمين له وحده يعنى بها هو يسقيها ويرعاها وينام فى ظلها عندما تشتد الحرارة..

وعجب كيف أن أباه لم يشتر لهم سيارة. حتى يركبوها ويذهبوا بعيدا.. بعيدا إلى تونس وسوسة ومدن أخرى سمع عنها طارق أحاديث تصف عظمتها.

ولكن لما عبر طارق عن فكرته هذه - فى شراء سيارة والذهاب بعيدا- فإن فكرته لم تحظ إلا بقهقهات ساخرة من أبيه وضحكات مسترسلة من أخويه الكبيرين وأدرك طارق أنهم متفقون على سذاجة الفكرة التى أتى بها.. فمضى دون أن ينبس بكلمة أخرى تعرضه للسخرية مرة أخرى..

* * *

كان طارق فى طريقه إلى الكتاب صباح هذا اليوم عندما رأى الطفل حبيب المدلل. كما سموه فى الكتاب الأطفال.. رآه طارق قادما للكتاب راكبا دراجة حمراء، جديدة صغيرة، قادها بنفسه بسهولة وقد رافقه أبوه ماشيا على الأقدام..

وكان حبيب قد أخبر الأطفال - بفخر عظيم كعادته - أن أباه اشترى له دراجة بمناسبة عيد ميلاده.. ولم يفهم طارق ما هو عيد الميلاد هذا.. ولكنه عندما رأى الدراجة عن قرب فإن شعورا غريبا عليه انتابه.. لدرجة جعله يتمنى لو أن «حبيب» يعثر فيسقط من فوق الدراجة ويتحطم رأسه على قارعة الطريق..

لكن شيئا من ذلك لم يحدث، فقد واصل حبيب دورانه فوق الدراجة بمهارة حتى موعد الدخول إلى الكتاب حيث سلم الدراجة إلى أبيه الذى وعده أن يأتيه بها فى المساء ليعود عليها إلى البيت.

وفى المساء اختلى طارق بأبيه وطلب منه أن يشترى له دراجة كتلك التى يركبها حبيب.. حتى يذهب عليها - هو أيضا إلى الكتاب. ولسبب مجهول - فإن الأب انفجر غاضبا ومسك طارق من خناقه بقسوة وراح يهزه بعنف قائلا فى حدة:

- اسمع يا ولد.. أنا لا أستطيع أن أشترى لك فيلا.. تزرع فيها الياسمين - ولا دراجة ولا سيارة تركبها.. ولا حتى كورة.. ويجب أن تكف نهائيا عن إزعاجى ومطالبتى بما عند أصحابك من أبناء الحى الجديد.. فنحن لسنا مثلهم.. فهم أغنياء ونحن فقراء... هل فهمت.. وأنهى حديثه الحاد بصفعة قوية على خد طارق ألقت به أرضا.. وانتفض الصبى واقفا وهرع إلى أمه باكيا..

* * *

إن تلك الصفعة. جعلت «طارق» يكف عن سؤال أبيه أى شىء.. ومن هناك راح يتساءل عن شىء قاله أبوه يومها.. شىء حير عقل الصبى. لم يفهمه.. لقد قال أبوه.. إنهم أغنياء. ونحن فقراء... ولكن ما للأغنياء وما للفقراء... إن «طارق» يدرك أن للفلوس دخلا فى الموضوع.. ولكن بأية طريقة.. لماذا لا يملك أبوه كثيرا من النقود.. كأبى حبيب؟.

أسئلة كثيرة تبحث عن جواب.. ولا من مجيب..

إن أشعة الشمس راحت فى انخفاض مستمر. يوما بعد يوم...

مما أوحى لطارق. أن فصل الصيف يولى مدبرا.. والخريف يزحف شيئا فشيئا.. وقد تأكد من ذلك، عند ما كفت أمهم عن أخذهم للشاطىء صباح كل يوم جمعة..

وذات يوم أعلم أبو طارق.. «طارق».. بأنه سيلتحق بالمدرسة فى هذه السنة.. وقد تلقى طارق الخبر بارتباك الجاهل، وراح يتساءل عن السبب الذى يجعلهم يرسلونه إلى المدرسة.. فى حين هو يذهب إلى الكتاب، حيث يدرس القرآن الذى أنزله الله عز وجل.. فماذا سيعلمونه فى المدرسة خيرا من هذا الذى يتعلمه فى الكتاب..

ولكنه فرح كثيرا بالطبلية الزرقاء الصغيرة التى اشتراها له أبوه. والمحفظة الجلدية السوداء.. وطار فرحا بالسروال والقميص والحذاء، الجديدة كلها والتى لم يسبق لأبيه أن اشترى له مثلها حتى فى الأعياد..

وفى اليوم الموعود، وضع طارق يده الصغيرة فى يد أبيه الكبيرة وسارا فى طريقهما إلى المدرسة. وقد علم طارق أن المدرسة التى سيلتحق بها هى - مدرسة درمش الابتدائية - ولم يكن سمع عنها من قبل..

سار طارق بجانب أبيه باذلا جهدا كبيرا فى المحافظة على الخط مع أبيه وكأنه فى سباق معه.. وكان معجبا بالثياب الجديدة التى ارتداها والطبلية الزرقاء النظيفة وكان بين الفينة والأخرى يلمس بيده الحرة محفظته التى يحملها فوق ظهره.. وكان مسرورا.. يمشى بسرعة ورشاقة.. مشمخا منتفخا فى زهو عظيم فهو يشعر بطريقة. ما. أنه يكبر..

كانت مدرسة درمش الابتدائية (لما كانت ابتدائية) تقع فى موقع فريد، فهى بناية عظيمة من طابقين وكل طابق به ثمانية أقسام وقد ارتفعت وسط

ساحة فسيحة، تناثرت فيها مجموعة من الأشجار، مختلفة الأحجام؛ ولاحظ طارق بغرابة أن تلك الأشجار لاثمار لها. وقد حف بالمدرسة وساحتها ممشى معبد بالأسمنت عرضه متران ولا يرتفع عن الأرض إلا سنتيمترات قليلة.. وخلفه - من كل ناحية - كانت هناك أرض، هى أيضا فسيحة مهملة ومعشوشبة وقد تناثرت فيها مجموعة من الأشجار مختلفة الأنواع والأحجام.. وفى أقصاها على اليمين كانت هناك مجموعة من الأشجار الشوكية منعزلة، وقد تعانقت أغصانها وتشابكت جذورها.. فشكلت مجتمعة غابة شوكية صغيرة..

وعلى اليسار كان هناك طريق معبد وعلى جانبيه امتدت سلسلة من أشجار النخيل ولكن ثمارها كانت صغيرة جدا. وقد تذوق طارق ثمرة منها فإذا هى ذات طعم مالح.. وعلى يمين الطريق كان هناك ملعب لكرة القدم وآخر لكرة السلة.. وخلف المدرسة كانت هناك فيلا خصصت لمدير المدرسة وعائلته.. ثم حف بكل هذا سور عظيم، غاية فى القدم.. ولكنه لا يزال صامدا يضرب الحصار حول المدرسة ولا يترك لها منفذا إلا من ثلاثة أبواب، وكان طارق يعلم أن خلف السور من الناحية اليمنى هناك البحر: البحر الأبيض المتوسط الذى يمتد على طول الساحل التونسى..

وقف طارق ماسكا بمحفظته وسط صف طويل من أطفال فى مثل سنه، وقد كان بعضهم يبكى بعد أن أبعدوا عن آبائهم فى حين كان الآخرون فارحين مسرورين.. وقد لاحظ طارق بدهشة أن بعض الأطفال وبرغم سنهم الصغيرة فقد ارتدوا بدلات كاملة بما فى ذلك رابطة العنق.. ولم يرتدوا طبليات زرقاء كزملائهم.. كما كانت أحذيتهم لماعة ومن الجلد المقوى بحيث بدا حذاؤه الجديد وثيابه الجديدة مقارنة بما يرتدون، بدت جميعها تافهة..

عندما دخلوا الفصل وجد طارق نفسه فى غرفة طويلة عريضة امتدت فيها ثلاثة صفوف من موائد خشبية صغيرة وكانت كل مائدة ارتبطت بكرسيين صغيرين هما أيضا كانا من الخشب.. وسرعان ما احتل التلميذ الكراسى حالما دخولهم الفصل..

وعندما جلس طارق على أحد هذه الكراسى وجد أمامه منضدة وكرسيا خصصا للمعلم وسبورة كبيرة علقت على الجدار، أمامهم، ولاحظ طارق أن للفصل أربعة نوافذ كبيرة، نافذتان تفتحان على الساحة والأخريان تفتحان على ما خلف المدرسة، حيث بدت حديقة جميلة ارتفعت فى إحدى زواياها الفيلا المخصصة لمدير المدرسة.

على حين غرة دخلّ الفصل طفل ماسكا بثياب أمه، صارخا نائحا.. وكان حارس المدرسة يحاول تخليص أمه من قبضته.. وقام المعلم يساعده الحارس وخلصا المرأة من قبضة ابنها المولول.. ثم أجلساها فى مكان خالٍ.. خلف طارق، ولكن الطفل لم يكف عن البكاء والصراخ، ولم يهتم به المعلم... وقال طارق لنفسه لا شك أنه أحد الأطفال المدللين الذين لم يتعودوا على فراق أمهاتهم ولو للحظة..

الآن وقد تعلم طارق الذهاب إلى المدرسة وحيدا على الأقدام، سارعت أمه ونزعت عنه الثياب الجديدة، لتحتفظ بها للمناسبات السعيدة القليلة... وعاد طارق يرتدى ثيابه القديمة المرقعة.. ومن هناك راح طارق يغادر بيتهم فى ساعة مبكرة سائرا على الأقدام إلى المدرسة، وبرغم بعد المسافة فإن «طارق» أحب كثيرا السير فى الصباح الباكر فى الطرق الزراعية للياسمينة.. وقرطاج ببرسة.. قبل أن يغزوها العمران - كان طارق يخترق

الحقول معجبا بالسكون الذى يسيطر عليها، مستنشقا ملء صدره من نسائم الصباح النقية المنعشة..

وقد اختار طارق تلك الغابة ذات الأشجار الشوكية ليجعلها مكانه المفضل، فكان إذا وصل قبل الوقت يمضى إليها حاملا معه العصى ويدخلها متحفزا.. وكأنه ينتظر أن يهاجمه حيوان خطير.. وإذا حدث وصادفه جرذ قاتله فى هياج وطارده تحت الأعشاب والجذور..

ومضى طارق فى دراسته ونجح فى السنة الأولى والثانية بسهولة وفى السنة الثالثة واجهته مشكلة اللغة الفرنسية.. ولم يفهم السبب الذى جعل الوزارة تفرض عليهم هذه اللغة الأجنبية التى وجد طارق صعوبة كبيرة فى حفظها.. وزادت دهشته عندما علما أن الفرنسيين فى بلادهم لا يدرسون اللغة العربية لأبنائهم.. وتساءل مستنكرا لماذا نحن مضطرون لدراسة لغتهم.. ولاحظ بدهشة كبيرة أن أبناء الأغنياء يتكلمون الفرنسية بسهولة فى حين يعجزون فى اللغة العربية.. بالضبط عكسه هو وزملاؤه من أبناء الفقراء... الذين كانوا أقوياء فى العربية ولا يفهمون شيئا فى الفرنسية...

* * *

إن «طارق» وهو يتجول فى شوارع وأنهج قرطاج ودرمش لاحظ أن الفيلات هنا كبيرة ضخمة تتفوق على فيلات الحى الجديد، كما أن السيارات التى يركبها سكان المنطقة أفخم وأكبر من تلك التى يركبها سكان الحى الجديد.. قال طارق لنفسه، لا شك أن هؤلاء أكثر ثراء من الآخرين، الذين هم بدورهم أكثر ثراء من سكان حيه... إذن فالمجتمع الذى يعيش فيه ينقسم إلى ثلاث طبقات... طبقة ثرية وأخرى متوسطة وثالثة فقيرة.. وحدس أنه

ينتمي للأخيرة ولكنه لم ينزعج لهذا.. وراح يتساءل. لماذا كان مجتمعه مقسما بهذه الطريقة. غير العادلة كما يراها.. من قسم المجتمع ولماذا.. ولماذا كان هو من الطبقة الفقيرة بالذات.. أسئلة كثيرة تبحث عن جواب فى رأسه الصغير..

إن «طارق» عندما بلغ المدرسة هذا الصباح وجد التلاميذ قد اصطفوا أمام أقسامهم بصورة مبكرة عن العادة.. فاتخذ مكانه بين زملائه متسائلا عن السبب.. لكنه لم يتلق جوابا فقد كانوا كلهم يجهلون السبب... ورأى رجلين وأربعة نساء ارتدوا جميعهم طبليات بيضاء، رآهم مقبلين برفقة المدير والمعلمين وتأكد طارق أنهم أطباء وممرضات عندما شاهد الرجلين يعلقان سماعات طبية حول أعناقهما..

وشعر طارق بارتباك عظيم لما سمع معلمه يناديه مع ثلاثة آخرين وطلب منهم التوجه إلى مكتب المدير.. وهناك قام الطبيبان بإجراء فحوصات لهم وحقنوهم وحمدا لطارق الله كثيرا عندما رأى أن تلك الحقنة تعطى فى الكتف وليس فى المؤخرة..

ثم سلموا لكل واحد منهم ما يقارب ثلاثين الحبة تشبه حبات الأسبرين ولكنها صفراء اللون ومكعبرة. وطلبوا منهم أن يبتلعوا كل يوم اثنتين وأن يفعلوا ذلك أمام المدرس. ولما ابتلع طارق إحدى تلك الحبات وجدها مرة بصورة لا تطاق، وود لو يبصقها لولا مراقبة الطبيب وممرضة عجوز.. وتساءل بدهشة، كيف يسمون هذا السم دواء..

ولما سألوا المعلم عن سبب إعطائهم هذه الأدوية قال المعلم فى غموض:

- إن صديقكم منير الحفصى أصيب بمرض قد يكون معديا.. وفى الغد

عاد الطبيبان والممرضات الأربعة وهذه المرة حقنوا المدرسة كلها بما فيها من تلاميذ ومعلمين والمدير نفسه وحارس المدرسة كما فرقوا تلك الحبات البغيضة على الجميع.. ومن هناك وقبل نهاية الحصة بربع ساعة يقود معلم العربية التلاميذ إلى الحنفيات حيث - تحت مراقبته - يتناولون حبة من تلك الحبات اللعينة...

وذات يوم مشهود أعلن طفل يسكن قرب منير الحفصى أعلن أن منيرا مات بالكوليرا - ولما سمع طارق الخبر أصابه هلع عظيم وصرخ بلا وعى تقريبا - ماذا تقول.. مات بالكوليرا..!

رباه لقد كان منير يجلس بجانبه فى حصة العربية كما كان يتقاسم معه السندوتشات والغلال ولطالما جلسا معا تحت ظل شجرة الخروب العملاقة يتبادلان الأحاديث والنكت.. ان احتمال العدوى فى مثل تلك الحالة كبير، فهل سيموت هو أيضا بذلك المرض الخبيث؟.

هل سيموت فى التاسعة من عمره القصير أصلا؟.

وتفشى الخبر فى المدرسة بسرعة الضوء وأحدث فزعا لا مثيل له.. فى صفوف التلاميذ والمدرسين على السواء وفى المساء توافد أولياء التلاميذ يتساءلون عن صحة الخبر الذى سمعوه من أبنائهم.. وبرغم تطمينات المدير والمدرسين فإن الآباء والأمهات لم يطمئنوا قال المدير:

- لا تقلقوا لا تقلقوا، إن الإنسان الذى يلقح مرة واحدة ضد الكوليرا لا تصيبه مدى الحياة.. وأبناؤكم لقحوا مرتين كما أعطيناهم دواء عظيما فى مفعوله.. وأؤكد لكم أنه لا يوجد مريض واحد فى المدرسة كلها...

فقال له رجل:

- ألم يكن الأجدر بكم أن تلقحوا التلاميذ قبل أن يتفشى المرض فى المدرسة كلها.

فصرخ المدير:

- قلت لك: إن المرض لم يتفش فى المدرسة اطلاقا.. وأن ذلك الطفل المسكين أصيب بذلك المرض الخطير فى بيتهم وليس هنا.. والآن عودوا إلى بيوتكم واطمئنوا.

لكن «طارق» لم يطمئن قط.. وكلما شعر بألم ولو خفيف فى أى جزء من جسده أصابه هلع كبير وخيل له أنه بداية ذلك المرض الرهيب.. الذى ذكر اسمه فقط يثير الرعب... كوليرا.. يا له من اسم يثير الاشمئزاز!.

والآن فإن «طارق» راح يقبل على تلك الحبات الصفراء المرة بشجاعة مدهشة، يبتلعها وكأنها حلوى.. وينتظر فى جزع متى سيموت.. ولكن الأيام مرت والأسابيع بدون أن يحدث له مكروه فحمد الله كثيرًا على النجاة.

وذات مساء تذكر طارق - وبدهشة - أنه فى خوف وجزع نسى أن يحزن على صديقه منير.. أجل إنه لم يبك صديقه حتى أنه لم يتظاهر بالحزن أمام الأطفال الآخرين كان مشغولا بالخوف على نفسه فقط، وتساءل - إذ كان هو - طارق بن يوسف - جبان كبير.

وتذكر أن طارق كان بالنسبة لمنير الصديق الوحيد تقريبا، فقد كان منير له رأس كبير قليلا وكان الأولاد يسخرون منه وينادونه بذى الرأسين إلا طارق الذى كان يحترمه ولهذا أحب منير كثيرًا الجلوس برفقة طارق تحت ظل شجرة الخروب قرب الغابة الشوكية، حيث كانا يتقاسمان الخبز

والغلال ويتبادلان الأحاديث والنكتة وعجب طارق كيف يصاب إنسان كمنير بمرض كهذا.. من أين أتاه وأى حكمة فى هذا.

وفى تلك الليلة بكاه صديقه كثيرًا وقضى أياما حزينا من أجل صديقه ومن أجل نفسه أيضا فقد ثبت له أنه هو أيضا من الممكن جدا أن يتصرف كالجبناء.

وارتاح لما قاله معلم العربية - إن الإنسان الذى يموت صغيرا يكون مصيره الجنة لأنه مات بلا ذنوب.

وقد وجد طارق هذا القول معقولا فما دام حرم من الدنيا فمن الطبيعى أن ينال الآخرة.

إن العائلة راحت تتحدث أثناء الطعام عن رجل وزوجته يرغبان فى السكن عندنا.. وقد سمع طارق قصة هذا الرجل أثناء ثرثرة النسوة. وهى قصة أليمة حقا.

فقد كان لهذا الرجل وزوجته بيت فى الحى القديم، ولما هدمته البلدية انتقلا للسكن عند ابن خالة المرأة وكانت زوجته اسمها منى مصابة بالورم فى ساقيها الاثنين وفهم طارق أنها عاجزة عن المشى، وابن خالتها كان ثريا يملك فيلا بضاحية صلامبو وقد أعطاهما غرفة صغيرة فى الحديقة - كانت مخصصة للحيوانات، الكلاب أو كبش العيد أو أى حيوان آخر.

وكان العم رمضان وهذا اسمه كما سمعه طارق، يعمل مع أبى طارق بالديوان القومى للصيد البحرى كحارس ليلى، وذات يوم نبتت له حبة حمراء تحت ركبته اليمنى ويبدو أن العم رمضان أهمل مداواتها ونتيجة لهذا الإهمال فإن تلك الحبة راحت تكبر وتتضخم وتتوسع.. حتى كونت جرثومة

داخل ساقه أقعدته عن المشى.. ولما عرضوه أخيرا على الطبيب فقد أمر هذا ببتر الساق فى الحال، لأن الجرثومة أهلكت الساق وراحت تتوسع بسرعة مذهلة.. وهكذا بترت ساقه إلى حد الركبة..

ووجد الرجل المسكين نفسه هو أيضا عاجزا عن الحركة. وأصبح هو وزوجته - كلاهما لا يغادران غرفتهما الصغيرة المهملة فى الحديقة، وقام باستئجار امرأة عجوز لتخدمهما. وكانا إذ شعرا مساء دافئا، يخرجان من غرفتهما الصغيرة ويفترشان الأرض فى الحديقة ليتمتعا بقليل من النسيم العليل.. حتى كان يوم طلبت منهما صاحبة الفيلا عدم الخروج نهائيا.. لأن منظرهما معا يزعج زوارها الأثرياء ويؤذى مشاعرهم. كما قالت.

وقد تأثر كثيرا العم رمضان لهذا الكلام وأرسل فى طلب أبى طارق، ويبدو أنه صديقه الوحيد. وهناك أخبره عن رغبته فى الانتقال للسكن فى إحدى الغرف عندنا، كما أكد أنه قادر على دفع خمسة دنانير كإيجار للغرفة. ولم يستطع الأب رفض هذا الطلب من صديق قست عليه الظروف.

وهكذا أخلى طارق وأخوه كمال غرفتهما وانتقلا للنوم فى غرفة أخويهما الكبيرين محمد وفوزى، وطبعا ضايق هذا الانتقال طارق كثيرا، فمعنى هذا أنه سيكون تحت مراقبة أخويه باستمرار، ليلا ونهارا.

وذات صباح توقفت سيارة تاكسى أمام باب الدار ونزل منها محمد «الأخ الاكبر» ثم فتح الباب الخلفى للتاكسى وأخرج بين ذراعيه شيئا كان فى يوم ما رجلا موفور الصحة. أما الآن فقد نحل لدرجة لا يتصورها الخيال.

كان شديد السمرة وقد لاحظ طارق أن ساقه اليمنى هى التى بترت، وبدا بين ذراعى محمد كطفل صغير لولا ملامح وجهه المجعد، كان جلدًا على

عظم وكأنه هيكل إنسان مات منذ قرون وزاده العبوس والحزن الواضح، بعدا دراميا موحيا بالمآسى التى تحل بلا مقدمات.

دخل محمد بالرجل ، ثم عاد وفتح الباب الآخر. بجانب السائق.. وببطء شديد نزلت امرأة.. ولما استمرت واقفة معتمدة على كتف محمد بيد وبالأخرى على عصا غليظة هنا تأملها طارق، فإذا هى امرأة بيضاء تجاوزت الأربعين وكانت ضخمة بصورة مفجعة وبرغم ضخامتها بدا واضحًا أنها بلا قوة، فكأنها بالونة كبيرة نفخت بالهواء.. ولاحظ طارق قدميها المنتفختين المتلاصقتين وكأنهما قدما فيل هرم.. مشت إلى البيت بخطا ثقيلة بطيئة. حتى أن أى رضيع بإمكانه مسابقتها.. وكانت بين الفينة والأخرى تقف لتأخذ أنفاسها، ثم تواصل سيرها البطىء. وسار وراءها طارق، ذاهلا مصدوما.

وما أن دخلت أول غرفة اعترضتها حتى ارتمت على أقرب سرير لاهثة، وكأنها قامت بسباق ألف متر حواجز.. ثم جاءت شاحنة مملوءة، بالأدباش والأمتعة.. كرسيان وسائد وسريران.. وأدرك طارق أن تلك هى ممتلكات تلك الأسرة البائسة.. وجاءت أيضا مع الشاحنة تلك المرأة التى تخدمهما - بلا مقابل - فهى أيضا مرت بها ظروف أخذت منها كل الأحباب والأقارب ولم يبق لها أحد.. ففضلت أن تعيش معهما وكانت امرأة قصيرة تجاوزت الخمسين سمراء الملامح وقد غزا الشيب كل رأسها بصورة مبكرة مما أوحى لطارق أنها هى أيضا مرت بها ظروف أليمة.. ولكنها كانت رحمة من الله لذلك الرجل وزوجته فهى تقوم بكل خدمة فى سبيلهما حتى حاجتهما البشرية يقومان بها فى غرفتهما بمساعدتها.. وكانت نشيطة سريعة الحركة.

وقضى طارق مدة، يفكر ويتساءل، عن السبب الذى جعل مثل هذه

الأشياء الفظيعة تصيب هذه العائلة البائسة ولم يجد قط جوابا مقنعًا.

وتجرأ مرة وسأل أباه، فقال الأب :

- إنها إرادة الله..

فعاد طارق يقول بإلحاح:

- ولماذا أراد الله هذا؟

فقال الأب بشيء من الحدة :

- أستغفر الله ياولد إنك بهذا القول تكفر بإرادة الله فسارع طارق يقول : (أستغفر الله رب العالمين).

وقال الأب :

- إن الله يمتحن عباده الصالحين عندما ينزل بهم ظروفا قاسية وحياة صعبة حتى يمتحن قوة إيمانهم به والإنسان الصالح عليه أن يرضى بما أراده له الله مهما كان صعبا.

* * *

إن العم رمضان وزوجته منى، قضيا الشتاء كله فى غرفتهما الصغيرة، لم يغادراها قط إلا للاستحمام.. ولم يرهما طارق إلا مرات قليلة عابرة، عندما كانوا يطلبون منه أن يحمل لهما قهوة أو علبة سجائر وقد لاحظ طارق أنهما ينامان على سريرين منفصلين تفرق بينهما خزانة كبيرة.. ولم يحدث قط أن دخل عليهما طارق ووجدهما يتحدثان.. كانا دائما صامتين، وكان العم رمضان يدخن ويقرأ الجرائد ويحتسى القهوة التى يدمنها، فى حين كانت زوجته تستمع للراديو وهى مستلقية فى ذهولها الأبدى.. وقال طارق لنفسه لا شك أنهما لم يعد عندهما شيء يقال.

أحيانا كان طارق يمضى متلصصا ويلقى عليهما نظرة متطفلة من النافذة، وذات مساء رأى طارق العم رمضان وهو يبكى فى مرارة.. فأحس الصبى بآلام حادة داخل قلبه اليافع الفتى.. وبكى طارق لبكاء الرجل، وتساءل فى تمرد.. أية حياة تلك التى يحيانها.. وما أقسى هذا الشىء الذى سمعهم يسمونه - قدر الإنسان - أى قدر هذا !

وشغلته فكرة أقلقته، ماذا كان سيفعل لو كان هو مكان العم رمضان.. كيف كان سيواجه هذا القدر المصلت.. وقال - أليس الموت أفضل فى مثل هذه الحالة - ولكنه تذكر كيف كان جبانا يوم ظن أنه سيصاب بالكوليرا وكيف خاف من الموت.. فخجل من نفسه وقال : ربما كان الموت شيئا أفظع من هذا.. عندما راحت الشمس ترتفع حرارتها يوما بعد يوم. فإن العم رمضان والخالة منى أصبحا يخرجان من غرفتهما ليجلسا فى وسط الدار؛ وقد شاركت المرأة فى حلقات الثرثرة التى تعقدها النسوة فى بيتنا كل مساء، وقد أحبت ذلك كثيرا.

أما العم رمضان فراح بمعونة الأب والأخ الأكبر يحاول المشى على ساق واحدة معتمدًا على عكازين لكنه كان هزيلا جدا وبرغم ضعفه راح يحاول ويصارع عجزه.. حتى تغلب عليه واستطاع أخيرا الخروج من البيت وكان يمضى للجلوس فى المقهى مع رجال الحى أو تحت الجدران أحيانًا.

أخيرًا تعود عليهما طارق فكف عن التطفل عليهما وراح يولى اهتمامه برفقتهما الثالثة - خيرة - هذا كان اسمها، راح يسألها - من أين جاءت؟ ولماذا شاب كل رأسها ؟ وأين أسرتها ؟

لكنها كانت ترفض الحديث فى هذا الموضوع.. ولما ألح عليها.. أخبرته

مرة بصورة غامضة، أنها كانت مرة متزوجة ولها بنت ولكن زوجها هرب.. وماتت ابنتها.. ثم انخرطت فى بكاء مرير حتى جعلت طارق يبكى مثلها ويندم لسؤالها عن مثل هذه الأشياء المؤلمة.

* * *

ذات صباح صيفى تأخر طارق فى نومه، وكان قد بدأ يتمط ويتكاسل محاولا النهوض.. عندما هزته صرخة فاجعة.. ثم توالى الصراخ عاليا مصدوما.. ألقى طارق الغطاء وقفز من سريره وجرى إلى الخارج حافى القدمين وفى وسط الدار رأى خيرة تمسك رأسها بكلتا يديها وتصرخ وتولول مشيرة إلى غرفة العم رمضان.

وسبق طارق الجميع إلى الغرفة المعنية.. وكان أبوه وأخواه الكبيران قد غادروا الدار مبكرا. وهناك رأى.. كان العم رمضان ممددا فى فراشه فاغرا الفم، وعيناه مفتوحتان وقد تصلبت ملامحه ولم تند عنها أية حركة.. وحدس طارق أن الرجل مات..

وسرعان ما أمرته أمه بمغادرة الغرفة.. وهاجمت نساء الحى بيتهم وغزين الغرفة حيث كان العم رمضان يرقد بلا حركة.

وعلى حين غرة هزت طارق صراخات جديدة مصدومة وسار خبر غريب مدهش.. فقد استيقظت الخالة منى على ضجيجهم؛ ولما أخبروها بما حدث لزوجها شهقت - شهقة عظيمة - كما وصفوها، ثم استرخت وخمدت أنفاسها، ولما حاولوا إيقاظها، اكتشفوا أنها فارقت الحياة التعيسة.. ماتت هى أيضا ولحقت بزوجها.

وتعالى الصراخ من النسوة واختلط العويل بالبكاء وراح طارق يراقب

بنفور الغرباء وهم يقتحمون بيتهم ويستبيحون غرفه، وشاهد بعض النسوة وهن يقلبن محتويات الغرف فى فضول ويعلقن على ذلك.

فى حين راحت أخريات يصرخن ويلطمن خدودهن وينتفن شعورهن ويبكين.. وتساءل طارق عن سبب بكائهن ومبالغتهن فى إظهار الحزن.. فى حين أن معظمهن لا يعرفن الميت..

قال طارق لنفسه: يبدو أنه ليس الفقر والغنى وحدهما يستحقان الدهشة والتفكير.. هنا أيضا الموت.. أجل ما الموت!.. ماذا نعنى عندما نقول: إن فلانا مات.. لماذا مات؟! وبماذا؟! والغريب حقا أن كل الناس سيموتون يوما.. إذن لماذا خلق الإنسان أصلا مادام سيموت لا محالة... أسئلة كثيرة تحير عقله الصغير.. لكن بدا له الموت - كما رأى العم رمضان ميتا - بدا له نوع من النوم، نومة عميقة أبدية، بحيث عندما حركته خيرة وهزته وصرخت وولولت لم يسمعها ولم يستيقظ. وقد علم طارق أن العم رمضان لم يستيقظ، لأن شيئا نقصه أثناء نومه.. شىء سمعهم يسمونه الروح..

وقد قالوا: إن الروح تعود للجسد يوم الحساب.. وعندها فقط يستيقظ الميت.. ولكن ما الروح؟.. وما يوم الحساب؟.. متى سيكبر ويفهم ويتعمق؟..

وهل سيفهم شيئا ما فى يوم ما؟..

* * *

سار طارق فى مؤخرة الجنازة، حافى القدمين منفوش الشعر، مغبرا متسخا، ممزق القميص ورث السروال... ففى اليومين الأخيرين لم تهتم به أمه ولم يشعر أحد بوجوده، فقد استباح الغرباء بيتهم وراحوا يدخلون

ويخرجون متى أرادوا... ونام بعضهم هناك أيضا... وسهرت بعض النسوة للصباح مع الجثتين.

وكان طارق ينام فى أى مكان يجده ويأكل ما يقدم له من خبز وزيت.

سار طارق خلف الشاحنة التى تحمل الجثتين إلى مثواهما الأخير، وسار معه أصدقاؤه وأبناء حيه - سمير وطاهر وفتحى ومحمود - ولم يكونوا أحسن منه حالا، فقد شاركت أمهاتهم فى كل شىء فى السهر مع الجثتين وفى البكاء والعويل واللطم... وفى مقدمة الجنازة سار رجال الحى، أبوه والعم على والعم مبروك ومعظم الرجال والشباب من الحى القديم.. كما سار معهم ذلك الرجل الثرى - ابن خالة المرحومة - سار معهم ببدلته السوداء الأنيقة واضعا نظارة سوداء هى الأخرى - مطأطىء الرأس متظاهرا بالحزن الشديد ولكن طارق لم يشعر نحوه إلا بنفور شديد...

وبكى طارق كثيرا عندما بلغوا المقبرة.. بكاء خوف. وخجل وحزن.. فقد كان يشعر فى أعماقه بنوع من الراحة غير خافية.. فأدرك أنه فى أعماقه لا يزال على رأيه القديم من أن موتهما خير لهما من تلك الحياة المؤلمة التى كانا يحيانها... وهو يظن أن رأيه هذا حرام، حرام أن يفرح لموت إنسان مهما كان الدافع. وشعر أنه يحاول بصورة ما أن يتحدى إرادة الله، أليس الله أراد لهما تلك الحياة وهو يريد أن يحرمهما منها..

وبعد أن أوروا العم رمضان وزوجته الثرى عادوا إلى البيت، حيث قضت معهم تلك المرأة خيرة مدة ولكنها أعلنت - بعد الأربعين - عن رغبتها فى العودة إلى العائلة الثرية.. ولم يعارضها أحد.. وقد رحب طارق فى خجل بذهابها، فهذا معناه أنه سيعود إلى غرفته مع أخيه الأصغر

- كمال - حيث سيهرب من مراقبة أخويه الكبيرين ويسهر إذا أراد وينام متى شاء ويكتب ما يحلوله بعيدا عن العيون المتطفلة..

بعد رحيل المرأة خيرة بأيام، تلقت العائلة استدعاء من مركز الشرطة... ولما ذهب الأب للاستفسار، أخبروه، أن ذلك الرجل الثرى قدم شكوى مطالبا بإخلاء البيت حالا.. زاعما أن الدار كانت ملكا للعم رمضان.. وبما أنه قريبه الوحيد (من ناحية زوجته) فهو إذن وريثه الوحيد، ولهذا يطالب بالبيت حالا... ولما علم طارق بالخبر. انتابه غضب عظيم.. وبرغم أن الأب حل المشكلة بسرعة. فقد كان يملك شهادة ملكية من سنة ١٩٢٧ أى قبل أن يولد العم رمضان نفسه... إلا أن طارق لم يزايله الغضب ولم يفهم كيف يقدم إنسان يملك فيلا فيها أكثر من عشر غرف على تقديم قضية فى محاولة للاستيلاء على بيت قديم تملكه عائلة فقيرة بحى بائس... وكل هذا يحدث باسم القرابة التى ربطته بامرأة طردها عندما كانت فى أشد الحاجة لمساعدته.. وازداد ذهول طارق عندما سمع من النسوة أن فى فيلا له هناك خمس غرف مغلقة باستمرار.. لأنهم لا يستعملونها.. إذن لماذا يريد الاستيلاء على أربع غرف أخرى... وقال طارق إن هذا الرجل أمره غريب حقا فهو وبرغم أنه عربى ومسلم فإنه يبدو لا يخاف الله ولا يعرف قلبه الرحمة.. والمدهش أن له قلبا دون شك.

فطارق يعلم أن الإنسان أو حتى الحيوان لا يستطيع العيش بلا قلب... فهو اذن رجل عادى كأى رجل فى الحى له قلب وعينان وأنف وفم وساقان ويدان ولحم ودم... ولكن طارق لا يستطيع أن يتصور أن أى رجل فى الحى قادر على القيام بما قام به هذا الرجل... إذن هناك اختلاف فى الفكر.. ولكن ما سبب هذا الاختلاف... وبعد مدة علم طارق من ثرثرة النسوة، أن تلك

العائلة الثرية وضعت المرأة خيرة فى مستشفى أو بيت العجز (وهو مكان مخصص للعجائز والشيوخ الذين لا أهل لهم، أو الذين يرغب أبناؤهم فى التخلص منهم).

وطبعا استولت تلك العائلة على ما خلفه العم رمضان وزوجته وهو شىء قليل.. قليل من المصوغ. ومائدة وكرسيان وخزانة وسريران وراديو وثياب مستعملة... ومن هناك انتهت علاقة العائلة بالأسرتين، التى اندثرت والتى لا تزال قيد الحياة...

وقضى طارق وأخوه كمال ليلتهما الأولى فى غرفتهما خائفين من الأشباح والأرواح.. فكانا إذا دخلا إلى الغرفة ساعة النوم يختفيان تحت الغطاء ولا تظهر عنهما أية حركة حتى الصباح ولم يجرؤ طارق على السهر فى غرفته مدة شهر حتى نسى تماما العم رمضان وزوجته...

فى ذلك اليوم الربيعى، كانت المدرسة هادئة وبدت الأرض الفسيحة أمام ساحة المدرسة معشوشبة خضراء زاهية وقد تميزت زهرات الأقحوان بألوانها البديعة المختلفة.. صفراء وحمراء وبيضاء... وكانت السماء صافية زرقاء ممتدة إلى مالا نهاية، ومن الصباح الباكر راحت الشمس ترسل بشعاعها الذهبى على المناطق الشمالية، فدب الدفء فى كل الكائنات، وراحت جماعة من الطيور تنتقل فوق أغصان الأشجار الخضراء المتفتحة، تزقزق وتغنى.. وسارت الحياة فى كل شىء. وساد الجو هدوء ساحر فيه كثير من الأمن والسلام. وكأن يد الله المباركة مسحت عن الأرض آلامها وطهرت القلوب من آثامها.. وفى هذا السحر الإلـهى ارتفع صوت طارق قارئا - نثرا - قصيدة ميخائيل نعيمة أخى.. وكان معلم العربية يحب كثيرا الطريقة التى يقرأ بها طارق، فهو بالإضافة لكونه لا يتلعثم أثناء القراءة كما يفعل معظم

زملائه، كانت الكلمات تخرج من فمه قوية مملوءة بمشاعر وأحاسيس، فكأنه يقرأ بقلبه مباشرة...

راح طارق يقرأ والمعلم والتلاميذ يصغون.
أخى إن عاد بعد الحرب جندى لأوطانه...
وألقى جسمه المنهوك فى أحضان خلانه...
فلا تطلب إذا ما عدت للأوطان خلانا...
لأن الجوع لم يترك لنا صحبا نناجيهم...
سوى أشباح موتانا...

وهنا دخل الفصل مدير المدرسة وتلميذ صغير.. فقام التلاميذ واقفين وتوقف طارق عن القراءة.. لكن المدير أمر التلاميذ بالجلوس، ثم طلب من طارق مواصلة القراءة.. وواصل طارق.

أخى إن عاد يحرث أرضه فلاح أو يزرع....
ويبنى بعد طول الهجر كوخا هده المدفع..
فقد جفت سواقينا وهد الذل مأوانا...
ولم يترك لنا الأعداء غرسا فى أراضينا...
سوى أجياف موتانا..
أخى، قد تم ما لو لم نشأه نحن ماتما..
وقد عم البلاء ولو أردنا نحن ما عما..
فلا تندب فأذن الغير لا تصغى لشكوانا..
وهنا قال المدير:

- يكفى..

ثم التفت للمعلم قائلا:
- هذا هو التلميذ الذى حدثتنى عنه.

فقال المعلم:
- نعم هو، طارق بن يوسف..

فقال المدير:
- حسنا إنه جيد ولكن - وهنا وجه حديثا لِطارق - إن معلم الفرنسية يقول: إنك ضعيف فى الفرنسية..

فنهض طارق واقفا قائلا:
- نعم يا سيدى هذا صحيح..

فقال المدير:
- أنت تعلم أنه إذا أردت أن تنجح، فعليك أن تكون متفوقا فى اللغتين معا...

فقال طارق:
- أعرف يا سيدى.

فواصل المدير مشيرا إلى التلميذ الذى أتى برفقته قائلا:
- هذا زميلك، عادل الجبالى. وهو يعانى من عكس مشكلتك أنت، فهو قوى فى الفرنسية وضعيف فى العربية ولهذا، أريد منكما أن تتعاونا، فهو سيعينك فى الفرنسية وأنت تعينه فى العربية..

فقال طارق:
- حسنا يا سيدى.

عندها قال المدير:

- إذن ستجده فى انتظارك بعد نهاية الحصة لتتفقا متى ستبدآن...

فكرر طارق جملته.

- حسنا يا سيدى..

ولم يتسن لطارق أن يرى التلميذ الغريب إلا خطفا فقد غادر القسم مع المدير ما أن أنهى هذا حديثه وعجب طارق أن المدير ومعلم العربية تحادثا بشأنه ولم يفهم هذا الاهتمام الذى أبداه المدير نفسه بهذا التلميذ وبضعفه فى العربية..

ولما انتهت الحصة وغادر طارق الفصل وجد التلميذ الغريب ينتظره فى الساحة، وهنا تأمله طارق متفحصا فإذا هو غلام فى مثل عمره متوسط القامة ناحلا قليلا وقصيرا؛ ودهش طارق عندما وجده يرتدى بدلة كاملة أنيقة وجديدة، وبدت ملامح وجهه بيضاء ناصعة وعيناه خضراوان صافيتان وشعره أحمر ناعم، كأنه أوربى صغير.. وقد وقف ماسكا بيد محفظة كبيرة واليد الأخرى فى جيب جاكتته، وراح هو أيضا يراقب طارق وهو يتقدم، بنفس النظرة المتفحصة.. ولما أصبح طارق أمامه تماما. فإن التلميذ الغريب وضع محفظته أرضا برشاقة، ومد يده مصافحا قائلا باعتداد وزهو.

- اسمى عماد الجبالى - خامسة أ.

ولما صافح طارق عماد أحس أن يد هذا طرية، لينة فأدرك أن هذا الصبى لم يعد قط فى الحى حافى القدمين ولم تمس يداه التربة والأحجار.. وأكيد أنه لم يتخاصم مع أبناء الأحياء الأخرى...

ولسبب مجهول فإن طارق أحس بنفور من هذا الصبى الواقف أمامه باسما وقال بفتور واضح:

- طارق بن يوسف خامسة - ب.

عندها قال عماد:

- هل تريد أن نطالعا فى بيتنا...

فقال طارق بشىء من الحدة:

- كلا...

فقال عماد فى بساطة:

- إذن فى بيتكم..

فصرخ طارق.

- لا.. لا فى بيتنا ولا فى بيتكم.. سنأتى هنا بعد الظهر قبل موعد حصة الفرنسية بساعة ونجلس هناك تحت ظل شجرة الخروب ونطالع معا ساعة كاملة...

فقال عماد:

- حسنا، لقد فهمت ولكنى لا أفهم سبب غضبك...

فقال طارق فى تحدٍّ.

- وهل تريد أن تعرف؟..

فقال عماد:

- أريد حقا...

فقال طارق بصراحة:

- الحقيقة، أنى غير سعيد بالمطالعة معك...

فقال عماد وقد احتد هو الآخر.

– هه.. وهل تظن أنى سأطير فرحا بالمطالعة معك إنى هنا لأن المدير طلب منى ذلك، فإذا لم يعجبك الحال فاذهب للمدير وخبره أنك ترفض..

فقال طارق:

– أنا لا أستطيع أن أرفض رغبة المدير...

– ولا أنا.. إذن دعنا نعمل ما طلب منا..

قال عماد هذا ومضى مبتعدا غاضبا.. فناداه طارق قائلا:

– لاتنس، عند منتصف النهار تماما قرب تلك الشجرة. فصرخ عماد فى تحدٍّ.

– سأكون فى الموعد..

وراقبه طارق وهو يبتعد ثم رأى سيارة سوداء كبيرة تدخل من الباب الكبير للمدرسة وتوقفت قرب عماد فصعد إليها هذا وغادرت المدرسة.

ومضى طارق فى طريقه للبيت منشغل الفكر بهذا الغلام، الذى يبدو من الأثرياء الذين طلبوا منه أن يعينه فى دروسه العربية، وعجب أن المدير جاء، بنفسه ليطلب منه ذلك.. وشعر بنوع من الفخر ولكنه لما تذكر أنه سيضطر للمجيء ساعة قبل الوقت تضايق كثيرا.

وفى منتصف النهار عندما دخل طارق المدرسة من الباب الكبير.. رأى من بعيد التلميذ عماد واقفا تحت شجرة الخروب العملاقة وكان لايزال يبدلته الأنيقة الكاملة برغم حرارة الطقس، ماسكا بحفظته الكبيرة. بيد والأخرى فى الجيب.. فمضى إليه طارق غير سعيد. وتصافح التلميذان فى فتور متبادل.. ثم جذب طارق حجرة وجلس عليها.. وفعل عماد مثله ولكن قبل أن يجلس على الحجرة أخرج منديلا وفرشه عليها ثم جلس وقد راقب طارق هذه الحركة بنفور.. ثم قال :

قبل أن نبدأ أريد أن أسألك عن سبب اهتمام المدير بشأنك.. فهناك آلاف التلاميذ الضعفاء فى العربية والفرنسية ولم يهتم بهم أحد.. فهل قلت لى سبب الاهتمام بك ؟

فقال عماد :

- ألا تعلم أن المدير زوج عمتى..

فقال طارق فى استهزاء :

- آه.. فهمت فهو الأنكل بتاعك..

فقال عماد فى تحدٍّ :

- ليس هذا فقط.. فهو أيضا صديق أبى المفضل (وأبى مستشار كبير فى المحكمة و.. وقاطعه طارق فى عنف.

- أنا لايهمنى من هو أبوك.. وإذا كان كما تقول، رجل عظيم فلماذا لم يعين لك مدرسا خاصا يعطيك دروسا. خصوصية.. فى اللغة العربية.

- لقد عين لى كثيرين ولكنى تخاصمت معهم وقد ظن عمى (المدير) أن مطالعتى مع تلميذ مثلى ستفيدنى كثيرا ولكن يبدو لى أنه أخطأ.

- هذا مايبدو لى أيضا ولكن لابأس فى أن نجرب حظنا.

أخرج طارق كتاب العربية متسائلا.

- ماهى مشكلتك فى اللغة العربية؟

فقال عماد وقد خفت حدته :

- مشكلتى فى النطق، فهناك كلمات أعجز عن نطقها صحيحة برغم أنى

قد أكتبها صحيحة وكذلك هناك كلمات لا أفهم معناها وقد أستطيع قراءتها..

فقال طارق :

- يبدو أنك ضعيف فى النحو والصرف. فهتف عماد..

- برافو.. تلك هى مشكلتى وأضاف ضاحكا خصوصا فى الصرف مع هن وأنتن.

فقال طارق :

- سأتولى إعانتك فى العربية أسبوعا؛ والأسبوع المقبل تعيننى أنت فى الفرنسية.

- موافق..

ومضى التلميذان فى دروسهما المشتركة.. ويوم بعد يوم راح عماد ينال مكانة أكبر فى قلب طارق وينتزع إعجابه وأثبت أنه ليس مجرد صبى ثرى ومدلل - كما كان يظن طارق - بل أثبت أنه ذكى وطموح وقد أذهل طارق برغبته الكبيرة فى التعليم وإقباله الشديدِ على الدروس.. فقد كان يجلس أمام طارق يستمع له وهو يقرأ أو يشرح كلمة دون أن تند عنه حركة، أحيانا يطلب إعادة شرح كلمة أو إعادة قراءة فقرة.. ولاحظ طارق أن عماد أيضا يميل إلى الأدب.

ولما جاء دوره لإعانة طارق فى الفرنسية فقد أبدى تفوقا فى تلك اللغة فاق كل تصور ذهب إليه طارق ومرة قال لطارق:

- ما هذه الدروس التى نتلقاها فى اللغة الفرنسية فى المدرسة، أ .. ب ..

س .. هـ .. ذهب على للمدرسة. أكل صالح الخبز.. هل هذه هى الدروس الفرنسية.. فقال طارق!

ولكن ليس كل التلاميذ متفوقين فى الفرنسية مثلك - بل تكاد تكون أنت الوحيد المتفوق فى هذه اللغة - وأنا تساءلت كثيرا عن سبب تعلمنا اللغة الأجنبية.

فقال عماد فى دهشة:

- كيف تساءلت؟

فقال طارق :

- إنى لا أستطيع أن أتصور أن تلميذا صغيرا عمره لم يتجاوز العاشرة بإمكانه التركيز وتعلم لغتين فى نفس الوقت والتفوق فيهما معا.. فتلاميذنا ليسوا كلهم عباقرة، أما الإصرار على تدريسهما اللغتين فى نفس الوقت ستكون نتيجته سيئة عليهم.. فقليلون منهم ستتفوق عندهم لغة على أخرى، فى حين معظمهم سيتعلمون قليلا من الأخرى.. والنتيجة سيكونون ضعفاء فى اللغتين.. فقال عماد :

- ولكنك تنسى أننا بحاجة لهذه اللغة فهى تعطينا نافذة نطل منها على العالم المتقدم.. على التقنية والعلوم و ...

وقاطعه طارق قائلا :

- لم أطلب إلغاء اللغة الفرنسية من كل أنحاء الجمهورية التونسية.. قلت فقط يجب حذفها من المدارس الابتدائية على أن تدرس فى المرحلة الثانوية لمن يرغب فى دراستها؛ مثلها مثل اللغة الإنجليزية أو الألمانية فأنا أفضل أن تكون عندنا أقلية أو مجموعة تتكلم لغة أجنبية وتجيدها جيدا خيرا

من أن تكون عندنا أغلبية تتكلم قليلا بالفرنسية وقليلا بالعربية فلا تكون عندهم لغة على الاطلاق. أى أنى أفضل الكيف على الكم.. وبهذه المناسبة دعنى أعبر لك عن دهشتى، كيف انسان تونسى عربى مثلك يتكلم ويقرأ ويكتب جيدا الفرنسية ويعجز عن فعل ذلك بالعربية.. لغة بلدك وشعبك..

وهنا وعلى حين غرة ذهل عماد واحمر وجهه ثم طأطأ رأسه خجلا وظل لحظات صامتا.. ثم رفع رأسه ناظرا بعيدا وقال بحزن حقيقى :

- لقد ولدت فى فرنسا.. وأمى فرنسية.. وأبى و .. و ..

وعاد وصمت، وقد دهش طارق لهذا الحزن المفاجئ.. وهذا التناقض الغريب، منذ لحظات كان يدافع عن اللغة الفرنسية والآن يحزن، فقط لأن أمه فرنسية وقال له طارق :

- وما فى ذلك فأنت لست الوحيد فى تونس الذى أمه أجنبية؛ كثيرون مثلك ولكنهم يتكلمون العربية كما يتكلمها أى عربى.

فعاد عماد يقول بحزن :

- أنا لست مثلهم.

- لماذا ؟

- لأن أمى تريد أن نعود إلى فرنسا ولهذا لا تريدنى أن أتعلم جيدًا العربية .. فهى تقول إنى فرنسى.. قال عماد هذا ونهض واقفا قائلا :

- يجب أن أذهب الآن.

ومضى مبتعدا تاركا طارق فى ذهوله، وفى الغد لما التقيا، كعادتهما، فإن

عماد لم يشر إلى حديث البارحة وبدا واضحا أنه يرفض الحديث فى هذا الموضوع.

* * *

تراءت له الفيلا من بعيد شامخة مرتفعة. ذات ثلاثة طبقات وزاد من ارتفاعها أنها بنيت فوق أحد مرتفعات مدينة قرطاج، تلك المدينة الأسطورية، بدت الفيلا تحت أشعة الشمس بيضاء ناصعة لا خدوش فيها.. وأطلت من الحديقة أغصان أشجار عملاقة..

مضى طارق صاعدا الطريق المرتفع مشرئبا بعنقه إلى الفيلا وقد أدهشته ضخامتها.. ولما بلغ الباب الحديدى الكبير، ذا المصراعين، اقترب بارتباك وضغط على الزر فإذا بكلبين شرسين - من كلاب الصيد يقبلان من مكان ما بالحديقة، أقبلا ينبحان وارتطما بعنف على الباب.. حتى خيل لطارق أنهما كسراه فتراجع القهقرى خائفا.. وقد روعته المفاجأة.. وحافظ الكلبان على نباحهما وأعادا الارتطام على الباب بشراسة.. فود طارق لو يفر.. ولكن ظهر رجل مقبلا مرتديا ثيابا رثة مغبرة.. مما أوحى لطارق أنه بستانى، صرخ الرجل فى الكلبين قائلا :

- ديك لورى كفى..

وفى الحال خمد نباح الكلبين وتراجعا عن الباب ثم مكثا متحفزين.

- قال الرجل بشىء من الحدة وهو يتفحص ثياب طارق

- ماذا تريد ؟

فقال طارق :

- إنى صديق عماد، وأتيت لأراه و..

وقاطعه الرجل قائلا :

- صديقه.. أين تعرفه ؟

- إنه زميلى فى المدرسة..

فقال الرجل :

- حسنا ستراه غدا فى المدرسة.

فقال طارق :

- ولكنه يريد رؤيتى اليوم هنا..

فقال الرجل بنفاد صبر :

- اسمع يا بنى، اليوم عيد ميلاد عماد..

وبدا أن الرجل يحاول تسريب رسالة ما إلى طارق ولكن طارق لم يفهم وقال :

- أعرف أن اليوم عيد ميلاده ولهذا أتيت.. فابتسم الرجل فى غرابة وعاد يتفحص ثياب طارق ويقول :

- إنك لاتعرف معنى عيد ميلاده و...

وهنا أطل عماد من نافذة فى الطابق الثانى ونادى الرجل قائلا :

- يا عم أحمد دعه يدخل..

فأبعد الرجل الكلبين وفتح أحد مصراعى الباب وتسلل طارق داخلا.

صعد طارق أربعة درجات من الأسمنت، ثم سار فى ممر عرضه متر ونصف يميل إلى اليسار وعلى جانبيه زرعت مجموعة من الزهور والورود.. وعند الباب استقبله عماد وكان كعادته أنيقا ببدلته الكاملة الرسمية.. تصافحا بحرارة وعماد يقول :

- جئت متأخرا كعادتك ولكن المثل الفرنسى يقول : «تأتى متأخر خير من أن لا تأتى»..

فقال طارق ضاحكا:

- حتى الفرنسيون يعرفون الأمثال..

فقهقه عماد قائلا :

- آه لو تسمعك أمى.

ثم دخلا مابدا أنه صالة كبيرة فسيحة انتشرت فيها كراس وثيرة ولكنها لم يمكثا فيها بل اخترقاها مسرعين وصعدا سلما حلزونيا، وكان عماد فى المقدمة وطارق يتبعه مرتبكا، وبينما يصعدان بلغت مسامع طارق أصوات صاخبة وضحكات آتية من فوق.. ثم دخلا فى ممر على جانبيه سلسلة من الأبواب وأمام أحد هذه الأبواب توقف عماد يدفعه.. وهناك رأى طارق فى غرفة كبيرة.. مجموعة من الأطفال فتيان وفتيات فى مثل سنه وكانوا كلهم قد ارتدوا ثيابا أنيقة جديدة وبدت العناية بشعورهم واضحة وكانت وجوههم بيضاء ناصعة. توقف طارق أمام الباب وقد أذهلته المفاجأة فقد كان يظن أنه سيجد عماد وحيدًا، كما كان يتصور.

وفى نفس اللحظة راح الأطفال يتطلعون إلى القادم الجديد، بنفس الدهشة تقريبا.. وشعر طارق بالهلع عندما رأى عيونهم تتوقف طويلا عند الرقعة التى يحملها سرواله فى الركبة اليمنى.. ولمح طارق على بعض الوجوه ابتسامات متكتمة.. فأراد الفرار ولكن عماد جذبه إلى الداخل قائلا :

- هذا صديقى طارق بن يوسف الذى حدثتكم عنه.. فهمهموا قائلين :

- آه.. آه صحيح.. طارق بن يوسف صحيح..

وقالت فتاة بالفرنسية :

- هذا الذى قلت إنه يجيد العربية جيدًا.

وبدا أن الفتاة تلقى السؤال على طارق ولكن طارق كان مرتبكا لدرجة عجز معها على النطق فأجابها عماد ضاحكا :

- هو بعينه كما يقولون بالفصحى..

وضج الأطفال ضاحكين معبرين عن إعجابهم بخفة دم عماد وبدا لطارق أنهم كلهم يتوددون لعماد ويتقربون منه. ثم عادوا إلى ماكانوا يفعلون يتحدثون ويشربون الكوك.. كما انهمك عماد مع فتاة فى الحديث عن رحلة ستنظم إلى قبرص.. فى حين ظل طارق واقفا لا يحدثه أحد ولا يتحدث إلى أحد، ينظر إليهم فى بلاهة ويستمع إلى أحاديثهم المزدوجة فرنسية وعربية. حتى جاءتهم امرأة تحزم نفسها بطبلية من تلك الطبليات التى تستعملها الخادمات فى البيوت وأعلنت فى مرح متكلف - أن خبزة الجطو جاهزة.. عندها تدافع الأطفال نازلين السلم فى صخب مرح.. وجر عماد طارق فى طريقه قائلا :

- مالك واقف.. هيا معنا..

وفى الصالة تحت وجد طارق الصالة قد امتلأت بالرجال والنساء.. وكانوا هم أيضا قد تأنقوا وارتدوا أحسن ثيابهم استعدادا لهذه المناسبة.. ومرة أخرى رأى طارق أن العيون راحت تتطلع إليه بنفس الدهشة وتركزت نظراتهم على الرقعة التى يحملها سرواله.. وسار همسا متسائلا بين الحاضرين.. وأحس طارق بالخجل وسيطر عليه الارتباك حتى عجز على التقدم. وود لو أنه لم يأت إلى هذا المكان.. ولكن عماد أمسكه من ذراعه

وجره إلى مائدة وسط الصالة وضعت عليها كؤوس وملاعق وصحون وفى وسطها ارتفعت خبزة الجطو طولها متران.. وسرعان ما تحلق الأطفال ووراءهم النساء والرجال بالمائدة، وأحصى طارق عشر شمعات ملونة صغيرة وضعت فى صحن به خبزة من الجطو صغيرة.

ورأى طارق فى غموض أكتاف بيضاء بطة عارية لنساء قد ملأن أصابعهن بالخواتم الذهبية وتدلت من أعناقهن سلاسل وقلادات.. وشاهد رجالا وقد ارتدوا بدلات رسمية واعتنوا بحلق اللحية ورجلوا شعورهم كما هذبوا الشوارب وقلموا الأظافر...

ورأى فساتين حريرية طويلة وأخرى قصيرة... مطرزة بشتى أنواع الطيور.. كما رأى قفازات بيضاء طويلة وشم روائح سجائر وخمور وكولونيا... وضبط فى هلع نساء يدخن ويشربن الكحول، وكانت تلك أول مرة يرى نساء عربيات مسلمات يقبلن على هذا السائل المحرم... وبدا أنهن متعودات على ذلك، فقد رحن يحتسين من كؤوسهن رشفات صغيرة متتالية... بلا خوف أو حرج.. ويجذبن من سجائرهن أنفاسا طويلة فى متعة ونهم... وعجب طارق أن هذا لا يغضب رجالهن بل إن رجالا يقدمون لهن السجائر ويملؤون الكؤوس..

ورفع طارق رأسه إلى فوق فرأى، ثلاث ثريات كبيرة فخمة تدلت من السقف.. مرسلة بأنوار ملونة.. ولما خفض رأسه ضبط امرأة شقراء، أجنبية، ذات شعر أحمر وعينين خضراوين، ذكرته بعينى عماد، فخمن أنها قد تكون أمه الفرنسية... ويبدو أنها كانت تراقبه وهو يتفحص الحاضرين ومحتويات الصالة، ولا شك أنه كان مبهورا.. وواصلت المرأة تفحصاتها له ولثيابه ومرة أخرى توقفت عيناها عند الرقعة التى يحملها سرواله فى الركبة اليمنى..

ورغم أن نظراتها كان فيها كثير من العطف والود، إلا أن طارق شعر بإحراج كبير وبالنفور من عينيها الخضراوين المتطفلتين.. وتساءل، ما بالهم ينظرون له بكل الدهشة.. وكأنه أتى من كوكب آخر... أكل هذا لأن سرواله مرقع... ألم يروا قط ثيابا مرقعة. ألم يروا قط فقيرا... ولكن ماذا يفعل هو هنا؟. بين هؤلاء الناس.. وأحس فجأة أنه ليس فى المكان الذى كان من المفروض أن يكون فيه.. وشعر أنه لا يمكن أن تكون بينه وبين عماد صداقة حقيقية، فالصداقة الحقيقية يجب أن يكون أساسها التساوى بين الصديقين فى كل شىء.. وخصوصا أن يكونا من نفس الطبقة.. فالناس من حوله لا ينظرون إليهما كصديقين بل ينظرون إلى عماد كغنى وإليه هو كفقير... وربما ظنوا أنه يستغل عماد، أو أن عماد يشفق على هذا الزميل الفقير.. وهو يرفض الحالتين بشدة... وود أن يقول لعماد إن الأفضل أن يذهب كل منا فى طريقه ويعود كل واحد إلى أصدقائه الذين فى مستواه وفى الأثناء، كان عماد قد نفخ على الشمعات العشرة الصغيرة فأطفأها... وهنا صفق الحاضرون وراحوا يغنون بالفرنسية مرددين:

عيد ميلاد سعيد ...
عيد ميلاد سعيد ...

ثم، انهالت القبلات والهدايا على عماد... وتساءل طارق بدهشة عن سبب هذا البذخ.. والضجة التى أقاموها فبعد كل شىء وقبل كل شىء وبرغم كل شىء فما عماد إلا طفل عادى كآلاف الأطفال فى كل مكان، فلماذا هذه الضجة احتفالا بعيد ميلاده؟..

ولما انشغل عماد بتلقى الهدايا من الحاضرين، تسلل طارق خارجا.. وفى الخارج اكتشف أنه خرج من باب خلفى يفتح على الحديقة..

كانت الحديقة أكبر مما تخيل طارق، انها أكبر من ساحة المدرسة والأرض المهمل معا... وكانت بها أشجار عملاقة من أشجار الصنوبر والنخيل وعشرات من أشجار البرتقال والليمون والخوخ والعنب والتوت و ... و ... عشرات من الأشجار المختلفة... ولاحظ طارق بدهشة أنه لا أحد ينتفع بتلك الثمار.. فقد كانت تترك فى أغصانها حتى تجف وتموت لتسقط على الأرض، عندئذ يأتى البستانى بعربته الصغيرة ويجمعها ويلقى بها فى الخارج...

ومضى طارق إلى البستانى سائلا فى احتجاج.

- لماذا لا تعطون هذه الثمار للفقراء؟.

فتوقف البستانى وقد فوجىء بحدة طارق وتأمله مليا ثم رفع يده وحركها - فى حركة دائرية - مشيرا إلى منطقة قرطاج قائلا:

- هنا، لا يوجد فقراء..

فقال طارق مواصلا احتجاجه:

قد يكون هذا صحيحا، ولكن ما المكان الذى أتيت..

هناك كثيرون...

- أعلم هذا.. ولكنهم لا يأتون إلى هنا...

فقال طارق:

- سآتيك بهم لو سمحت...

فقال البستانى:

– أنا يا بنى ليس عندى أى مانع، ولكن أصحاب الفيلا لا يريدونهم أن يأتوا إلى هنا...

– لماذا؟..

– لأنهم يخافون أن يقلقوا راحتهم...

– لا أفهم كيف سيقلقون راحتهم؟..

– اسمع، إذا سمحنا لهم بالدخول وأخذ الثمار فسترى كل يوم مجموعة منهم وهم يجوبون المنطقة ويتسللون إلى الحدائق، بإذن وبدون إذن.. وسيأخذون الثمار ويتلفون الأزهار والأشجار ويقلقون راحة السكان..

فقال طارق بإلحاح:

– ولكن هذه الأطنان من الثمار لا أحد ينتفع بها فى حين هناك آلاف من الناس محرومين منها...

فهرش البستانى رأسه وقال:

– هذا الذى تقول، شىء معروف.. يعرفه الجميع هنا وهناك.. ولكن هناك أشياء لا تفهمها لأنك لا تزال صغيرا.. فالإنسان أنانى بطبعه.. لا أحد يفكر فى أحد ولا..

كان البستانى سيقول شيئا آخر ولكن صوت امرأة ارتفع مناديا بلكنة غريبة.

– طاغك... طاغك... طاغك...

فقال له البستانى:

– إنها أم صديق وهى أجنبية كما تعلم وتناديك بطريقتها فمضى إليها طارق متسائلا عن سبب بحثها عنه.. وناداه البستانى قائلا.

- لا تقلق كثيرا، فستكبر ذات يوم وتفهم كل هذا... ولما التقيا.. حيته بالفرنسية، ثم مدت له.. ما بدا أنه سروال قائلة بالعربية والفرنسية..
- خذ هذا السروال، يا طاغك...

فقال طارق فى دهشة وقد تعرف على السروال.
- إنه سروال عماد...

فعادت المرأة تقول بخليط من العربية والفرنسية.
- إنه فعلا سروال عماد، ولكنه لم يعد يرتديه فخذه.. فتساءل طارق إذا كانت هذه المرأة تظنه متسولا...

وقال لها بأدب:

- شكرا يا مدام.. ولكنى لا أريده..

فقالت المرأة بإصرار غريب..
- إنك بحاجة له، فخذه.. خذه..

فتراجع طارق شاعرا بإهانة عميقة وقال وهو يتفادى عينيها.
- قلت لك لا أريده.. لا أريده.. لا..

ثم استدار وجرى إلى الباب الخارجى وفتحه بعنف وغادر الفيلا عدوا..

ومن هناك توجها إلى بيتهم، حزينا مهموما، وراح يفكر فى ما رأى فى الفيلا.. ما سمع وأحس.. ووجد نفسه مرة أخرى يفكر فى هذا السر الغريب الذى قسم أبناء الوطن الواحد، فجعل بعضهم ثريا جدا وآخرين فقراء جدا.. وشعر أن هناك تجاهلا متبادلا بين الطبقتين.. لماذا هذا، وهم أبناء وطن واحد.. ولأول مرة فى حياته يشعر أن حيه تافه قذر لدرجة بعيدة..

وتأمل أصدقاءه فى الحى وكأنه يراهم لأول مرة.. أطفال وسخون ذو وجوه مغبرة سمراء.. أحرقتها الشمس وثياب رثة ممزقة.. وبرغم هذا يبتسمون وأدهشه أنهم يبدون أكثر سعادة من الآخرين الذين قابلهم فى الفيلا..

وذات يوم أخبر عماد طارق، أن أمه قررت نقله إلى مدرسة أخرى - أقرب إلى محل سكناه.. وأضاف قائلا:

- ولكننا، طبعا سنواصل لقاءنا.

لكن طارق كان يدرك أنه لن يراه مرة أخرى بعد اليوم.. وهكذا ذهب عماد إلى الأبد وعاد طارق إلى أبناء حيه، أصدقائه الحقيقيين..

* * *

عندما كان طارق يلعب الكرة مع أبناء حيه، صباح يوم الأحد - فإن أحدهم كان سيقذف الكرة عندما سبقه طارق وأبعدها من أمامه، فأصابت قدمه ساق طارق اليمنى بعنف، صرخ طارق وسقط أرضا.. فصفر الحكم معلنا عن مخالفة لصالح طارق.. وبرغم الألم فإن طارق قرر مواصلة اللعب حتى نهاية المباراة وقضى بقية اليوم يتسكع مع أقرانه..

ولكن فى الليل فإن ساق طارق عند الكعب اليمنى راحت تنتفخ بصورة سريعة مخيفة.. وراحت موجات من الآلام تنبعث منها مخترقة جسده كله محدثة آلاما مبرحة عند مستوى الرأس.. صرخ طارق وبكى وهرعت إليه أمه، ولما رأت الانتفاخ فى قدمه، أحضرت سريعا زيتا محميا وراحت تصرف به القدم المصابة.. ثم ربطتها بعديد من الخرق إلا أن الآلام لم تكف..

وقضى طارق ليلته مسهودا خائفا أن يحدث لقدمه ما حدث لقدم العم رمضان. وكانت تلك أول مرة يذكر فيها العم رمضان وتذكر بدهشة وخجل

أنه لم يزر قط قبره منذ اليوم الذى دفن فيه مع زوجته الخالة منى.. فزاده هذا آلاما إلى آلام ساقه..

وفى الصباح أيقظته أمه فى ساعة مبكرة وأعطته بطاقة المعالجة وأمرته بالذهاب للمستشفى.. وعرف طارق أن هذه البطاقة تمنح للعائلات الفقيرة للمعالجة مجانا بالمستشفى الحكومى.. الذى يقع بمنطقة الكرم الشرقى.. وبرغم أن طارق ذهب للمستشفى فى ساعة مبكرة جدا، فإنه وجد عشرات من الناس قد سبقوه ورأى بعضهم يجلسون أمام باب المستشفى المغلق متدثرين بأغطية، مما أوحى له بأنهم قد قضوا ليلتهم هناك...

وشاهد نساء حوامل وهن مقرفصات تحت الحائط وعلامات الذهول والإعياء بادية عليهن.. فأدهشه ذلك كثيرا.. مضى طارق يعرج واتخذ مكانه فى الصف الطويل.. الذى راح يزداد طولا كلما تقدمت الساعة دقيقة، وقف طارق هناك خلف امرأة تحمل بين ذراعيها رضيعا لم يكف عن البكاء والعويل، مما ضايق طارق كثيرا..

وضبط شيخا وهو يحاول أن يندس وسط الصف.. ولكن امرأة شمطاء ضبطته ودفعته بقسوة قائلة فى حدة:

- الصف هناك يا عجوز..

فابتعد الشيخ وهو يسب ويشتم ويتفوه بكلمات بذيئة. مما زاد طارق دهشة وفضولا..

وفى تمام الثامنة عند ما فتح باب المستشفى فإن الصف لم يحترمه أحد.. فقد هاجم الزوار الباب واقتحموه كالغزاة.. وأزاحوا فى طريقهم المرض الذى فتح لهم الباب وظل طارق مع بعض الضعفاء والضعيفات وحدهم فى

الصف.. وتساءل طارق بدهشة وهو يراقب الهجوم على الباب.. تساءل إذا كان هؤلاء مرضى حقا.. وراح يعرج داخلا، وهناك وجد المهاجمين وقد اعترضهم باب آخر مغلق، فهم لم يفعلوا إلا الدخول إلى الحديقة، أما الباب الداخلى للمستشفى فقد كان لا يزال مغلقا.. وجاء الممرض الذى أزاحه المهاجمون فى طريقهم، جاء غاضبا وراح يسب ويشتم ويقول مهددا.

- ورأس أمى.. إذ لم تحترموا الصف هذه المرة فلن أفتح الباب ولن يدخل أحد منكم هذا الصباح اللعين. فتزاحم المرضى أمام الباب، مشكلين كيفما اتفق صفا لا نظام فيه ولا رأس، وطبعا فاز الأقوياء بالأماكن الأولى، أما طارق والمرضى الحقيقيون، فقد وجدوا أنفسهم فى ذيل الصف منبوذين..

وراح الممرض يدخل المرضى واحدا وراء الآخر.. ومضت الساعة فى دورانها الأبدى.. وظل طارق واقفا فى الصف صابرا متحملا.. لا يتقدم خطوة واحدة.. وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة، استطاع أخيرا بلوغ الباب ودخل لمقابلة الطبيب، وتنهد عميقا فى ارتياح، ظنا منه أن ساعة الفرج حلت..

قادته ممرضة ناحلة فى ممر بعد أن أخذت منه بطاقة المعالجة وأفهمته أن كل فرد فى العائلة بإمكانه أن يعالج مرة واحدة فى السنة مجانا... وأكدت له ذلك مرة أخرى مرددة.. مرة واحدة فقط... ثم أدخلته حجرة متواضعة، رأى فيها الطبيب يجلس على كرسى من الخشب وأمامه طاولة. كتلك التى عند المعلم فى المدرسة وقد وضع عليها محفظته مغلقة وكأنه يستعد للذهاب... راح الطبيب يتفحص طارق بنظرة نافذة.. وتجرأ طارق وراح هو أيضا يتفحص الطبيب، فإذا هو رجل عجوز متصابى يجلس بكامل ثيابه بما فيها المعطف، وقد تقيل بازدراء شديد نظرات طارق... ولما وقف طارق أمامه محييا، فإن

الطبيب لم يرد التحية، بل تساءل فى نرفزة.

- ما بك؟.

وذهل طارق لتلك المعاملة وقال:

- لقد أصبت فى قدمى...

فرد الطبيب ساخرا.

- مادمت لم تصب فى رأسك.. فالحمد لله...

وهنا افتعلت الممرضة ضحكة.. إعجابا بخفة دم الدكتور وهزت له رأسها نفاقا.. فقال لها الطبيب بالفرنسية ظنا منه أن طارق لا يفهم...

هؤلاء أبناء.... أفظع من الشياطين...

وتصرف طارق برغم آلامه وكأنه لم يفهم...

ثم ألقى الطبيب نظرة اشمئزاز على قدم طارق المنتفخة ولمسها لمسات سطحية بقلمه.. ثم دون على ورقة كلمات فرنسية بخط غريب ومدها للممرضة قائلا بالفرنسية.

- خذيه إلى الصيدلية...

فتسلمتها الممرضة باسمة فى رياء، وقادت طارق إلى الصيدلية... وغادر طارق الحجرة غير مصدق أن مقابلته للطبيب انتهت.. وراح يتساءل عن السبب الذى جعل الطبيب يسخر منه ويشتمه.. وقال لنفسه. لا شك أنه عاملنى هكذا لأنى فقير.. لأنى أداوى مجانا.. وتساءل، لو كان المصاب عماد.. فكيف كان الطبيب سيتصرف... لا شك أن تصرفاته ستتغير إلى النقيض... وبرغم هذا التفسير الذى وجده معقولا فإنه لم يفهم قط، كيف أن قدمه

المنتفخة المريضة. لم تثر فى الطبيب الاشمئزاز.. وقال، أليس الطب، كان يجب أن يكون عملا إنسانيا قبل كل شىء.. فما خطب هذا الطبيب... وهذه الممرضة، التى أيدت الطبيب فى سخريته وفى شتائمه.. هل هى حقا ملاك الرحمة.. كما قرأ عنها فى المدرسة وفى الكتب...

ولما بلغا الصيدلية - وكانت عبارة عن شباك لقطع التذاكر - وجدا صفا طويلا، لمرضى ينتظرون الدواء... فأعطته الممرضة الورقة، المدون عليها اسم الدواء وأمرته بالانتظار، حتى يأتى دوره.. ثم انصرفت.. وظل طارق واقفا فى الصف صابرا.. وبدا وضحا أنه لا أحد يهتم للتعب الذى راح يجتاحه، ولم يكلف أحد نفسه عناء إلقاء نظرة على قدمه التى - ومن شدة الوقوف - راحت تزداد انتفاخا وآلاما..

ولما جاء دوره أخيرا، فقد أعطى الفتاة الجالسة فى شباك التذاكر، أعطاها الورقة، وراحت الفتاة تقرأ بصعوبة لا تصدق.. الكلمات القليلة المدونة عليها.. وأخيرا لما حلت اللغز.. أعادت الورقة إلى طارق قائلة ببساطة:

ما عندناش...

فتسلم طارق الورقة متسائلا فى ذهول:

- ماعندكمش...

- هذا الدواء لا يوجد عندنا، بإمكانك أن تشتريه إذا أردت من الصيدليات الخاصة...

ولم يتمالك طارق نفسه فأطلق ضحكة عالية ساخرًا فى مرارة.

فصرخت فيه فتاة الشباك.

- لماذا تضحك يا وجه البومة؟

ولكن طارق ابتعد يعرج دون أن يرد عليها. وعاد إلى بيتهم وقد ازدادت آلامه، ومضى يقول لنفسه إن المداواة بلا مقابل هو وهم يعطونه للمرضى الفقراء.. الذين يتعلقون بأى شىء.. أما هو، طارق بن يوسف فلن يعود مهما عاش ومهما كان الداء الذى يصيبه.. فلن يعود إلى هذه المهزلة.. ليموت فى البيت ولا يسمح لهم أن يسخروا منه.. ومن آلامه.. وسألته أمه ماذا فعل فى المستشفى.. فأخبرها أنه انتظر من السادسة صباحا إلى الواحدة بعد الظهر ليقولوا له - ماعندناش.

دخل طارق غرفته واستلقى على سريره بكامل ثيابه. وهنا اشتدت عليه الآلام فجأة.. وراحت الحرارة تغزو جسده بصورة سريعة مذعرة.. ولكنه كان قد صمم على عدم الذهاب مرة أخرى للمستشفى.. وقال لنفسه : لا شك أن الانتماء إلى الطبقة الفقيرة له عواقب وخيمة..

* * *

إن طارق وقد اشتدت عليه الحمى الآن فقد راح يهذى بكلمات غريبة لا معنى لها وجمل متنافرة لا رابط بينها.

وكان عندما تخف عنه حدة الآلام ويفتح عينيه. يرى فى غموض، أمه وهى منحنية عليه وأمارات القلق بادية عليها وكانت تقوم بانتظام بوضع وريقات من الخروع المنقوع فى الزيت المحمى تضعها بلطف على جبهته لإسقاط الحمى.. وتشد على قدمه المصابة، عند الكعب. خرقا مبللة بالماء الساخن والخلطة لم يتباين ماهى وإن كان شم فيها رائحة البن.

وبعد شهرين من النوم المستمر والمزيد من أوراق الخروع والزيت والبن

وأشياء أخرى .. استطاع طارق الجلوس فى فراشه، بعد أن سقطت عنه الحمى.. وراح الآن يقبل على المأكولات الجيدة التى تقدمها له أمه.. من لحم مشوى والحليب ومشتقاته والغلال.

وبرغم هذا، فإنه يشعر وكأنه يزداد نحولا، يوما بعد يوم. وأن قامته راحت تزداد طولا.

وتذكر أن أصدقاءه المقربين، طاهر وسمير وفتحى ومحمود، قد زاروه عديدا من المرات فى بداية مرضه، والآن، لما طال رقاده، فقد كفوا عن زيارته وتصرفوا وكأنهم قد نسوه.. مما أدهشه كثيرًا، فقد كان فى الماضى يظن أنهم غير قادرين على مواصلة الحياة بدون وجوده بينهم.. وآلمه هذا الاكتشاف.. اكتشف أن الحياة تستمر بوجوده أو عدمه.

ومرت أيام أخرى.. وطارق لايغادر غرفته، ويكتفى فى الأيام الدافئة بفتح النافذة ويطل منها على اخوته وهم يلعبون وسط الدار، أو وهم يدخلون ويخرجون ولم تكن عنده القدرة حتى على حسدهم فقد كان ناحلا ضعيفا وكانت قدمه المريضة تخيفه أكثر مما تؤلمه.. وتعلم فى تلك الأيام أن الصحة أهم شىء يكسبه الإنسان.

ومضت أيام أخرى، واستطاع طارق أخيرا الجلوس بمفرده وذات صباح نهض من فراشه واستوى واقفا فى الغرفة.. ومن هنا - وكطفل يتعلم المشى لأول مرة - راح يعرج ببطء وغادر البيت ليجلس أمام العتبة، تحت أشعة الشمس الدافئة، بالضبط كما كان يفعل عندما كان رضيعا.. وقد استقبله أصدقاؤه بفرحة عارمة، جعلته يغفر لهم نسيانهم له فى المدة الأخيرة.

وراح طارق الآن يقضى معظم اليوم جالسا أمام العتبة أو يقوم بحركات

خفيفة وخطوات قليلة فى الحى، ويوم بعد يوم راح يسترجع صحته بصورة تدرجية.. حتى امتثل للشفاء نهائيا.

فعاد إلى المدرسة، ولكن دروسا كثيرة كانت قد فاتته كما أن السنة الدراسية أوشكت على النهاية وهكذا لم ينجح طارق تلك السنة.. ولكنه لم يحزن كثيرا فقد كان مسرورا حيث استطاع أخيرا الجرى ، كما كان يجرى فى الماضى قبل أن تصاب قدمه.. كما أن كعب قدمه المنتفخة، عادت إلى مكانها الطبيعى بقدرة قادر.

وعادت الأيام تمر على طارق فى الحى عادية.

إن المطر راح يتساقط من جديد، ومن جديد راحت المستنقعات تنتشر فى الحى على أحجام وأشكال مختلفة صغيرة وكبيرة، مربعة ومستطيلة ودائرية.. وراح طارق يقلد الكبار فى مشيتهم، متحاشيا المستنقعات الكبيرة قافزا الصغيرة، ملقيا بنظرة اشمئزاز على الأوحال والأوساخ المتراكمة فى المياه القذرة.. خائفا على ثيابه من تلوث، متسائلا فى احتجاج، كما يفعل الكبار.

- لماذا لا تعبد البلدية الطرقات ؟

وقد عجب طارق أيما عجب لقدرة الله على إدارة الكون ودقة نظامه.. فها هى الفصول دائما تأتى فى وقتها.. حاملة أجواءها نفسها، منذ ملايين السنين وهى تتعاقب ربيع.. صيف.. خريف.. شتاء.. فسبحان الله الذى جعل لكل شىء حسابه.

كان قد مضى أسبوعان على عودته للمدرسة عندما بدأ طارق يلاحظ أن جوا متوترًا راح يسيطر على العائلة خصوصا على مائدة الطعام، وأن أنواعًا من الأطعمة راحت تختفى.. وبدا أبوه دائم الانشغال وكأن فكرة تسيطر

عليه ولا يجد لها مخرجًا.. واستطاع طارق أن يكتشف أن انشغال أبيه المستمر، بدأ بعد أن اتخذت الحكومة سلسلة من القرارات.. سمعهم يسمونها بالقرارات الاشتراكية، وبرغم أن طارق لايعرف ماهى الاشتراكية. فإنه فهم من خلال ما سمعه فى المدرسة والحى أنهم سيغلقون معظم الدكاكين الصغيرة ويجمعونها فى مغازات كبيرة مشتركة، كما أنهم - الحكومة - استولوا على أراضى صغار الفلاحين وجمعوها فى حقول كبيرة كما لاحظ أن الناس راحوا يقفون فى صفوف طويلة لشراء الخبز ولوازمهم الأخرى من زيت ودقيق.

ولكنه لم يفهم سبب انشغال أبيه فهو لا تاجر ولا فلاح. ولما سأل أخاه الأكبر محمدا، قال له هذا :

- إن الحكومة قررت إحالة كل الذين يعملون فى مؤسسات حكومية وتجاوزت أعمارهم الخامسة والخمسين إلى التقاعد بحجة توفير العمل للشباب الصاعد وبما أن أبى تجاوز الخامسة والخمسين فسوف يحيلونه إلى التقاعد وعينوا له أجرة شهرية قدرها ديناران.. فصعق طارق وصرخ غير مصدق.

- ديناران فى الشهر..

- نعم ، هذا ما أعطوه.

رباه كيف سيعيشون بدينارين.. أنهم بثلاثين دينارا لا يكادون يأكلون.. فكيف سيفعلون بدينارين وعجب كيف تفعل الحكومة بمواطنيها الكرام مثل هذه الأعمال.. كيف يحيلون إلى التقاعد رجلا يعمل من أجل خمسة أنفار ليضعوا مكانه شابا فى مقتبل العمر.. وإذا كانوا بهذه الطريقة قد أوجدوا عملا لشاب فقد حرموا خمسة آخرين من الحياة. ثم كيف لاتعلم الحكومة

أن دينارين لاتكفى لشراء الخبز لشخص واحد طوال أسبوع.. فكيف ستعيل عائلة تتكون من سبعة أشخاص.

وانخفض مستوى المعيشة بسرعة مذهلة.. اختفى اللحم بصورة نهائية، أما.. الأسماك والغلال فلم يعد يعرف رائحتها.. ثم أخيرا أصبح الخبز والخضر أشياء نادرة ثمينة تحتفظ بها الأم فى مكان يجهلها الأبناء وتراهم يأكلون خبزا إلا فى أوقات معينة من النهار.

وعجز الأب عن شراء اللوازم المدرسية لأبنائه.. وراح يرسل برسائل للوزارات، مطالبا بإعادته لعمله أو الزيادة فى أجره التقاعدى.. شارحا ظروفه وظروف عائلته ولكن يبدو أن لا أحد يقرأ تلك الرسائل أو يهتم بفتحها.. ولم يتلق أى رد..

وازدادت ثياب طارق وإخوته، رثاثة وتمزقًا.. وكثرت فيها الرقع على جميع الألوان والأشكال.. وقرر الأخ الكبير محمد مغادرة المدرسة وكان عمره يومها خمس عشرة سنة، وانقطع عن التعليم ليلتحق يعمل بائع بدكان بقالة كبير - لم تغلقه الحكومة لسبب مجهول.. ولكنه لم يكن بإمكانه أن يغير ظروف العائلة، فلم يتجاوز أجره الشهرى الثلاثة دنانير وبالتالى ظلت حياتهم هى، فقر مدقع.

ثم تقرر أنه حان لفوزى أيضا أن يغادر المدرسة وفعلا غادرها فى وسط السنة وأدخل هو أيضا للعمل فى دكان بقالة آخر.. لكن الظروف لم تتغير كثيرا برغم تضحية الآخرين فقد كانا صغيرين ولم يكن أجرهما الشهرى معا، يكفى خبزا للعائلة طوال الشهر.

راح طارق يتردد على المدرسة شارد الفكر، خاوى البطن ممزق القميص

رث السروال، بالى الحذاء، مغبرا.. يثير مظهره الشفقة والنفور.. حاملا محفظة بها كراسة واحدة، يستعمل نصفها فى الحصة العربية والنصف الآخر فى الحصة الفرنسية.. وله كتابان غاية فى القدم وقد اختفى غلافاهما وتمزقا. وقلم لا يكتب.. فقد عجز أبوه عن شراء أى شىء من لوازمه المدرسية، وبدا طارق يجد فى الساعات القليلة التى يقضيها فى المدرسة، نوعا من العذاب لا اسم له.. وكل يوم كان ضيقه بالمدرسة يزداد حدة وتوترا، حتى قرر أخيرا، أن الدروس التى يتلقاها، هى عبث سخيف ومضيعة للوقت بالنسبة لإنسان يمر بظروف كظروفه.. ومن هناك راح كل يوم، عوض أن يذهب إلى المدرسة يتوجه من ثلة من أبناء حيه إلى بحيرة بيرسة، حيث يقضون معظم اليوم، يصطادون السمك ويشوونه على الحطب ويأكلونه فى شراهة ونهم.

وفكر فى عجب، بأمر هذه القرارات الاشتراكية - كما سموها - وأدهشه أن رجلا اسمه - أحمد بن صالح - المسئول عن القرارات، أن هذا الرجل الذى لا يعرفه طارق ولم يسبق له أن رآه وبرغم هذا فإنه استطاع أن يتدخل فى حياته وحياة إخوته ويغير مصيرهم جميعا إنها السياسة المجهولة الغامضة. وفى آخر السنة ولغيابه المستمر عن الدراسة فقد طرد طارق من المدرسة وكان بعد فى الرابعة عشرة.

ولم يأسف أحد لمغادرته المدرسة، أما هو فقبل أن يفهم ما يحدث له وجد نفسه يعمل فى دكان بقالة آخر.. بالضبط كأخويه.. ولم يحزن كثيرًا، قال لنفسه :

إنها دون شك إرادة الله إنه قدرى.

وسمع طارق فى المدة الأخيرة، أن القرارات الاشتراكية تلاقى مزيدا من

الاعتراضات وقيل بعض الفلاحين الصغار حملوا بنادقهم فى وجه البوليس الذى جاء للاستيلاء على أراضيهم، وكذلك ضبطوا بعض التجار والفلاحين يلقون ببضاعتهم الغذائية فى البحر، مفضلين ذلك على بيعها بأسعار رخيصة، تحددها الحكومة.

* * *

ذات يوم سمع طارق بدهشة كبيرة، أن أحمد بن صالح، ألقى عليه القبض وقراراته الاشتراكية وقع التخلى عنها ثم سمع بعد مدة أن أحمد بن صالح فر من السجن الذى أودع فيه وأنه هرب إلى ليبيا التى كان يرغب فى إقامة الوحدة معها، ولم يكن طارق يفهم شيئا كبيرًا لما يسمع وقرر أن كل هذا لم يعد يهمه الآن.

وتحسنت أحوالهم، عندما وقعت الزيادة فى أجر أبيه التقاعدى وارتفع إلى حدود الثلاثين دينارا كما ارتفع أجره هو وأجر أخويه، محمد وفوزى.. وعادت الغلال واللحوم والأسماك تزور مائدة الطعام.. وارتفعت الضحكات من جديد فى البيت وشعر طارق أنه يخرج من كابوس فظيع.

ولكن ظلت فى رأسه أسئلة حائرة، تبحث عن جواب... كان يتساءل، ما الاشتراكية؟. وما الرأسمالية؟ وما الشيوعية؟. وما هى القومية؟ ومن هو الوزير الأول؟.

وراح يبحث عن أجوبة لتلك الأسئلة فى بعض الكتب القليلة التى كانت متوفرة عندهم وعند أبناء الجيران وفى الجرائد والمجلات..

وعندما تحسنت حالتهم المادية راح يشترى كل أسبوع أحد الكتب التى قرأ عنها.. وكل مساء بعد أن يعود من عمله، كان يستلقى على فراشه ويخرج أحد الكتب ويطالع فيه حتى يغلبه النوم..

ومضى يطالع ويطالع أى كتاب يحصل عليه، يقرأ بلا نظام لا يهمه إن كان الكتاب فى الأدب أو التاريخ أو الفلسفة أو العلوم... المهم أن يقرأ، أن يقرأ أى شىء، كان جائع معرفة..

ويوم بعد يوم راحت غرفته تزدحم بالكتب، كتب قديمة ذات أوراق صفراء.. كتب جديدة ذات أغلفة متينة.. كتب صغيرة.. كتب كبيرة وأخرى متوسطة... كتب بلا أغلفة.. ممزقة... كتب على رفوف وضعها بنفسه.. كتب فى كراتين تحت السرير.. كتب فوق الطاولة.. كتب تحت الطاولة.. جرائد ومجلات..

وكانت العائلة تجد فى إقباله الشديد على المطالعة شيئا جديدا مثيرا وسخيفا..

أما هو فراح يبذل جهدا عظيما، ليفهم ويستوعب هذا الذى يقرأ... وراح شىء جوهرى فى داخله يتغير.. وشعر أنه يكبر، قبل الأوان.. يكبر بتفكيره وأحاسيسه.. ومن ثم راحت تصرفاته تتغير ونظرته للأشياء، للحياة، لأصدقائه، لعائلته، لنفسه كفرد، للمجتمع الذى يعيش فيه، لعلاقته بكل شىء بالناس، وبالأرض والنبات والحيوان والماء والهواء.. وراح الأصدقاء فى الحى يرددون.. أن طارق تغير.. تغير كثيرا.. فهو يقضى أوقات فراغه وحيدا مع كتبه لم يعد يشاركهم فى لهوهم ولم يعد يهتم حتى بكرة القدم التى كان يعشقها.. وكانوا يرون فى مطالعته للكتب شيئا جديدا على الحى، جديدا وشاذا. وبدأ طارق يشعر أثناء مطالعته بميل خاص إلى الأدب من قصة وشعر. ومن هناك راح يحاول كتابة بعض القصص والقصائد البسيطة ويرسلها للمجلات والجرائد وظل يقرأ ويكتب كل مساء وحيدًا..

ومرت أربع سنوات

ذات مساء خريفى، كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف، عندما أقبل طارق عائدا إلى الحى، بعد يوم عمل بالمنطقة الشرقية للكرم، وكانت قامته قد طالت وازداد نحولا.. وأطلت من عينيه نظرات هادئة وبدت ملامح وجهه بيضاء، بياضا غريبا، راجعا لاختزانه طول النهار بالدكان الذى يعمل به، كان يمشى بخطوات سريعة، كعادته، فاتحا جاكتته مستقبلا بود وترحاب نسمات المساء، لاعتقاده أن تلك النسمات هى هواء نظيف، وبدا شعره قصيرا وكأنه خارج من محل الحلاق لتوه... دفع طارق باب بيتهم ودخل ملقيا السلام على أفراد عائلته، ثم مضى إلى المطبخ ليتعشى.

كانوا قد أدخلوا تحسينات عديدة على الدار، فاختفت الحفر من وسط الحوش، كما اختفت البئر وشجرة الخوخ وأضيفت غرفة كبيرة مكانهما، جعلوا أرضها من الجليز ووضعوا فى وسطها مائدة طويلة حلقت بها مجموعة من الكراسى.. وفى إحدى الزوايا قبعت تلفزة كبيرة.. وكانت العائلة قد جعلت من الغرفة الجديدة، غرفة للسهر واستقبال الضيوف.. ولكن الأخ الأصغر، كمال نقل إليها سريره وراح ينام فيها، بحجة أن طارق يسهر كثيرا فى الغرفة الأخرى ويمنعه من النوم المبكر... وسعد طارق بهجره لغرفتها المشتركة، فقد كان كمال يضايقه كثيرا بمطالبته المستمرة بإطفاء النور....

تعشى طارق بعجالة، ثم ألقى السلام وغادر البيت من جديد، متوجها إلى المقهى، كما تعود أن يفعل، منذ أن بلغ السابعة عشرة، حيث يقضى ساعة

ونصف الساعة، صحب أصدقاءه المفضلين، يلعب الورق ويتبادل معهم الأحاديث والنكت... ثم يعود إلى غرفته وكتبه.. ولما بلغ المقهى، وكانت مقهى النور عبارة عن غرفة كبيرة مربعة الشكل وزعت فيها مجموعة من الكراسى والموائد الخشبية الرخيصة، واحتل إحدى زواياها بار خشبى هو أيضا، صغير، وتفرق فيها زبائنها، مجموعات.. مجموعات يلعبون الورق والدمنو.. وكانوا خليطا من الشيوخ والشباب والكهول، وأغلبيتهم من الحى القديم (حى النور) وهناك ثلة من شيوخ الحى الجديد، وروادها يعرفون بعضهم البعض جيدا، وحتى الأماكن محجوزة بحكم العادة...

ألقى طارق بنظرة للمكان الذى تعود الجلوس فيه مع أصحابه، فوقع بصره على شاب ناحل، كان يجلس وحيدا، قرب النافذة الكبيرة والوحيدة للمقهى التى تفتح على السوق، وكان السوق يقع على يمينها فى حين يقع الجامع على يسارها، ولها نافذتان صغيرتان تفتحان على الشارع...

لاحت ابتسامة على محيا طارق وهو يتقدم نحو صديقه ولما رآه هذا، قام لاستقباله... تصافح الصديقان بحرارة، وكان الصديق الثانى، طاهر النصرى، كان فى مثل سن طارق، متوسط القامة ناحلاً ذا وجه أبيض مستدير، وعينان عسليتان حزينتان وشعر أحمر ناعم وطويل، بالقياس لأصدقائه، وبدا خجولا يميل إلى الانزواء، وكان طاهر من أبناء الحى الذين ولدوا فيه وصديق لطارق منذ الطفولة الأولى، وقد صدمت شاحنة دراجة أبيه، عندما كان فى الخامسة عشرة، ومات الأب ولم يترك له شيئا سوى أم فى الخامسة والأربعين وبيت فى الحى القديم، وهكذا ترك الشاب الدراسة فى سن مبكرة ودخل ميدان العمل، وكان يعمل نجارا بتونس العاصمة.. وطاهر

هو الوحيد بين أصدقائه الذى حافظ على أداء الصلوات الخمسة فى أوقاتها..
تساءل طارق.
- أين الأولاد؟.

فقال طاهر:
- لم يأت أحد بعد، حتى فتحى لم يأت...

وابتسم طارق للملاحظة الأخيرة، لأن فتحى معروف عنه أنه أول من يأتى المقهى من الأصدقاء وآخر من يغادرها وهنا دخل المقهى شاب أسمر رشيق القامة، قوى العضلات وأطلت من عينيه وهو يدخل، نظرات غاية فى الجرأة والتحدى.. ولما وقعت عليه عينا طاهر هتف فى مرح.
- ها هو ذا سمير أتى...

تقدم سمير نحو صديقيه، فى مشيته العسكرية الصارمة وصافحهما ضاغطا على أيديهما الصغيرة، بقوة وحرارة، ثم جلس وهو يقول متذمرا..
- تصورا ماذا طلبت منى أمى الآن...

تبادل طارق وطاهر الابتسام، لتعودهما على ضيق سمير وشكواه الدائمة، وسأله طارق قائلا:
- ماذا طلبت منك؟

فقال سمير فى ضيق:
- طلبت منى أن أقضى السهرة معهم.. تصور...

فقال طاهر فى بساطة:
- ولماذا لا تقضى السهرة معهم؟

فضرب سمير المائدة بقبضته، قائلا فى حدته الشهيرة.

- ولماذا تريدنى أن أقضى السهرة معهم أيها المغفل ماذا يوجد فى ذلك البيت المسكين؟ لا شىء سوى ضجيج الفروخ أبنائها وتلك التلفزة السخيفة، وانتقادات أبو الفروخ...

كان سمير أكبر أصدقائه، وهو الابن البكر للعم ميروك، جزار الحى، وكان له ثلاثة إخوة صغار، كلهم ذكور، وكانت أمه سعيدة بذلك...

وكان سمير أكبر أصدقائه وأقواهم بنية، أخذ عن أبيه قوته وقسوته وأخذ عن أمه جمالها، فبدا كأنه أحد أبطال الأفلام البوليسية.. وكان يتصرف كذلك، كأبطال السينما.. كان رشيق القامة، وعضلات قوية وبشرة سمراء صافية لا عيوب فيها، وشعر أسود مجعد قليلا ولكنه كان يعتنى به غاية الاعتناء... وبدا معجبا بنفسه غاية الإعجاب، مزهوًّا بها إلى أبعد الحدود، وكان على علاقة سيئة جدا مع أبيه ومع معظم سكان الحى، رجال ونساء وحتى أطفال.. أما شباب الحى، فقد كان يكره معظمهم ولا يكلمهم.. بلا سبب معقول.. يحتقرهم ويشعر بتفوق غريب عليهم ويقول عنهم إنهم، حمير وأغبياء.. وطبعا بادلوه هم مشاعره نحوهم وكرهوه..

ولكنه لم يكن يبالى.. وليس له فى الحى كله وتونس كلها إلا أربعة أصدقاء، هم، طارق وطاهر وفتحى ومحمود. هم رفاق الطفولة وزملاء الصبا وأصدقاء البارحة واليوم والغد، وقد حافظ على صداقته لهم بإخلاص أدهش الكثيرين.. ولم يحدث قط أن رفع يده على أحدهم. - يده التى ارتفعت فى وجه كثيرين - وكانت علاقته بهم هى العلاقة الإنسانية الوحيدة فى حياته.. وغيرهم لا يعرف ولا يريد أن يعرف أحد..

وكان سمير واحدا من هؤلاء الناس الذين يظنون أنفسهم أنهم أهم عباد

الله، أحسنهم وأكثرهم ذكاء وبالتالى احتقار الآخرين إحدى الميزات الأساسية عندهم..

وطبعا كان قد غادر المدرسة فى سن مبكرة وراح يعمل مساعد ميكانيكى سيارات بالكرم الشرقى، وطبعا راح يعتبر نفسه أهم ميكانيكى سيارات فى تونس..

قال سمير:

- أعطنى سجارة يا طاهر.

فأخرج طاهر علبة سجائر (كرستال) التى يدخنها الأغلبية..

قدم طاهر سجارة لسمير، قائلا ضاحكا:

- إلى متى يا سمير ستظل تدخن على حسابنا..

فأشعل سمير السجارة ونفخ دخانها فى ضيق قائلا:

- أنت تعلم أننى لا أدخن إلا عندما أكون فى حالة ضيق..

فقال طارق:

- المشكلة، أنك دائما فى حالة ضيق..

فقهقه طاهر عاليا وأراد أن يقول شيئا، ولكنه لمح شابين يدخلان المقهى، فتراجع وهتف فى سرور.

ها قد أتيا...

وفى تلك اللحظة، دخل المقهى شابان، كان الأول فتحى ابن العم على بقال الحى وهو شاب فى العشرين قصير القامة ممتلئا، أسمر البشرة شاحب الملامح. وقد اشتهر فى الحى بإدمانه الشديد على المقهى ولعب الورق،

واليانصيب والترسى وكل أنواع المقامرة التى يقدر عليها، ولهذا أطلق عليه سكان الحى لقب، القمار، وأصبح يدعى بفتحى القمار، والغريب أنه كان معجبا بهذا اللقب، وكان محبوبا فى المقهى والحى من طرف الجميع شيبا وشبابا وتربطه علاقة متينة مع ثلة من الشيوخ المدمنين على لعب الورق.. ولهذا عندما دخل المقهى، لفت إليه الأنظار وانهالت عليه التحيات والدعوات للعب، ولكنه قال مشيرا إلى أصدقائه. طارق وطاهر وسمير:

- الأقربون أولى بالمعروف.

وكان فتحى أكبر اخوته الأربعة، بنتان وولدان، وبرغم خفته هذه، فهو يعتبر أرفع أصدقائه مستوى.. فهو الوحيد الذى أنهى دراسته الثانوية بنجاح وكان أثناء دراسته قد ابتعد عن أصدقاء الطفولة.. وتعرف على أصدقاء آخرين فى المعهد، وعرفه هؤلاء على الأفكار الاشتراكية والشيوعية، فأعجب بها فتحى غاية الإعجاب وخاض فيها بحماس، وذات يوم ألقى عليه القبض، لاشتراكه فى مظاهرة، نظمها اليساريون - الذين كانوا يسيطرون على الجامعات والمعاهد التونسية فى تلك الفترة - فى السبعينات. واتهم فتحى بعدائه بالعنف على أحد الأساتذة.. وهكذا طرد من المعهد وتخلى عنه أصدقاء الدراسة. فوجد نفسه وحيدا وعاد خائبا إلى أصدقائه القدماء أصدقاء الطفولة، وقضى فتحى أشهرا عديدة لا يفعل شيئا، سوى الجلوس فى المقهى، حتى وجد له أخيرا محمود عملا بشركة الألمنيوم، التى يعمل بها هو ويمتلكها قريب له...

وكان محمود فى الثانية والعشرين ويشبه سمير إلى حد بعيد فى تكوين جسده وملامح وجهه الأسمر ويختلف معه فى أخلاقه، فهو قوى البنية عريض الصدر ذا قامه رشيقة ووجه أسمر جميل متناسق وشعر أسود فاحم.

وطبع دمث هادئ وبال واسع، لا يعرف الغضب طريقا إلى صدره، وكان يتمتع بلا مبالاة عظيمة، لما يحدث حوله...

وطبعا كان قد غادر المدرسة فى سن مبكرة، فلم تكن الدراسة شيئا يثير الاهتمام، كما قال، وأدخله قريبه ليعمل بشركته، لصناعة الألمنيوم، ويعتبر محمود أغنى أصدقائه، فأبوه العم السلمان، لا يقوم بأى عمل لأنه - كما قيل فى الحى - يمتلك أراضى كثيرة فى الساحل كما أن عنده أكثر من ألفى شجرة زيتون - ورجل مثله ما حاجته للعمل... ولم يكن له إلا ولد وبنت. ولهذا كان يترك لمحمود مرتبه كله يفعل به ما يشاء، أما أصدقاؤه فقد كانوا يتقاسمون مرتباتهم مع عائلتهم ولهذا بدت ثياب محمود جديدة قياسا بالثياب التى يرتديها أصدقاؤه، كما أن صحته كانت موفورة...

* * *

تصافح الأصدقاء الخمسة بحرارة واكتمل المجلس ككل مساء بمقهى النور، منذ سنة خلت...

وما أن جلس فتحى حتى هتف.

- أه يا جماعة أه.. أه لو رأيتم.. ماذا أقول.. كدت.. أن أكسب مليون.. دخل اثنان.. أما الثالث أه..

وقاطعه سمير ساخرا.

- أه يا جماعة أه.. دخل اثنان أما الثالث لم يدخل أه ثم فى حدته الشهيرة ضاربا المائدة بكفه.

- كم قلت لنا هذا الكلام يا فتحى.. كم أزعجتنا بصراخك، شبعنا بهذه شبعنا يا فتحى..

فصرخ فتحى.

- أقسم، أن هذا صحيح..

- ثم التفت إلى محمود قائلا:

- ألم تنظر الجريد والأرقام التى لعبتها..

- فقهقه محمود (وهو دائما يقهقه بلا سبب) وقال:

- نعم، نعم هذا صحيح، ينقصه جواد كالعادة..

فهز فتحى رأسه فى أسف قائلا:

- الجواد عنترة، أخاب ظنى للمرة الثانية.. لن ألعبه مرة أخرى.. لا.. لن..

وعاد سمير يقاطعه ساخرا.

- لا يهمنى، عنترة أو فرعون، لا تحدثنى عن كده.. وليت.. ولولا.. هذه كلمات لا معنى لها، قرأتها فى المدرسة ونسيتها منذ زمن بعيد.. الصحيح والمهم كم كسبت... وكم خسرت.. هذا هو الواقع...

وهنا تدخل طاهر مغيرا مجرى الحديث، قائلا:

- هل نذهب الأحد القادم إلى ملعب المنزه، هناك ستدور مقابلة رائعة...

تغير الحديث بالسرعة التى بدأ بها، وظهر الاهتمام على وجه محمود - وهو لا يثير شىء اهتمامه كما يثيره حديث الكرة.. - هتف فى إثارة.

- حقا مقابلة رائعة، التراجى والأفريقى، رائعة حقا. ولكن سمير صاح فى غضب، وهو لا يكره شيئا ككرهه للكرة وسيرتها، ولعل أحد أسباب احتقاره لأبناء الحى، ولعهم الشديد بالكرة وأحاديثهم المستمرة عنها.

صاح سمير فى غضب.

- عليكم وعلى الكرة اللعنة، إننا فى بداية الأسبوع وأنتم تتحدثون على هذه المقابلة اللعينة، التى ستدور آخر الأسبوع.. اسمعوا، يوم الأحد. اذهبوا إلى الجحيم إذا شئتم، ولكن لا تزعجونى طول الأسبوع بالحديث عن هذه المقابلة.. ثم دعونى أسألكم لماذا ترغبون فى الذهاب لذلك الملعب؟ ماذا ستكسبون؟

فقال فتحى:

- كرة القدم لعبة شيقة، لا ننتظر منها شيئا غير المتعة و ...

وقاطعه سمير.

- أية متعة.. لا، لا، لا أنسى ما حدث لما ذهبنا منذ شهر لمشاهدة تلك المقابلة - التى قال عنها محمود، إنها رائعة، لا أنسى الصراخ والعويل.. ثم تفجر العنف...

فقال محمود مقهقها:

- ومتى كرهت العنف يا سمير؟

فقال سمير:

- إنى لا أستعمل العنف، إلا دفاعا عن النفس، أو انتصارا لهدف نبيل..

وهنا ضج الأصدقاء ضاحكين وتساءلوا بصوت واحد.

- انتصارا لهدف نبيل..

فتراجع سمير قائلا:

- حسنا، قد أغضب أحيانا..

فتساءل طاهر:

- ماذا تعنى بأحيان؟

فقال سمير:

- على كل حال، أنا لا أستعمل العنف من أجل التراجى أو الأفريقى.. رأيتكم تفعلون ذلك فى المنزه، رأيت الأستاذ فتحى المهذب جدا يقذف الناس بقارورة من الحليب.. والأخ طاهر، الذى يصلى الصلوات الخمسة فى أوقاتها، رأيته يصرخ ويقفز وكأنه، عيشة المجنونة.. وصديقنا طارق بن يوسف، الذى لا يزال يقرأ كتبا فى الأدب والحكمة ويكتب شعرا فى الصحف، تحول فى الملعب إلى أحمق كبير.. وسوف لن أحدثكم عما فعله محمود، فأنتم تعلمون أنه مجنون كرة..

وهنا بدا أن فتحى تذكر شيئا وهتف.

- أه حقا، ذكرتنى بالشعر، ثم التفت إلى طارق قائلا:

- قرأت قصتك الأخيرة، التى نشرت فى ركن الشباب هذا الصباح وكانت جيدة..

وقال محمود:

أه، حقا.. حقا.. أنا أيضا قرأتها، كما قرأت قصيدتك ليالى الهواء - وذكر منها المقطع الذى تقول فيه:

يا ليالى الهواء الخوالى
أتذكر الآن..
كانت قبلاتك دافئة..
وهمساتك رائعة..

كأغانى المهرجان..
ولمساتك ساحرة..
كالأحلام...
و ...

وقاطعه سمير بحدة.
- يكفى.. يكفى..

ثم التفت إلى طارق قائلا فى دهشة:
- أتريد أن تقول لى أنك لا تزال تسهر الليل كله لتكتب مثل هذا الكلام..

فهز طارق رأسه فى تسليم قائلا:
- بالضبط..

فازدادت حدة سمير وهو يقول:

- ولماذا أيها المغفل؟ ماذا كسبت بكتابتك لهذا الكلام الغريب؟ لماذا تضيع شبابك فى هذا العبث؟ انظر، لقد خف بريق عينيك وأنت بعد فى العشرين.. لا سأظل أذكر مدى الحياة، ما حدث، عندما نشروا لك لأول مرة قصيدة، قلت لنفسى يومها، ها هو صديقنا طارق يصبح شيئا ما.. وقلت، ما دام صديقك بخير، فأنت بخير.. ورحت أدور بالجريدة على الزملاء فى العمل قائلا، انظروا هذه القصيدة، لقد كتبها صديقى.. كنت مسرورا يومها، ولكن توالت قصصك وقصائدك دون أن تكسب شيئا، ظللت كما عهدتك، بائع طماطم... فلماذا ترهق نفسك بالقيام بعمل غبى لا تجنى منه شيئا، لماذا؟.

فقال طارق ضاحكا:
- إن نشر قصائدى فى الجرائد، هو كسب أدبى عظيم...

فنظر له سمير بغرابة وكأنه ينظر لشخص مخبول وقال:
- كسب أدبى.. الذى أعرفه عن الكسب، هو أن الإنسان يكسب نقودا... يكسب سيارة.. يكسب فيلا.. أما الكسب الأدبى، فلم أسمع به.. فما هو أرجوك؟

فقال طارق:
- أعنى أن الأدب بالنسبة لى، هو هواية فقط..

فصرخ سمير.
- ولكنى أحتقر الهواية التى لا أكسب منها شيئا..
- هذا أنت..

وتدخل فتحى قبل أن يحتد النقاش وقال:
- دعونا من حديث الشعر والكرة وهلموا إلى حديث الورق...

فقال سمير فى تحدٍّ - كعادته -

- موافق...

ثم نادى النادل صائحا:
- يا عصفور، القهاوى والورق بسرعة..

ولاحظ طارق، أن طاهر لم يتدخل فى الحديث عن الشعر واكتفى بالاستماع، وكان طارق يعلم أن طاهر كان فى أعماقه يعتقد أن الشعر حرام... أو على الأقل، هو عبث لا طائل من ورائه...

ولم يكن سمير الوحيد الذى خاب ظنه فى الشعر وفى طارق، فكثيرون من سكان الحى، لما رأوا لأول مرة قصيدة لطارق، فى ركن الشباب بإحدى الصحف الأسبوعية. ظنوا أن طارق أصبح شخصا هاما، وأنه سيثرى سريعا... ولما توالت قصائده (البسيطة) ولم يكسب شيئا.. وظل كما عهدوه يعمل بالدكان، خاب ظنهم ولم يفهموا سبب مواصلته المطالعة والكتابة..

أقبل العصفور، حاملا طبقا به قهاوى الأصدقاء وورق اللعب.

والعصفور، هو نادل المقهى الوحيد، رجل فى الأربعين قصير القامة، شديد السمارة، ذو عينين صغيرتين حادتين، تراقبان الزبائن وتعرفهم واحدا واحدا.. حيا العصفور الأصدقاء ووضع أمامهم القهاوى وورق اللعب، ثم ربت على كتف طارق قائلا:

– لقد كانت رائعة قصيدتك و..

ولكن سمير نهره صارخا.

– اذهب من أمام وجهى يا منافق.. حتى أنت، أصبحت تفهم فى الشعر...

فابتعد العصفور متحاشيا غضب سمير.

وسرعان ما بدأت المقابلة، طارق وفتحى ضد محمود وسمير، أما طاهر فلم يكن يلعب وكان يكتفى بالتفرج وربما كان يعتبر لعب الورق حرام...

وقد بدأت المقابلة بتفوق طارق وفتحى، ولهذا كلما رفع فتحى ورقة قهقه عاليا وعلق ساخرا، لإغاظة سمير، فيزداد سمير تركيزا وانتباها، وهو يلعب بجدية كبيرة ويرفض الهزيمة بشدة، برغم أن الأصدقاء فى ما بينهم لا يتراهنون بالنقود، فقط الخاسران يدفعان ما يشربه الأصدقاء طوال

السهرة، وأحيانا كثيرة، يدفع الرابحان من جيبهما، إذا كان الخاسران ليس معهما نقود، ولكن سمير لا يهمه كل هذا، المهم ألا ينهزم، ويعتبرها مسألة كرامة..

وتراه يلعب بانتباه شديد ويتهم منافسه بالغش. ويأخذ فى لكز زميله فى اللعب، من تحت الطاولة. ويرميه بالغباء والجهل.. وفتحى يقهقه ويعلق ساخرا وسمير، صامت مركز على اللعب تركيزا عظيما وكأنه يلعب بحياته كلها.

وأخيرا انتهت المقابلة، على عكس مابدأت وفاز سمير ومحمود.. فألقى سمير بالأوراق على المائدة وحاك فتحى محاكاة كاريكاتورية.

- هه.. ها.. هه.. ماذا فعلت بقهقهتك الجوفاء.. هاك انهزمت أخيرا - كعادتك دائما.

ثم أشار إلى نفسه بفخر قائلا :

- مع سمير بن مبروك، لا تستطيع أن ترفع رأسك.. فقال فتحى معترضا :

- أنت، لا يا سيدى لا.. الفضل الأكبر فى فوزكما يعود إلى محمود، ثم مشيرا إلى طارق، ولهذا المغفل الذى شاركنى اللعب.

فاحتد سمير وهو يقول :

- الفضل الأكبر يعود إلى محمود وإلى هذا المغفل.. وأنا لم أفعل شيئا.

- على كل حال، لم تفعل شيئا كبيرا، كما تتخيل..

- اسمع، خذ معك محمود. الذى يعود له الفضل الأكبر.. وهات طارق المغفل.

- موافق..
- لا..

التفت الأصدقاء إلى طارق الذى قال، لا، وتساءل سمير باستغراب.

- لا..
- لا، سأعود إلى البيت..

- كيف ستعود إلى البيت، والساعة لم تتجاوز العاشرة. لاتزال أمامك ساعة كاملة.

وقال فتحى فى ضيق :

- معه حق، فهذه المدة أصبحت تعود مبكرًا جدا.. فقال طارق :

- ألا تعرف القاعدة التى تقول، نم باكرًا وقم باكرًا.. فقال سمير ساخرًا :

- عظيم، ولكن حضرتك لاتنام باكرا.. فأنت ترغب فى العودة مبكرا، لتقرأ تلك الكتب اللعينة التى تزدحم بها غرفتك ولتكتب تلك الكلمات الغريبة التى ترسلها إلى الجرائد.

فبسط طارق كفيه فى تسليم قائلا :

- صحيح ماقلت..

ثم هب واقفا قائلا :

- تصبحون على خير.

عندما غادر طارق المقهى، وجد الظلام قد ازداد كثافة خصوصا، بعد أن انطفأت صومعة الجامع.. ولما دخل بيتهم وجد أفراد عائلته مازالوا ساهرين

أمام التلفزة، فوقف متكئا على الباب وألقى السلام، وإذا بفتاة ناحلة فى الخامسة عشرة، كانت تجلس مع العائلة، تهب واقفة ملوحة بجريدة وهاجمته قائلة فى سخرية :

- قرأت قصيدتك الأخيرة التافهة، ما هذا الكلام السخيف الذى كتبت ؟ مامعنى هذا يا مسكين يا طارق فقال طارق :

- ألم تسمعى ياليلى بحكاية الذئب الذى لم يلحق النخلة، فقال لها، تف.. عليك وعلى ثمارك.. فصاحت ليلى :

- هذا مثل سخيف، كقصائدك، فالذئب لا يأكل الثمار.. فقال لها طارق :

- لم تفهمى، كعادتك، فهم كانوا يعنون الذئاب البشرية.

فقالت ليلى : وكانت سمراء ناحلة قصيرة وإذا تحدثت تطاولت بعنقها وأرسلت كلماتها حادة واضحة وكأنها راغبة فى إرباك محدثها والسيطرة عليه، فقالت.

- دعنى من الذئب والنخلة والثمار، إنى أسألك عن هذا السخف الذى كتبت، أهذا تسهر الليل كله ؟

أهذا تراسل كل الصحف الصادرة فى الوطن العربى؟

وإذا حدث ونشرت لك إحداها قصيدة - بدافع الإشفاق - ظننت نفسك أصبحت شاعرا.

فقال طارق :

- على كل حال هذا خير بكثير مما يفعله بعض الناس الذين يسرقون مايكتبه غيرهم ويرسله إلى الجرائد بأسمائهم.

فضجت ليلى ضاحكة وقالت

- حدث هذا مرة واحدة.. كنت راغبة فى رؤية اسمى على صفحات الجريدة.. وعلى أى حال فقد كانت تلك القصيدة تافهة..

- ولكن بفضلها رأيت اسمك فى الجريدة..

صحيح، ولكن مصرة على أن قصائدك تافهة والأحسن لك وللشعر أن تتوقف عن الكتابة.

كانت ليلى قد حلت بالحى منذ خمس سنوات، مع عائلة تتكون من أم فى الخمسين وأخ فى السابعة والعشرين وأخت فى الخامسة وهى التى كانت يومها فى العاشرة، أما الأب فكان متوفى، وكانت ليلى تعرف شقيقة طارق، منية فى المدرسة ولما حلت بالحى راحت تتردد عليها فى البيت، ولما كانت عائلتها لاتملك جهاز تلفزة راحت تقضى السهرة فى بيت طارق وقد كانت فتاة مرحة ذكية طيبة القلب برغم لسانها السليط. تبدى دائما استعدادها لمساعدة الآخرين.. فأحبتها العائلة وعاملتها كفرد منها، ولما اكتشفت أن طارق يكتب الشعر، راحت تقتحم عليه غرفته وتبعثر أوراقه وتتطفل بفضول كبير على مايكتب.. وضايق هذا التصرف طارق كثيرًا وخاصمها وهددها ولكنها لم تبالى بغضبه. وكانت تقول له ساخرة (كيف تريد أن تصبح كاتبا إذا كنت لاتريد أن يقرأ أحد ما تكتب) وذات يوم ضبطها تبعثر أوراقه وتقرأها بحرية تامة فغضب وقرر طردها فقال لها بحدة رافعا صوته مشيرا بسبابته :

- اخرجى من هنا، لا أريدك أن تأتى إلى بيتنا مرة أخرى.. إنى أطردك.. هل تفهمين أطردك ؟

وكان يتوقع أن تخرج تجرى باكية وأن تقسم على عدم الدخول إلى بيتهم مرة أخرى فيرتاح منها.. ولكنها خيبت ظنه، فقد صعدته بعينيها السوداوين الجريئتين ورددت ساخرة.

- إنى أطردك.. أطردك.. اسمع يا بنى.. تطردنى عندما آتى إلى بيتك الخاص (رغم أننى أشك فى أنه سيكون لك فى يوم ما بيت خاص) أما هنا فإنى فى بيت العم يوسف، وحضرتك ليس لك أى حق فيه.

ولما سمعت العائلة وبخت طارق وأرغمته أمه على طلب الاعتذار منها، وفعل طارق مكرها.. ويوم بعد يوم بدأ يتعود عليها واكتشف فيها خصالا كثيرة فهى وبرغم ثرثرتها المستمرة تستطيع أن تحتفظ بالأسرار.. كما أنها تحسن التصرف أمام الضيوف والغرباء.

وأخيرا ، تعود طارق عليها وعلى اقتحامها لغرفته. ولنقدها المستمر لكل مايكتب ويفعل..

وأحيانا كانت ليلى، عندما يكون طارق فى الخارج وكانت تقوم بتنظيف غرفته، وتنظف أدباشه وترتب أوراقه. وذات يوم وجد طارق ورقة فوق المائدة، تركتها ليلى.. وكتبت عليها، أحبك، بأحرف كبيرة.. وقد دهش طارق كثيرًا وقرر تمزيق الورق وتجاهل الأمر بدبلوماسية. معتبرا هذا التصرف عبثًا صبيانيا.

وتجاهلت هى أيضا الحادثة، وواصلت تحدثها معه بلهجة ناقدة عنيفة، وكأنها تحاول إخفاء ضعفها نحوه وميلها إليه.

فى أواخر الخريف، لهذه السنة، واجه طارق مشكلة خاصة، ضايقته وأرهقته وأدهشته.. فقد ازداد إحساسه برجولته فجأة وراح يشعر يوما بعد يوم، أنه بحاجة لامرأة بجانبه، خصوصا فى الليل، عندما يذهب به خياله بعيدا.. يصور له صورا لفتيات جميلات رآهن فى السينما، أو وهن عابرات.. عندها تشتد حرارته وترتفع أنفاسه ويشعر بحرارة الشوق بصورة عنيفة محمومة.. ودون أن يدرى وكأنه مخدر تمتد يده تحت الغطاء بسرعة ملتهبة، ثم.. وفى لحظات غريبة يحدث الانفجار.. وبعد ذلك ينتابه إحساس فظيع بالاشمئزاز من نفسه وبالمرارة تجاهها.. ويتساءل إذا كان هو حيوانًا كبيرًا.. بحيث راح يستجيب لغرائزه الحيوانية بلامقاومة، أو بمقاومة سلبية.. فكل مرة يفعل فعلته، ثم يندم ويطلب المغفرة من الله على ضعفه.. ولكن سرعان مايعود لممارسة عادته السيئة ثم يعاوده الاشمئزاز من نفسه وشعوره بالمرارة والخجل تجاهها.. ويتساءل فى استنكار، كيف يفعل هو ؟ طارق بن يوسف، شيئا كهذا.. ما النزعة الحيوانية التى سيطرت عليه، والمدهش أنه لم يبذل جهدا يذكر لمقاومتها.. أليس هو إنسان ذو إرادة وعقل.. فأين هذا من العقل الذى يقدسه.. والإرادة الصلبة التى كان يظن أنه يتمتع بها.. لماذا يفقد كل شىء فى تلك اللحظات الغريبة.. هل النزعة الحيوانية بداخله أقوى من النزعة الإنسانية ؟

حقا إن إنسان ، كل إنسان فيه أشياء من الحيوان، وقد قرأ طارق كثيرًا عن هذا، ولكن الإنسان الراقى، هو الذى يسيطر على حيوانيته، يهذبها ويوجهها وجهة صحيحة راقية، والإنسان السيئ، مثله، هو الذى يترك لأهوائه العنان.. وبرغم محاولته فإن رغبته كانت قوية ناهمة، وقرر أن عليه أن يحل مشكلته الجنسية. فهى مشكلة لا يستطيع تجاهلها، وعزم على التحدث فى الموضوع مع شخص يكبره، وبحث عن هذا الشخص بين

أصدقائه فقد كان من المستحيل أن يتحدث فى الأمر مع أبيه أو مع أخوته.

وقرر أن يسأل أصدقاءه، كيف يحلون مشكلتهم الجنسية.. ورأى أن عليه أن يبدأ، بسمير فهو يكبره بأربع سنوات، ومعروف ببهيميته، ولا شك أنه يعرف الكثير عن تلك الأمور الجنسية.

وفى الغد لما اختلى طارق بسمير فى المقهى سأله :

- هل ممكن أن أتحدث معك فى موضوع حساس. فأنذره سمير بسبابته قائلا :

- إذا كان فى الأدب فلا داعى..

فقال طارق هامسا :

- لا، لا، إنى أريد أن أعرف، كيف تحل مشكلتك الجنسية. فبدت الدهشة على وجه سمير لحظة، ثم أطلق ضحكة عالية وقال :

- غريب.. شاعر وتسألنى عن الحب.

فقال طارق محرجا:

- اسمع ياسمير ، لا داعى للسخرية الآن .

فقال سمير بجد :

- حسنا، إنى أذهب عند النساء..

فتساءل طارق بلا وعى تقريبا.

أى نساء..

فقهقه سمير، مرة أخرى عاليا وقال :

- النساء، الذين تسمونهم فى الكتب بالساقطات أو بالداعرات.. باسم كهذا.

فقال طارق :

- فهمت، ولكن أين تجدهم ؟

فقال سمير بدهشة كبيرة :

- ألا تعرف أين ؟

- هل مفروض على أن أعرف سلفا ؟

فقال سمير :

- حسنا، فهمت ما تريد.. تريدنى أن آخذك إلى هناك..

- هذا بالضبط ما أريد..

فقال : سمير :

- ولكن عمرك لايسمح..

- عمرى ثمانية عشرة..

- فى بلادنا يجب أن تبلغ العشرين ليسمحوا لك بالدخول إلى تلك الأزقة..

- أليس هناك حل آخر..

فتفكر سمير لحظات وقال :

- هناك فعلا حل آخر، إذا كان معك خمسة دنانير.. وصرخ طارق غير مصدق.

- خمسة دنانير..

فنظر له سمير بازدراء قائلا :

– اسمع، يا بنى آن لك أن تعرف أن كل شىء يشترى بالفلوس، خصوصا الحب.. وصدقنى لو لم تكن صديقًا لما أخذتك معى حتى لو دفعت مائة دينار.. فقال طارق :

– حسنا، سآخذ الخمسة دنانير مساء السبت..

* * *

ومساء السبت، عندما خلت المقهى وغادرها معظم الزبائن، مال سمير إلى طارق هامسا

– هلم..

الآن..

– نعم الآن...

غادرا المقهى وسارا بين المزابل، يتحديان الظلام الكثيف ويتفاديان بمهارة المستنقعات والأوساخ.. وكان سمير يسير فى المقدمة، لخبرته الطويلة بكيفية السير فى مثل هذه الأزقة والأنهج الملتوية. الضيقة القذرة، وسار وراءه طارق على بعد خطوات. أخيرا خرجا إلى شارع كبير مضىء، فتنهد طارق ارتياحا.. ولكن سمير سرعان ما قطع الشارع ليدخل مرة أخرى إلى مجموعة من الأحياء الشعبية ذات الدروب الوعرة.. فلحق به طارق لاهثا صائحا.

– إلى أين تأخذنى يا مجنون ؟.. فقال سمير ضاحكا، دون أن يتوقف عن السير.

– تقدم يا بطل، ألست أنت القائل من طلب العلا سهر الليالى..

فقال طارق:

- لا، لست أنا..

- على أى حال، لا يمكن أن يكون إلا شاعر مغفل مثلك.. اجتازا أزقة وأنهج عديدة ذات بيوت صغيرة ملتصقة بلا أى نظام، وراح سمير يقول فى سخرية:

هكذا هو حال الشعراء البله، تكثرون فى الكتب والحديث عن الحب.. وتعجزون على الحصول على امرأة واحدة...

فضج طارق ضاحكا وقال:

- ولكن هناك كثيرون من الشعراء يعيشون حياة بهيمية فقال سمير:

- إذا أصبحت فى يوم ما، واحدا منهم فذكر صديقك سمير بخير ووجه له بعض الدعوات..

فضحك طارق قائلا:

- أنت لست بحاجة لمن يدعوك للحياة البهيمية.. لأنك بهيمى بالوراثة...

فقال سمير:

- وهأنذا أقودك إلى الطريق الصحيح، الذى خلقت له.. ثم توقف سمير فى زقاق قاتم، وأشار إلى بيت على اليمين قائلا:

ذلك البيت..

وتقدم نحوه بلا تردد، فى حين دق قلب طارق بعنف وبدا الخوف والارتباك باديين عليه وتوقف متسائلا:

- هل أنت متأكد أنها وحدها فى البيت... فقال سمير فى استهانة مدهشة:

أحيانا يكون زوجها موجودا..

فصرخ طارق فى ذهول.

- أتعنى أنها متزوجة..

طبعا متزوجة.. هل كنت تنتظر أن آخذك إلى فتاة عذراء.. فجفل طارق وتراجع إلى الوراء متسائلا.

- وماذا.. لو وجدناه فى البيت؟ فعاد إليه سمير قائلا:

اسمع يابنى.. سأطرق الباب فإذا خرج لنا زوجها سألته، إذا كان فتحى بن على يقطن هنا.. أو أى سؤال سخيف آخر.. فيجيبنا ونعود على أعقابنا وتنتهى المغامرة..

فقال طارق:

- وإذا عاد ونحن بالداخل...

- عندها سنخرج من النافذة.. فلم ترق هذه الفكرة لطارق وقال:

- ولكن إذا... ولكن سمير قاطعه بسخط قائلا:

اسمع يا طارق تقدم ولا تخف، فهذه ليست المرة الأولى التى آتى فيها إلى هنا، كما أن زوجها رجل سكير يقضى ليلة الأحد كلها يشرب الخمر فى حانة شعبية قذرة ولا يعود للبيت إلا فى الصباح.. ثم أنا معك فلا تخش شيئًا..

تقدم سمير من الباب المعنى، يجر خلفه طارق قائلا:

- ويقادون للجنة بالسلاسل... طرق سمير الباب طرقات خفيفة متتالية.. ومرت لحظات ثم جاء صوت امرأة هامسا.

- من؟

فأجابها سمير بتكبر.

- سمير بن مبروك..

فتح الباب وبدت على الضوء المنبعث من الداخل ملامح امرأة فى الأربعين.. ولما وقع بصرها على طارق تساءلت.

- من هذا؟

فقال سمير بنفس اللهجة المتكبرة.

- هذا صديقى، الذى حدثتك عنه..

- ولكنه صغير...

- صغير أو كبير، ما شأنك أنت هل ستتزوجينه.. معه الخمسة دنانير المتفق عليها، ألا يكفيك هذا.. عندها أحنت المرأة رأسها، موافقة، وحادت عن الباب، فاندفع سمير داخلا، كأحد الغزاة.. فى حين تبعه طارق متلصصا..

ألقى سمير نظرة احتقار على أثاث الغرفة البسيطة.. وبدا أنه يحلو له أن يلعب دور الغنى أمام من لا يعرفه. وراح طارق يراقب صديقه بدهشة وهو يبصق على أرض الغرفة ويقلب محتوياتها بحرية تامة.. وكأنها ملكه الخاص.. ثم استدار لطارق وقال فى سخرية:

- عندما تدخل معها، فأرجوك لا تنشدها بعض أشعارك،، أو تنظر فى عينيها بهيام.. فقال له طارق بحنق:

– شكرا على نصائحك يا سمير.. ولكن دعنى أقل لك إنى لست مغفلا للدرجة التى تتصور... فبسط سمير راحتيه قائلا:

– من يدرى؟

وفى تلك اللحظة دخلت المرأة.. فتفحصها طارق باهتمام، كانت قد تجاوزت الأربعين بسنوات قليلة ولا تزال تحتفظ بمسحة كبيرة من الجمال – جمال الجسد – بدت سمراء ممتلئة، ترتدى قميص نوم قديما وتعصب رأسها بمنديل أحمر، وبدا وجهها بشعا، شفتان كبيرتان تضغط على السفلى بأسنانها الكبيرة هى أيضا، ضغطة خفيفة بين الفينة والأخرى.. وأنف كبير يتدلى حتى يكاد يلمس شفتها، وعينان واسعتان، أكثر مما هو مرغوب.. ولكنها ذات قامة مديدة ممتلئة، وهذا ما يهمها منها..

وضعت المرأة سبابتها على شفتيها وأشارت إلى غرفة مجاورة مغلقة وهمست.

– الأولاد نائمون.. فتساءل طارق بينه وبين نفسه، عن عددهم وعدد آبائهم.. وخطرت على باله فكرة أقلقته، إنه بدخوله هذا البيت يعتدى على حرمة رجل ويدوس على شرف ناس.. لأول مرة فى حياته، ويرتكب إثما كبيرا، وشعر بامتعاض واشمئزاز من نفسه، ولكن رغبته كانت أقوى من كل شىء وقرر إقصاء هذه الأفكار، وأبعدها عن باله..

أشارت المرأة، إشارة ذات مغزى لسمير، فقام هذا وتبعها إلى غرفة جانبية أخرى.. وهو يشير لطارق، أن ينتظر... ومرت اللحظات، بطيئة غريبة، وطارق جالس على كرسى خشبى فى البيت المجهول.. أخيرا خرج سمير، وأشار له أن يدخل... عندما اجتاز طارق الباب، وجد نفسه فى غرفة

النوم نفسها... جرت عيناه بسرعة فى الغرفة، يتفحصها.. كانت ارض الغرفة، قد فرشت بما كان فى يوم ما حصيرا.. وفى إحدى الزوايا، كانت هناك خزانة كبيرة من الخشب الرخيص البالى.. وقد تكسر بابها، فأطلت منها مجموعة من الثياب القديمة، حشيت فيها بلا نظام.. وفى الزاوية الأخرى، كان هناك سرير يتسع لشخصين، وهناك فوق السرير.. كانت المرأة مستلقية، عارية تماما تراقب شيئا لا وجود له، فى السقف.. وتضغط على شفتها السفلى بأسنانها فى شىء من القسوة.. وتجلت فى عينيها نظرات مشمئزة شاردة...

ولكن طارق لم يستطع إبعاد عينيه عن الهدف الذى جاء من أجله.. وتحركت الرغبة الطاغية داخله.. وطغت على كل شىء.. حتى تحول إلى حيوان.. فى تلك اللحظات الغريبة.. وتجرد من ثيابه بسرعة، وكان إلى جانبها فوق السرير. ولما انحنى عليها، ليطبع على جبينها قبلة محمومة، اعترضته المرأة براحتها وقالت له بجفاء.

– لا تقبلنى.. وهات الفلوس مسبقا.. فصدم طارق لهذه المعاملة، التى لم يكن يتوقعها.. ونزل من السرير، وقد تبخر حماسه، وأخذ من جيب سرواله الخمسة دنانير وقدمها لها، فأطبقت عليها المرأة واستسلمت له بلا رغبة – من جانبها...

ومضت اللحظات، التى طالما انتظرها طارق وتخيلها. مضت بسرعة فاجعة.. وسرعان ما تسلل نازلا، وقد تضاعف شعوره بالخيبة والامتعاض.. والسخط، السخط عليها وعلى سمير وعلى ضعفه الخاص... ارتدى ثيابه وغادر الغرفة دون أن يتبادل معها كلمة. إذن هذا هو الجنس.. من أجل هذا يرتكب بعض الناس عمليات الاغتصاب والقتل.. من أجل لحظات عابرة..

وأى عبور.. تخون المرأة زوجها.. ويخون الصديق صديقه... ولكن مهلا... مهلا... فأكيد أنك إذا اشتدت وحدتك وطالت لياليك، فستتوسل إلى سمير، أن يأتى بك لهذا الدرب مرة أخرى...

غادرا البيت وعادا يجوبان الأنهج والأزقة القذرة والدروب الوعرة، ولما بلغا الشارع المضىء، قال طارق:

- دعنا نذهب عبر الشارع..

- ستكون المسافة أطول..

- لايهم، إنى بحاجة للسير.. فقال سمير وقد فهم ما يدور بذهن صديقه قال فى جدية غير متوقعة منه..

- آه، إنى أفهم ما تحس الآن، ولكن لا تقلق أول مرة دائما هكذا، المرة القادمة ستكون أفضل... فقال طارق بلا اقتناع حقيقى:

- لن تكون هناك مرة قادمة... فقال سمير:

- أراهن إنك بعد أيام قليلة ستتوسل لى أن آخذك، إنها الطبيعة لا تستطيع شيئا ضدها... فقال طارق فى تسليم:

صحيح، ولكن لم أكن أتصور ذلك..

- وما ذلك، الذى لم تكن تتصوره.. فقال طارق فى إثارة:

- فى غرفة النوم على فراش الزوجية، بجانب غرفة الأبناء.. شىء لا يصدق...

- ها... ها.. ها... إنها الحقبة التى تقولون عنها فى الكتب، إنها أغرب من الخيال..

- والغريب، أنها لم تكن راغبة، كأن شيئا يدفعها إلى ذلك..
- طبعا.. شيء يدفعها إلى ذلك..
- وما هو؟
- إنه هو... فصرخ طارق.
- هو. فقهقه سمير عاليا قائلا:

- لا يا مغفل، لم أقصد ما تصورت، إنما أعنى الفقر..
- الفقر ليس سببا كافيا للخيانة..
- الفقر سبب كاف لفعل أى شيء.. مهما كان..

- ولكننا نحن أيضا فقراء، فهل تتصور أن أمهاتنا يخن آباءنا، بحجة أننا فقراء..

فقال سمير وقد بدأ يحتد، وكان لا يحب أن يقال عنه إنه فقير.. قال:

- اسمع يا طارق، يجب أن تفهم إننا، نحن، لسنا فقراء فأنت وأنا نشتغل ونعود إلى بيتنا فنجد الأكل والشرب والفراش وثيابنا نظيفة ومعنا نقود إلى أخ.. أما هذه المرأة فهل تعلم أن لها ثمانية أطفال، أكبرهم لم يتراوح الخامسة عشرة وهو على أى حال فى سجن الأحداث. وأضف إلى هذا فأبوهم سكير عربيد.. فماذا تريد من الأم أن تفعل إذا لم تجد خبزا تقدمه لأبنائها؟.. فتمتم طارق.

- يا للمرأة المسكينة!. إنك فقير وتعلم هذا، ولكن ها هم ناس أكثر فقرا منك وأشد حاجة.. فلماذا لم تشعر بهم من قبل، ولم تفكر قط ولم تحس حتى بوجودهم... ثم ها أنت الآن تستغل فقرهم أبشع استغلال... وعلى الأرجح فإنك ستستمر.. تنتقد سمير وتتصرف مثله..

وأحس برغبة فى الهروب من أفكاره وسأل صديقه
- ألا تشعر بالندم!. فألقى عليه سمير بنظرة جانبية قائلا:
- لا تقل لى إنك ندمت على الخمسة دنانير... فقال طارق:
- لا، أعنى ألا تشعر أننا نستغل ظروفها.. فقال سمير:
- أبدا، بالعكس هى التى تستغل فقرنا.. فتساءل طارق متعجبا.
- كيف تستغلنا؟
- طبعا، فلو كنا أغنياء لكانت عندنا أكثر من عشيقة. ولكن ما دمنا فقراء فهى تستغل فقرنا وحرماننا... لتبتز منا بضع دنانير، نكسبها بعد أيام من العمل الشاق، ثم تأخذها هى منا مقابل لحظات.. فمن يستغل من؟

فازداد للحظات إعجاب طارق بصديقه، القوى الجرىء المندفع فى طريق الشر بلا آلام ولا قلق.. وأنذره سمير قائلا:

- إياك ثم إياك أن تتزوج وأنت فقير وتنجب جيشا من الأطفال، وإلا فعلت زوجتك مثلها.. فانزعج طارق، وانهال على صديقه سبا وشتما.. فى حين جرى سمير مقهقها فى ظلام الليل البهيم.. عندما بلغا مشارف الحى، شاهدا، شبحا يتحرك فى الظلام.. توقفا برهة محدقين، وسرعان ما تعرفا عليه عندما لمحاه يتمايل فى مشيته البطيئة يمينا وشمالا.. وهتف به سمير ساخرا.

الحاج العربى، تتزحلق على الجليد كعادتك.. وكان العربى، شقيق ليلى الأكبر، وبيتهم مواجه لبيت سمير، كان فى السابعة والعشرين، طويل القامة، كعمود كهرباء - كما وصف فتحى - شديد السمرة. ناحل الجسد

بصورة مفزعة. كأنه هارب من مجاعة.. كما قال فتحى أيضا.. وتعود العربى أن يعود كل مساء إلى بيتهم سكران، وكم ليلة سمعه الجيران وهو يغنى بصوت أجش، أو وهو يتخاصم مع أمه، وقد أزعجهم فى البداية، ثم تعودوا عليه، فلم يعد يثير ضجيجه انتباههم.. وكان لا يكلم أحدا من سكان الحى ولا يدخل المقهى ولا يعرف عنه سكان الحى شيئا، ولا عائلته أيضا فكل المعروف عنه، أنه يذهب فى الصباح للعمل وفى المساء يمر على حانة الأسود، بالكرم الشرقى، حيث يسكر ويعود إلى البيت.. ويبدو أن سكان الحى لم ينقبوا كثيرا فى أمره، وظل شيئا على الهامش..

اقترب سمير من العربى ومسكه من ذراعه، وكان العربى قد أسرف فى شرب الخمر، ككل مساء.. فبح صوته واحمرت عيناه وعبقت رائحته.. وفقد السيطرة على قدميه.. فما أن لمسه سمير حتى مال إليه وكاد يقع عليه لولا مسارعته ويوقفه، بلا مشقة.. مسك سمير العربى من كتف ومسكه طارق من الكتف الآخر، وكانا ينويان أخذه إلى بيته...

لكن فكرة جريئة، خطرت على بال سمير، وهو سريعا ما يستجيب لمثل تلك الأفكار، ودون أن يطلب من طارق رأيه.. راح ينفذ فكرته.. قال لطارق بلهجة آمرة.

- انتظر.. اتركه..

فترك طارق كتف العربى ونظر لسمير مستفسرا.. وبغتة، جذب سمير العربى بعنف إلى الحائط، ثم طرحه أرضا بركلة تعسفية.. ثم شرع يفتش جيوبه.. راقب طارق ما يحدث أمامه بذهول، وقد أخرسته الصدمة.

ثم أطلق صرخة حادة متسائلا:

- ماذا تفعل؟.

فقال سمير وهو يبحث فى الجيوب، والعربى يسب ويشتم بصوت خنقته الخمرة فلم يتجاوز حلقه..

- ألا ترى ما أفعل.. إنى أبحث عن محفظته..

فتساءل طارق بدهشة بلهاء.

لماذا؟.

- كيف، لماذا؟ لآخذ نقوده طبعا..

فقال طارق ولم تزايله دهشته بعد.

- أنت تسرقه إذن، تقطع الطريق..

فقال سمير فى استهانة:

- نعم، هذا ما أفعل، فهل يدهشك هذا؟.

- والمدهش أكثر أنك تفعل هذا أمامى..

عثر سمير فى المحفظة على أربعة دنانير فأخذها وأعاد المحفظة إلى جيب العربى وهو يقول:

- لم لا، ألسنا أصدقاء؟.

فصرخ طارق.

- ولكن لا أرضى ولا..

وقاطعه سمير قائلا:

- لنبتعد أولا..

وابتعدا تاركين العربى فى مكانه على الأرض يسب ويشتم بصوته المخنوق..

ولما ابتعدا بما فيه الكفاية، توقف سمير قائلا:
- عثرت على أربعة دنانير، فهناك ديناران..

صدم طارق مرة أخرى، وراح يقلب عينين زائغتين، بين وجه سمير ويده الممتدة بالدينارين.. ثم صرخ بغضب جنونى.

- ماذا؟ أتريد أن أتقاسم معك النقود المسروقة؟

أتريد أن تجعل منى شريكك فى السرقة؟

فقال سمير بحزم:
- لا ترفع صوتك أرجوك... ستفضحنا..

لكن كلمته الأخيرة، جعلت طارق يزداد صراخا..
- ماذا تقول؟ ستفضحنا... إذن أنا شريكك فى السرقة نحن اثنان إذن و..

وقاطعه سمير وقد أمسكه من خناقه قائلا:
- اسمع يا طارق قلت لك لا ترفع صوتك. ثم أنت لا تريد أن تأخذ الدينارين، حسنا سآخذها أنا..

ودس النقود فى جيبه وواصل..
- والآن قل لى لماذا لا آخذ هذه النقود؟ ماذا كان يفعل العربى بها لو ظلت عنده؟ إنه سيسكر بها دون شك، فهو يسكر بكل نقوده، وماذا يحصل إذا سكر.. يعود إلى البيت سكران، فيضرب أختيه ويعارك أمه.. ويقلق راحة الجيران.. فلماذا لا آخذ أنا النقود وأنتفع بها، خير من أن تذهب فى الحرام...

فازدادت دهشة طارق وهو يستمع لهذا الكلام، وقال متسائلا:

- تريد إقناعى، بأنك أخذت نقود العربى، حتى لا يجد نقودا يسكر بها ولا يضرب أختيه ولا يعارك أمه ويقلق راحة الجيران..

فقال سمير متظاهرا بالبساطة.

- طبعا.. طبعا..

فصرخ فيه طارق فى حدة واحتقار.

- طبعا.. طبعا.. يا لك من إنسانى يا سمير.. كان يجب أن تكون عضوا بلجنة الدفاع عن حقوق الإنسان.

فاحتد سمير بدوره قائلا:

- دعنى أقل لك أولا، إنى لا أريد أن أكون عضوا بتلك اللجنة المغفلة، ثم إنى سوف لن أعيد النقود وكذلك سوف لن أندم على ما فعلت.. وأنت لا تستطيع أن تغير رأيى ولا تستطيع أن تفعل ضدى شيئا، فلماذا تزعجنى بحديثك الفارغ وتحير قلبك الرقيق بهذا الغضب العظيم؟.

فقال طارق فى تحدٍّ.

- لماذا لا أستطيع أن أفعل ضدك شيئا.. بإمكانى أن أشكوك لأبيك أو لأم العربى أو حتى للبوليس..

فتراجع سمير متسائلا.

- تفعل هذا؟

- أفعله...

مهلا يا صديقى، فهذا سيسىء إلى صداقتنا غاية الإساءة.. بل هو نهاية الصداقة...

فصمت طارق حائرا، وتراجع عائد إلى بيتهم حزينا.

وهتف به سمير ساخرا وقال:

- طارق، أنت لست غاضبا من أجل السرقة، إنما غاضب من أجل ليلى...

وقهقه ضاحكا، ولكن طارق واصل طريقه إلى بيتهم دون أن يلتفت وقهقهات سمير تلاحقه.. وراح يفكر بدهشة كبيرة فى هذه الليلة الغريبة، التى ارتكب فيها من الخطايا ما لم يرتكبه طول حياته الماضية.. فقد زنى، اعتدى على حرمة رجل وداخل بيته... ثم كان شريكا - ولو بالصمت - فى عملية سرقة، والغريب أنه فى الحالتين كان مجرد من روح المقاومة.. صحيح أنه صدم وتألم وخاصم صديقه ولكنه وكما قال سمير، لم يستطع فعل شىء، فقد كان منقادا، تقوده نفسه وصديقه فى طريق الشر بلا رغبة منه ولكن بلا مقاومة أيضا.. وتساءل ماذا يحدث له يا رب، فهو يشعر، وكلما كبر سنة ازدادت الصعوبات فى الاحتفاظ بنظافة يديه وجسده وسلامة روحه...

صباح الأحد، ليس ككل صباح.. فقد امتلأ الحى بالأطفال منذ الساعات الأولى وملأ ضجيجهم الأجواء، وكثر صراخهم عندما دارت بينهم مقابلة فى كرة القدم حامية الوطيس وكانوا قد اتخذوا من النهج الضيق الذى يفصل صفتى الحى عن بعضهما، اتخذوه ملعبا لهم، وكانت لهم كرة من المطاط صغيرة، راحوا يقذفونها فى كل اتجاه ويعدون وراءها صارخين زاعقين وأحيانا تصدر عنهم وسط الصراخ والضجيج بعض الكلمات البذيئة والشتائم يتبادلونها فى ما بينهم بطلاقة، بعد أن حفظوها عن الآباء والإخوة الكبار...

وكأن السماء تحتفل معهم بهذا اليوم، فقد أشرقت الشمس منذ الصباح

الباكر واختفت سحب الخريف التى احتلت السماء طول الأسبوع الماضى، استيقظ طارق منزعجا، فقد أيقظه صراخ الأطفال وضجيجهم ولكن سرعان ما زال انزعاجه عندما ألقى نظرة على الساعة. فإذا هى تمام التاسعة، أزاح الغطاء بقفزة رشيقة استوى واقفا، وقام ببعض الحركات الخفيفة.. ثم مضى إلى الخارج، حيث وجد أمه تجلس وسط الدار منهمكة فى غسل الثياب، فألقى عليها تحية الصباح ومضى إلى الحنفية الوحيدة فى البيت، حيث غسل يديه ووجهه وسكب شيئا من الماء البارد على رأسه وعاد إلى غرفته وارتدى ثيابه وغادر البيت..

عند باب المقهى، رأى فتحى يجلس على كرسى، مسندا ظهره إلى الحائط، مادا ساقيه على كرسى آخر، واضعا سجارة فى فمه وقهوة على مائدة بجانبه، متفحصا كل امرأة عابرة أمامه، كل ذاهبة إلى السوق وكل عائدة منه اقترب منه طارق متسائلا:

- كم امرأة مرت من هنا؟.

فقال فتحى دون أن يتخلى عن جلسته الملكية.

- السوق ملآن بهن ولكن لا واحدة لنا..

فقال طارق ضاحكا:

- وتلك هى المشكلة..

- حقا، إنها المشكلة التى نحاول حلها بتجاهلها..

جذب طارق كرسيا وجلس بجانب صديقه وطلب قهوة... ولم تمض لحظات حتى أقبل سمير حاملا كيسا صغيرا وبدا أنه فى طريقه إلى الحمام، ألقى تحية الصباح على صديقيه وقال لهما فى إغراء:

- هل تذهبان إلى الحمام؟.

فقال طارق:
- أنا ذهبت فى الجمعة الماضية..

عندها تحول سمير بعينيه إلى فتحى الذى قال:
- لا.. دوش فى البيت وأنا مرتاح..

وكان معروفا عن سمير أنه لا يحب الذهاب وحيدا للسنما وللحمام ولهذا قال لفتحى:

- لكن الدوش ليس كالحمام، إن للحمام فوائد عديدة.. وراح يصف له فوائد الحمام فى إغراء.. ولكن فتحى رفض بشدة قائلا:
- قلت لك لا، يعنى لا.. وهيهات أن أتحرك من هنا قبل منتصف النهار...

عندها ابتعد سمير معبرا عن اشمئزازه قائلا:
- يا لك من قذر يا فتحى.. أراهن أنك لا تعرف لون الحمام من الداخل...

مضى سمير للحمام وبقى طارق جالسا بجانب فتحى فى جلسته الإمبراطورية.. يراقب كل عابرة أمامه، وإذا أعجبته إحداهن، تابعها بعينيه حتى تختفى.. أما إذا حدث وابتسمت إحداهن أوأتت بحركة.. ترك مكانه ولحقها.. ولكن سرعان ما يعود خائبا.. وبرغم خيباته المتتالية ظل محافظا على خطته هذه فى اصطياد النساء والفتيات ولا فرق عنده... واقترح عليه طارق، القيام بجولة فى السوق، فلبى بسرور...

عند الساعة الثانية، بعد منتصف النهار، وبعد الغداء، اجتمع الأصدقاء فى مقهى النور، بما فيهم طاهر، بعد عودته من العمل وكان الوحيد الذى يعمل صباح الأحد ويوم عطلته يوم الجمعة..

احتد النقاش وكان الخلاف حول، أين سيذهبون هذا الزوال.. اقترح فتحى السنما، قائلا:

- لنذهب إلى السنما هناك شريط رعب رائع..

فقال له طاهر محتجا:

- متى كان الرعب رائعا؟

- إنه رعب فنى.. فنى..

- دعنا من السنما والرعب وهلموا إلى ملعب المنزه مقابلة رائعة، الترجى والأفريقى..

وأيده محمود قائلا:

- حقا.. حقا، مقابلة شيقة وهى لا تنتظر، أما شريطك المرعب، فيوم آخر أو فى الليل...

أما سمير فقال بحزم:

- اذهبوا إلى حيثما شئتم، أما أنا فلن أذهب لا للسنما ولا للملعب، هل أشتغل طول الأسبوع وفى عطلة آخر الأسبوع أحبس نفسى فى قاعة سنما قذرة، أو فى ملعب كرة لعين، لا لا هذا جنون..

فقال له فتحى:

- حقا هذا جنون، فأنت من الناس الذين يفضلون حبس أنفسهم فى حانة مقدسة...

وضج الأصدقاء ضاحكين وضحك معهم طاهر ثم سارع يقول:

- أرجو ألا نخرج عن الموضوع، لنقرر أين نذهب بسرعة ولما لم يتفقوا، قرر كل واحد منهم أن يذهب حيثما أراد. فذهب طاهر ومحمود

وفتحى للملعب وجلس طارق بجانب سمير محاولا إقناعه بتغير رأيه فى السنما.. لكن سمير رفض بشدة وظلا جالسين صامتين فى المقهى ثم انحنى سمير على صديقه هامسا.

- اسمع يا طارق، عندى اقتراح سخيف سيعجبك..
- ما هذا الاقتراح؟
- ما رأيك لو ذهبت معى إلى الحانة..

فصرخ طارق ذاهلا.
- أنا....
- نعم أنت، لم لا؟.
- ولكنى لا أشرب خمرا وعمرى لا يسمح لى بدخول الحانات.

فقال سمير فى إغراء:
- دعك من عمرك، أنا أتكفل بهذا، ألم آخذك إلى أماكن عديدة قبل أن تبلغ السن القانونية، والشراب من قال لك اشرب..

- ماذا سأفعل هناك إذن؟.
- اسمع، ألا تريد أن تكون كاتبا، فها هى فرصة لترى السكارى وتراقبهم، ستجد متعة فى ذلك صدقنى..

- وإذا جاء البوليس ووجدنى هناك..
- البوليس، ما شأن البوليس بالسكارى.. البوليس لا يأتى إلى الحانة إلا للشرب.. صدقنى جلسة واحدة هناك ستفهم معنى حانة وسكارى...

فقال طارق وقد استبد به الفضول.
- سأذهب معك ولكن لن أشرب..

- اتفقنا، لن تشرب.

غادر طارق وسمير المقهى وسارا فى الشارع متقاربين فى خطوات متوازية، وكأنهما جنديان مدربان على السير، وكان سمير متعودًا على الذهاب إلى الحانة مساء كل أحد ووجود طارق بجانبه ذلك المساء لم يقلقه برغم صغر سنه.

أما طارق فكانت تلك أول مرة التى سيدخل فيها حانة، وحانة شعبية بالذات وكان قد قرأ فى الجرائد والمجلات كثيرا عن المعارك التى تدور فى الحانات بين السكارى ولهذا، سار متحفزًا، لما ظنه مغامرة وسأل سمير قائلا :

- ماذا يحدث لو اندلعت معركة فجأة :

فهتف سمير.

- ليتها تندلع فما أحلى العراك بعد البيرة، تنهال عليك الضربات وأنت لاتحسها، بل ستحبها فتوقف طارق وقال :

- قلت لك إنى لن أشرب ، وأنت تعلم أنى لا يمكن أن أحب اللكمات ولا أعشق العراك..

فقال له سمير :

- تقدم يا خواف ، فأنا سآخذك إلى حانة الأسود، وهى حانة الذباب نفسه لايجرؤ على إثارة الضجيج ولا حتى على دخولها..

فتساءل طارق غير مصدق.

- وما السبب ؟

- السبب، صاحبها، إنه رجل ضخم بإمكانه ان يتخاصم مع عشرة فى نفس الوقت، ولهذا كل المشاغبين يذهبون ليشربوا فى حانات أخرى.. فلا تخف إن حانة الأسود هادئة كهذا المساء..

اجتازا المحطة، ليدخلا منطقة الكرم الشرقى. وقطعا الشارع الرئيسى ثم مالا إلى اليسار ودخلا نهجا ضيقا صغيرًا وفى آخره، كان طارق يعلم أن هناك حانة الأسود وقد مر بها كثير من المرات ولكن لم يدخلها قط..

كانت الحانة تشبه إلى حد بعيد مقهى النور ولا تمتاز عليها إلا بالكبر، ولكنها كانت كمقهى النور أربعة جدران زرقاء مهترئة ومجموعة من الكراسى والموائد الخشبية القديمة وبار صغير يتوسطها وكان من الخشب الرخيص هو أيضا ووراءه كان هناك صاحب الحانة وكان رجلا ضخم الجثة كبير الرأس بإمكانه أن يتخاصم ضد عشرة من رواد الحانة ويصرعهم - كماقال سمير - وتصور طارق، أنه فعلا بإمكانه أن يتلقى الضربات واللكمات ولا يحسها، فقد كان الشحم واللحم الفائض على جسده سيدفع عنه الغيلة.. ولكنه بدا بشوشًا مع الزبائن وكان يبتسم ويحيى كل داخل وكل خارج.

أثر دخولها مباشرة توجه إليه سمير، مشيرًا لطارق أن ينتظر، ومن أمام الباب راقب طارق سميرًا وهو يصافح الرجل، ثم همس له بضع كلمات مشيرا لطارق.

وهنا عبس الرجل وهو يلقى بنظرة طويلة متفحصا طارق. وتجمد طارق فى مكانه ارتباكا، والعيون السوداء تسلطان عليه أشعتها القاسية، وقال الرجل شيئا فتراجع سمير مصدوما، ثم أشار إلى صدر الرجل العريض

وقال شيئا وهو يشير للمجهول، عندها ابتسم الرجل ابتسامة كبيرة دافئة مضيئة وهمس لسمير، الذى صافحه مهنئا وعاد لطارق.

اتخذ الصديقان مكانا فى أقصى زاوية فى الحانة حيث تعود سمير الجلوس مساء كل يوم أحد، ليشرب بضع قوارير من الجعة، ويسأله طارق قائلا :

- ماذا دار بينكما ؟

فهمس سمير :

- لقد رفض فى الأول، قال إنك صغير وتبدو صغيرا وأن القانون لايسمح، عندها قلت له، ولكنك فوق القانون، قلت له، إنك أنت القانون هنا.. فصدقنى وأمر ببقائك..

- كثيرون أمثاله فى هذا البلد.

- اسمع دعنى من هذا الحديث وقل لى ما رأيك.

رأيى أن الجو حار هنا..

فقال سمير فى إغراء :

عليك بقارورة من الجعة المثلجة وسترى.

فقال طارق ضاحكا :

- شكرا على هذا الاقتراح، ولكن اتفقنا على ألا أشرب.

- ولماذا لا تشرب، ألم تقل يوما، إن الكاتب بحاجة لتجارب عديدة ليكتب؟

- صحيح..

- إذن لماذا لا تجرب ؟ فالشرب تجربة لا غنى عنها.. فقهقه طارق قائلا :

- سأستفيد من تجاربك أنت فى الشرب والعربدة..

- ولكنك تعلم أن التجربة لا تكون تجربة إلا إذا قمت بها بنفسك.. هذه تجربة قررت الاستغناء عنها. فتراجع سمير متسائلا بريبة.

- قل لى لماذا لا تشرب ؟ وأرجو ألا تقل لى لأنك مسلم فقال طارق :

- ولكن لهذا ولأسباب أخرى، ثم دعنا من الحديث فى الدين ونحن فى حانة.

- حسنا ياعم الشيخ، تسل إذن بمراقبة السكارى ودعنى أتسلى بالنبيذ.

وطلب سمير لنفسه قارورة من الجعة وطلب لصديقه قارورة من الكوك، وراحا يشربان فى هدوء وصمت، واغتنم طارق الفرصة وجالت عيناه المدربتان تتفحصان الرواد.. فإذا هم كلهم من العمال البسطاء والموظفين الصغار وبينهم دون شك بعض العاطلين، وقد رأى طارق بدهشة كبيرة مجموعة منهم، لا يزالون بثياب العمل المتسخة بالدهن، وأدرك أنهم أتوا مباشرة إلى الحانة إثر انتهائهم من العمل - هذا إذا أنهوه أصلا - ولم يفهم السبب الذى جعلهم يستعجلون القدوم للحانة لتبذير الدنانير القليلة التى كسبوها بعد أيام من العمل الشاق، والمدهش حقا أنهم سينفقونها كلها فى شرب الخمر.. وانتابه شعور بالنفور والاشمئزاز منهم، ولاحظ سمير التغير على وجه طارق وهو يراقب السكارى وقال له ساخرًا :

- هؤلاء هم مواطنوك الكرام الذين ترغب فى التضحية من أجلهم.

فقال له طارق :

- ولكنك واحد منهم، فلماذا تحتقرهم ؟

فصرخ سمير غير مصدق.

- أنا.. اسمع يا مغفل، أنا لا آتى هنا إلا مرة واحدة فى الأسبوع ولا أشرب أكثر من ثلاثة قوارير من الجعة.. أما هم فيأتون كل مساء ويشربون حتى يعجزوا عن الحركة..

- انتظر حتى تصبح فى مثل سنهم وستصبح مثلهم.. فقال سمير وقد غضب :

- اللعنة عليك، هل أتيت بك إلى هنا لتفسد على الكيف، كيف تتجرأ وتقول إنى سأصبح ذات يوم واحدا من هؤلاء..

فسكت طارق خوفا من أن يزداد غضب سمير وكان لا يعرف كيف يتصرف سمير إذا شرب، وساد بينهما صمت قصير ثم هتف سمير.

- انظر ذلك الرجل.

التفت طارق إلى يمينه حيث أشار سمير، فرأى رجلا تجاوز الخمسين، قصير القامة ناحل الجسد، يجلس منفردا إلى مائدة عليها قارورتان من الخمر الأحمر وكان قد أفرغ واحدة وشرع يشرب من الثانية وكان يشرب من القارورة مباشرة وهذا ما أدهش طارق حقا.

وتساءل سمير.

- هل تعرفه ؟

- لا.. طبعا لا..
- وأنا أيضا لم يسبق لى أن رأيته هنا..

ركز سمير بصره على الرجل يتفحصه، ثم قال :

- يبدو أنه من الأغنياء.

- لو كان من الأغنياء فماذا يفعل فى هذه الحانة؟

- انظر إلى بدلته إنها جديدة وكذلك حذائه وقميصه. فتساءل طارق وقد شعر أن صديقه يولى اهتماما خاصا بالرجل.

- لنفرض أنه من الأغنياء، فما يهمك من أمره.

هز سمير كتفيه قائلا :

لا شيء..

قال، لا شيء، ولكنه واصل يتفحص الرجل ويدقق فى ملامحه.. وأتى طارق على ما تبقى من قارورة الكوك وقال:

- إذا كان لاشيء، كما تقول، فما معنى هذا الاهتمام.

- قلت لك لا شيء، لفت نظرى فقط..
- ولماذا لفت نظرك، هذا ما أردت معرفته.

فتصنع سمير الغضب قائلا ؟

- اللعنة عليك كم من سؤال تلقى فى الثانية.. لقد لفت نظرى لأنى أعرف جميع الزبائن هنا وهو لم يسبق لى أن رأيته، أيكفيك هذا؟

قال سمير هذا، ثم عاد يتفحص الرجل بطريقة خاصة جعلت طارق

يشعر بضيق وقلق واضح وعندما توقفت عينا سمير طويلا على ساعة فى معصم الرجل، فإن ناقوس الخطر دق فى رأس طارق ومالبث أن قال :

– اسمع ياسمير، إنى أقرأ أفكارك، أراهن أن أفكارا سوداء تدور فى رأسك وأنك تنوى شيئا بهذا الرجل وهو سيئ على أى حال.

فابتسم سمير فى خبث قائلا :

– نعم، وقد نويت..

صرخ طارق.

– .. لا ..

– ولم لا ؟

– هل تظنه العربى ؟

– ألم تقل دائما إننا كلنا عرب..

وقهقه ضاحكا معجبا بنفسه.

وقال له طارق :

– طبعا أنا لا أستطيع إقناعك بالعدول عن هذا.

– لا تستطيع.

– ولا تسمع أية نصيحة منى.

إنك إنسان لم ينصح نفسه، فكيف ستنصحنى ؟

– إذن، ابق فيها وحدك.

لا، انتظر حتى أشرب قارورة أخرى، ثم اذهب إذا أردت.

- سأذهب الآن ولن أذهب معك إلى أى مكان فى المستقبل فابتسم سمير ساخرا وقال :

آه ، عرفت إلى أين أنت ذاهب.

- إلى أين ..؟
- إلى البحر..

أصبت..

فواصل سمير سخريته قائلا :

- وهل أخذت معك دفترك؟

إنه دائما فى جيبى..
- وقلمك.

- وقلمى أيضا..

إذن، هنيئا لنا نحن أبناء تونس، فهاك ستكتب لنا قصيدة تغير بها حالنا، وإنى - والحق يقال - أخاف أن تقضى على الشر ذات يوم بإحدى قصائدك الخالدة فالحياة بلا شر لا تحلو لى..

لا تخف من هذه الناحية، فإنك الشر نفسه..

فقال سمير :

- اسمع يا طارق إنى متحير فى أمرك، فأنت ذكى ومغفل فى نفس الوقت، وإلا قل لى بربك، هل تتصور حقا، إنك بكتابتك للشعر ستصبح ذات يوم شهيرا وثريا.. هل تتصور أنك بتلك الطريقة ستكسب نقودًا.

فأشار طارق للرجل قائلا:

- على كل حال هى خير من طريقتك..

- اسمع يا طارق دعك من هذا السخف الذى تفعله واسمع كلامى.. و

وهنا نهض طارق قائلا:

- سنلتقى فى المقهى وهناك سأستمع لنصائحك كلها أما الآن فيجب أن أذهب...

عندها هز سمير يديه إلى رأسه علامة اليأس من نصح صديقه قائلا:

- سنلتقى فى المقهى.

* * *

انحط سمير على الكرسى بجانب صديقه فى المقهى فمال إليه طارق متسائلا.

- ماذا فعلت؟.

فتنهد فى ارتياح قائلا:

- ثلاثون دينارا وساعة..

- حقا..

- نعم، قلت لك إنه من الأثرياء، ولكن لعنة الله عليه تركنى انتظره أربع ساعات..

فقهقه طارق عاليا وقال:

- يا سمير، لعنة الله عليك أنت، لقد أخذت منه كل ماله ولست براض عنه..

فضحك سمير وقال:

- ليس هذا فقط، لو رأيت اللكمة التى أعطيتها له..

ضج طارق ضاحكا وقال:

- إذن كلفته، مائة دينار هذا المساء...

- تقريبا..

عادا إلى الضحك، وفجأة قطع طارق ضحكته وقد انتابه الخجل والدهشة، الدهشة من نفسه، أيضحك، لأن صديقه سطا على سكير.. أليس هذا عملا مشينا - أليس هو عملا إجراميا خطيرا - كان يجب أن يغضب ويحزن ويقاطع سمير إلى الأبد.. أليس هذا ما يفعله، أى رجل شريف.. أما هو فيضحك ويتقبل هذا العمل بلا مبالاة.. بل يكاد يعبر عن فرحه لصديقه، لحصوله على ثلاثين دينارا وساعة سرقها...

وقطع عنه سمير ظل أفكاره متسائلا:

- فى ماذا تفكر؟

فنظر إليه طارق بغرابة، وكأنه يتوقع أن يكتشف فيه شيئا جديدا، شيئا لم يلاحظه طول السنين التى قضاها معه.. ولكنه وجد سمير كما عاهده دائما.. شابا أسمر وسيما موفور الصحة والعافية، يعتنى بشعره وهندامه يبتسم فى كبرياء وترفع...

وسأله طارق هامسا.

- ألا تشعر أنك تقوم بعمل خطير وأنت تهجم على الرجل.

فقال سمير بفخر، وكأنه يسرد عملا بطوليا.

- عندما أقرر السطو لا أفكر إلا فى المحفظة، فترانى أهجم عليه ككارثة..

فقهقه طارق برغمه.. وقال:
- صدقنى، إنك فعلا كارثة.. ولكن هل تعرف عقوبة قطع الطريق؟
- طبعا أعرف.

- ولا تهتم.
- لكى يحاكمونى، فيجب أن يلقوا على القبض أولا..
- سيفعلون إذا واصلت هذا العمل، لا محالة.

فقال سمير بفخر:
- هل تظن أن فى تونس يوجد شرطى قادر على إلقاء القبض على سمير بن مبروك.
- ولم لا؟
- كيف لم لا؟ لأنهم مغفلون...
- كثيرون قبلك رددوا هذا الكلام.. ثم...

ثم، قاطعه سمير قائلا:
- دعنا من هذا الحديث الآن، فهاهم الأولاد قادمون..

وأضاف.
- بينى وبينك أرجوك.
- طبعا..
- حتى فتحى لا داعى ليعلم..
- لا داعى...

وفى هذه اللحظة دخل المقهى، فتحى وطاهر ومحمود وأمارات التعب بادية عليهم ولما اتخذوا أماكنهم المعتادة، تساءل سمير.

- ماذا فعلتم..

تعادل..

فقال ساخرا.

- تعادل الفريقان فى حين انهزم المتفرجون..

فقال طاهر وهو من أحباء الترجى فى حين أن محمودا من أحباء الأفريقى، أما فتحى فهو لا يميل لأى فريق معين - لماذا انهزمنا، لقد كانت مقابلة شيقة وكنا جديرين بالانتصار، ولكن الحظ لم يسعفنا...

فاعترض محمود على قوله، وقال:

- لا، لا، لا تصدق ما يقول، فنحن الذين كنا جديرين بالانتصار ثم متوجها إلى طاهر.

- ألم تر تلك القذيفة التى اصطدمت بالعارضة الأفقية..

وقاطعه طاهر محتدا.

- آه.. وهل نسيت أنت، ضربة الجزاء الأكيدة، التى غفل عنها، أو تغافل عنها الحكم المتحيز..

فقال محمود بدهشة عظيمة:

- الحكم المتحيز.. اسمع يا صاحبى، أولا لم تكن هناك، ضربة جزاء، لأن لعبكم سقط من تلقاء نفسه، وثانيا الحكم كان معكم وإلا كنا هزمناكم ثلاثة لصفر على الأقل احتد النقاش بين طاهر ومحمود وراح كل واحد منهما يصف عمليات وهجمات فريقه المفضل، مضيفا إليها ما شاء من خياله..

وتابع سمير النقاش بدهشة واستنكار.. وما لبث أن هب واقفا ضاربا المائدة، عازما على وضع حد لهذا النقاش، صارخا فى حركة مسرحية.

- يكفى.. يكفى.. يكفى، لا، لا، إلى متى سأظل، هنا.. هل كتب على أن أقضى حياتى كلها بين قوم من المغفلين ما هذا الغباء المدهش؟ ما شأننا نحن بمقابلتكم اللعينة؟ لينتصر الترجى أو الأفريقى.. فماذا سنكسب من انتصارهما؟.

فقال له محمود غاضبا بدوره:

- قلنا لك ألف مرة، إن كرة القدم هواية لا ننتظر منها شىء سوى المتعة...

وواصل سمير هجومه وقد تضعّف غضبه.

- وأنا قلت لك ألف مرة، إنى أحتقر الهواية التى لا أكسب منها شيئا، ألا تدرى إن رأيتكم وأنتم تتناقشون بذلك الصخب من أجل مباراة فى كرة القدم تثير فى الرغبة فى الانتحار..

فهتف فتحى.

- ليتك تحقق هذه الرغبة..

فضج الأصدقاء ضاحكين فى حين واصل سمير هجومه ولم يزايله الغضب، وكان كلما وجه حديثه إلى أحدهم أشار إليه بسبابته ومال عليه، وكان هو واقفا وأصدقاؤه جلوس، فبدا كممثل عبقرى فى لقطة درامية، وكان صراخه قد لفت إليهم الأنظار، فتوقف رواد المقهى عن لعب الورق وتعلقت به العيون فى فضول..

قال سمير:

- أتضحكون عنى... أنتم تضحكون منى أنا.. كمشة من المغفلين، هذا

الفتحى مثلا، يبذر كل نقوده فى لعب جميع أنواع المقامرة، ظنا منه أنه ذات يوم سيكسب ثروة..

فقال له فتحى فى هدوء:

- إنها نقودى أبذرها فى ما أشاء...

فتركه سمير وأشار إلى محمود قائلا:

- وهذا الأحمق يتحدث عن النادى الأفريقى كأنها أمه الحنون..

وهنا ضج طارق ضاحكا، فاستدار إليه سمير قائلا:

- وأنت، أنت يا سيدى، يا سيد المغفلين، ماذا تفعل بشبابك؟ هذا الشاب الأبله، أتعرفون ماذا يفعل يوم عطلته، إنه طول أيام الأسبوع يقضيه فى دكان قذر يبيع الطماطم ويوم عطلته، يذهب للبحر ليراقب السفن وهى تعبر ويكتب كلاما سخيفا يسميه شعرا.. وهو يتصور أنه بهذه الطريقة سيصبح ذات يوم - لا ريب فيه - كاتبا شهيرا وثريا.. فإلى متى سأظل هنا بين هؤلاء الناس؟

ساد صمت ثقيل بين الأصدقاء وقد أدهشهم هذا الغضب المفاجئ وهذه الشتائم التى انطلقت من فم سمير فى سخرية ومرارة.. ووقف سمير مترددا بين الذهاب والجلوس.. وكان فتحى أول المتكلمين، فأشار إلى سمير قائلا:

- هل سمعتم إبليس ينهى عن المنكر؟!

ومرت موجة الغضب بسرعة وضج الأصدقاء ضاحكين وضحك معهم سمير، وجلس وهو يقول:

- كيف كنت؟

فقال له طارق:

- كان كلامك سيثير فينا شيئا ما، لو صدر عن شخص آخر..
- لماذا؟ ألا أثر فيكم شيء؟
- إنك ممثل بارع، ولكن حقيقتك معلومة للجميع وهى حقيقة أسوأ مما تتخيل..
- ولكنى قلت الحقيقة.
- ربما، ولكن حقيقتك أنت أسوأ منا، فلماذا تنتقدنا؟

فتدخل محمود قائلا:
- لنغير الحديث أرجوكم..

فقال فتحى:
- حسنا قلت، وتغيرا للجو سأقرأ عليكم آخر قصيدة كتبها طارق.

فاعترض سمير قائلا:
- لا، لا أوافق..
- إذن سد أذنيك حتى أنتهى من القراءة..

- فكرة رائعة، هذا ما سأفعل..
- وراح فتحى يقرأ بصوت مرتفع، قصيدة طارق، طريق الريح.

فى طريق الصحراء والريح...
أسافر بلا أمل..
بلا قلب... بلا دم...
خطواتى على الرمال.
ليس لها أثر....
فى طريق الصحراء والسراب

مسافر بلا ماء.. بلا زاد...
بين ضلوعى، أحمل حريق...
وفى عينايا، بقايا بريق..
أستدل بها على الطريق..
مسافر وحيد..
لبلد بعيد..
ليس فيه، سادة ولا عبيد..

ولما أنهى فتحى قراءة القصيدة، التفت لطارق قائلا:
- حقا، لقد بدأت تكسب اللغة..

فهتف سمير ساخرا.
- هنيئا لك بهذا الكسب العظيم.. ولكن من المدهش أنك لا تكسب إلا الكسب اللغوى والكسب الفكرى والكسب الأدبى أى أنك لا تكسب إلا الأشياء التافهة...

- ومن أين لجاهل مثلك، أن يعرف قيمة هذه الأشياء؟

فهتف سمير فى تحدٍّ.
- إذا كان هذا هو العلم، فالحمد لله الذى خلقنى جاهلا...

وتدخل طاهر قائلا:
- سبحان الله، لأول مرة أسمع إنسانا يحمد الله لسبب كهذا.. ثم إن الله خلقك كما خلق كل الناس، ولم يخلقك جاهلا.. إنك أنت الذى جهلت...

فنظر إليه سمير بغرابة، وكأنه يكتشف فجأة وجود طاهر بينهم، وسأله - ساخرا، كعادته.

- هل الشعر حرام، يا حاج طاهر؟
- لا أعرف...
- والخمر؟
- طبعا حرام، هل تشك فى هذا؟
- والبيرة...
- والبيرة أيضا..

فقال سمير:

- دلنى على آية واحدة فى القرآن، تقول إن البيرة حرام شربها..

وكان لسمير اعتقاد غريب - اخترعه بنفسه - يقول: إن البيرة ليست حراما شربها، لأنها غير مسكرة - كما يعتقد.. ولأنها اكتشفت بعد نزول القرآن ووفاة الرسول - كما يتصور.. وكان الأصدقاء يعلمون هذا الرأى الغريب لسمير - وهو رأى تبريرى.. وضعه سمير لنفسه..

ولهذا ضج الأصدقاء ضاحكين، إلا طاهر الذى صدم وكانت تلك أول مرة يسمع فيها هذا الرأى الغريب وقال لسمير غاضبا:

- لا تتحدث عن القرآن وأنت سكران.

- ولكنى لست سكران.

- إذن، لا تتحدث فى الدين عن جهل..

- إنى لا أتحدث فى الدين، إنما أسألك أيها العالم..

- لست مستعدا أن أتحدث فى مثل هذا الموضوع مع مخلوق مثلك..

فقلب سمير نظره بين أصدقائه قائلا:

- أراهن أن صديقنا طاهر، يعتبرنى أكبر كافر فى الوجود، و..

وقاطعه طاهر.

وهل تشك فى كفرك ؟

فقال سمير :

- اسمع، أراهن أن صديقنا طاهر، بعد سنوات قليلة ستجدونه وقد أصبح واحدًا من هؤلاء البله الملتحين، الذين يحدثونك عن الجنة وكأنهم متأكدون من ذهابهم إليها بلا شك.. هؤلاء البله الذين يحدثونك عن الإسلام وكأنك أعظم كافر يلتقونه.

وإذا رفض التصرف مثلهم، تحاشوك وكأنك الشيطان نفسه.

فقال له فتحى فى سخرية :

- ولكنى يا سمير، أعتقد لو أنك ولدت قبل الإسلام لكنت صديقًا حميمًا لأبى جهل.

وأمام دهشة الجميع هتف سمير.

ذاك كان زمنا وتلك كانت حياة..

فضج الأصدقاء ضاحكين وواصل سمير موضحا.

- صحيح، فى ذلك الزمن كان بإمكان المرء أن يحصل على ما يشاء بقوة السيف.. وكان الأقوياء هم الذين يحكمون وليس الخبثاء كما يحصل الآن.. والجوارى فى كل مكان فى متناول الجميع.. أما الآن فإن الزواج نفسه

مستحيل. أما إذا تزوجت ومللتها وأردت التخلص منها.. قالوا لك وحقوق المرأة.. فأى زمن نعيش ؟

وهتف طارق ضاحكا ؟

- فى ذلك الزمن، كان الشعر موجودًا أيضا.

- صحيح، ولكنه كان شعرًا حقيقيا ليس كشعركم الحديث هذا، على كل حال كان شعرًا.

قلت لك ، كان شعرهم شيئا آخر مختلفًا وظروفهم كانت تسمح لهم بكتابة الشعر، أما هذه الظروف التى نعيش فهى لاتشجع على شىء من هذا القبيل ثم ما هذا الشعر الذى تكتب، مسافر وحيد، لبلد بعيد، ليس فيه سادة ولا عبيد.. دلنى عن بلد ليس فيه سادة ولاعبيد.. كل بلدان الدنيا فيها سادة وعبيد، وأنت أمام اختياران لا ثالث لهما، إما أن تكون من السادة أو من العبيد - وهذا يطبق على الدول أيضا - فهناك دول سادة ودول عبيد..

ونحن هنا كأفراد ننتمى إلى طبقة العبيد، والشىء الذى يخلصنا من عبوديتنا هو المال، المال فقط.. لا الشعر ولا كرة القدم ولا التمسك بقناعة كاذبة.. والتظاهر بالرضا.

فقال له طارق :

- لنفرض أنك قلت الحقيقة - التى على أى حال تناقش.

ولكن ماهو الحل الذى تقدمه ؟

فقال سمير :

- الحل ببساطة، هو أن نكف عن الأحاديث الفارغة وأن نتوقف عن الثرثرة عن الكرة والشعر والسياسة إلخ..

ثم أشار إشارة عامة لرواد المقهى قائلا :

- انظر لهم.. انظر هؤلاء الشيوخ البله، وهؤلاء الشباب الضائعين، إنهم لا يشتغلون ولا يكادون يأكلون. وحتى الذين يعملون،فهم يقومون بأعمال تافهة لا مستقبل لها.. إنهم بلا مال ولاثقافة ولا مستقبل.. وبرغم هذا يجدون الوقت للحديث عن الأفريقى والنجم والترجى.. إن مستقبلهم لا يقلقهم، ولكن هزيمة للنادى الصفاقسى تثير قلقهم وتصريح للرئيس الأمريكى يلفت انتباههم.. فلماذا تريد منى أن أشغل نفسى بالتفكير فى مصير هؤلاء الناس.. فقال طارق :

- إنك هنا، تشتم وتنتقد، ونحن بحاجة لحلول وليس لشتائم.

فقال سمير وقد خفت حدته :

- إذا حل كل إنسان مشاكله الشخصية، ستحل كل المشاكل

- قل لنا كيف يحلون مشاكلهم.. فمعظم هؤلاء يعانون من نفس المشكلة.. وهى البطالة.. ولا يوجد عمل هنا .. فكيف يحلون هذه المشكلة.

- عليهم أن يتصرفوا..

- كيف ؟

فقال سمير بضيق :

- قلت لك على كل إنسان أن يجد حلا لمشاكله..

- ولكن هناك مشاكل عامة، لايستطيع الفرد أن يحلها.

أنا لا تعنينى تلك المشاكل العامة، لا تهمنى إلا مشاكلى الخاصة.. أريد أن أعيش..

كان سمير يتكلم وفى لهجته كثير من التذمر والتشكى ولهذا هاجمه طارق منشدًا قصيدة السباب، كم تشتكى

كم تشتكى وتقول إنك معدوم
والأرض ملكك والسماء والنجوم
ولك الحقول وزهورها وأريجها
ونسيمها والبلبل المترنم

وضج الأصدقاء ضاحكين ولم يفاجئوا، فقد عودهم طارق على تدخلاته الشعرية، وكانوا يجدون فيها شيئا لطيفا مسليا.

وكف سمير عن الضحك قائلا :

- إذن هذه هى الحياة، كما تتصور.. نسيمها وأريجها وبلبل مترنم.. أى أشياءها التافهة فقط.

فقال طارق :

- وما الحياة إذن ؟

فهمهم سمير واستقام فى جلسته واستبد به الحماس لإعطاء درس فى الحياة، لأصدقائه وقال :

- الحياة هى جو.. سهر.. مال.. رحلات.. ما الحياة إذا لم ننتقل بين

أرجائها وليس أريجها كما تقول.. باريس لندن القاهرة.. إسبانيا.. خصوصا إسبانيا.. رأيتها مرة فى فيلم وكانت رائعة، حقا رائعة.. هذه هى الحياة التى أرغب فيها، وهناك كثيرون يعيشون هكذا.. ولكن من أين لأغبياء أمثالكم أن يعرفوا ويحسوا ويفهموا.. انكم تجهلون حتى وطنكم.. هل تعرفون جربة أو سوسة أو حتى الحمامات ونابل.

- وأنت ماذا تعرف من كل ما ذكرت ؟

فهاجمه سمير قائلا :

- أنا لم أحدثكم عن نفسى، إنما حدثتكم عن مفهوم الحياة حسب وجهة نظرى، أى الحياة الحقيقية كما أراها وهى بعيدة جدا عن الحياة التى نحيا..

فقال له فتحى :

- الحمد لله أننا لا نفكر كلنا مثلك، وإلا قضينا بقية حياتنا فى إسبانيا.

فحدجه سمير بنظرة حادة متسائلا :

- ماذا تعنى ؟

فقال فتحى وكأنه جاد :

- أعنى ما قلت .. ألا تعلم أنه فى إسبانيا كانت تدور حرب أهلية.. وإذا ذهبنا إلى هناك، ربما تندلع من جديد ويقتلونك..

فرد سمير ساخرا قائلا :

- تموت وأنت فى إسبانيا، خير لك من أن تقضى حياتك كلها فى هذه المقهى القذرة.

وضج الأصدقاء ضاحكين ثم تدخل محمود قائلا :

- يكفى فلسفة هذا المساء وهلموا إلى حديث الورق. ثم هتف وكأنه يطلب النجدة.

- يا عصفور الورق والقهاوى بسرعة.

وشرع الأصدقاء فى لعب الورق.

* * *

بعد سنتين

www.books4all.net

ذات مساء ربيعى وفى تمام الخامسة، جلس طارق أمام باب مقهى النور، يدخن سجارة ويرشف رشفات خفيفة من كأس ملأه بالقهوة السوداء - التى أدمنها فى المدة الأخيرة - برغم وعيه التام بالضرر الذى تلحقه القهوة بجسده النحيل الشاحب، وكان قد مشط شعره بعناية وارتدى سروالا أسود وقميصا أبيض وجاكتة سوداء هى الأخرى. وقبع هناك مطرقا مفكرا، وبين الفينة والأخرى كان يلقى بنظرة إلى أعماق الشارع الذى يربط بين المقهى والحى.. وبدا واضحا أنه ينتظر شخصا ما..

ولما طال انتظاره فى مابدا من حركاته ومراقبته لعقارب الساعة، راح يحدث نفسه بصوت خافت متسائلا.

ما بالها أصبحت تتأخر تلك المدة.. هل تتعمد ذلك. لا، لا يمكن أن ينسى كيف تركته ينتظر الأسبوع الماضى أكثر من ساعتين.. ولما التقيا، لم تعتذر عن تأخرها ولم يجرؤ هو على سؤالها عن سبب تأخرها.. والأدهى من ذلك، أنها لم تعد تمكث معه أكثر من نصف ساعة تقضيها صامتة.. كان هو يقوم بدور المتحدث وهى بدور المستمع، وكأنها تقوم بواجب ممل.. ولكن ما معنى هذا ؟ ما معنى هذا التغير ؟ ماذا حدث فى المدة الأخيرة ؟

هل تفعل كل هذا للإسراع فى خطبتها.. وكان هذا هو الأمل الأخير الذى بقى أمام طارق والشىء الوحيد الذى يمكن أن يفسر به طارق هذا التغير الذى حدث من طرف حبيبته تجاهه.. ولهذا عندما وصل إليه ارتاح له وتشبث به وأقنع نفسه بأنه السبب الحقيقى والوحيد الممكن.

وخفق قلبه بشدة عند ما لمح شبح سامية بنت العم سليمان وشقيقة محمود لمحها آتية من الحى.. كانت سامية فتاة فى الثامنة عشرة ولكن من يراها لأول مرة يظن أنها تجاوزت العشرين، فكانت طويلة القامة باهرة الطلعة، سمراء ذات وجه مشرق لاخدوش ولا مساحيق فيه ولمعت عيناها ببريق الشباب والنظرة وأرسلت شعرها الطويل الناعم وراء ظهرها بحرية. وارتدت فستانا أخضر زاهيا وراحت تخترق الشارع بخطوات متزنة هادئة، كلها ثقة فى النفس واعتداد بها. وراقبها طارق وهى تمر أمامه كالمسحور.. وتركها تبتعد عن المقهى وتدخل نهج سيدى بو سعيد - الذى تقع فى آخره المحطة - ثم لحق بها عند منتصف النهج واقترب منها قائلا فى تودد :

- مساء الخير يا سامية..

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :

- مساء الخير، ماذا تريد ؟

فصدم طارق لهذا السؤال الذى وجده غريبا.. ولكنه تجاهله وقال :

- اسمعى يا سامية عندى شىء هام أريد أن أقوله لك.. فواصلت سيرها وقالت بلا اهتمام جدى :

- قل ..

- ليس هنا..

- أين إذن..

- فى حديقة الحيوان..

- كلا، سوف لن أمكث كثيرا، فقد قلت لأمى إننى ذاهبة عند صديقة فى الحى الجديد.. ولهذا لن أمكث كثيرا.

وصدم طارق مرة أخرى، خصوصا وهو يعلم أن لها الحرية التامة فى البيت، تدخل وتخرج متى شاءت وفى أحيان كثيرة - فى الماضى - كانت هى التى تلح عليه أن يأخذها إلى الحديقة.. ثم هى معه منذ سنتين فلماذا أصبحت تخشى أمها إلا فى المدة الأخيرة. وعاد يلقى على نفسه - السؤال الذى شغله - وهو ماذا حدث لها؟.. قال لها طارق برجاء:

- أعدك أننا سوف لن نتأخر.. أقول لك ما أريد قوله ثم نعود..

فقالت وقد ثار فضولها النسائى لسماع شيئه الهام الذى يرغب فى قوله لها..

- حسنا سأذهب معك ولكن السادسة يجب أن أكون فى البيت...

- اتفقنا... وافترقا لركوب القطار خوفا من العيون المتطفلة وراح طارق يرمقها من مكانه، محاولا العثور فى وجهها وحركاتها عن شىء ينبئه عن سبب هذا التغير الذى طرأ فجأة على معاملتها له.. فمنذ أشهر قليلة كان هو صنمها المعبود وكان لقاء مساء الأحد هو الشىء الوحيد الذى تنتظره طول الأسبوع... فماذا حدث؟ ولكن مظهرها لم يوح له بشىء، فقد بدت كما عهدها، فتاة فى عز الشباب والنضارة.. سمراء باهرة الجمال.. غامضة فى سحر.. هادئة كالسكون الذى يسبق العاصفة.. وأكد لنفسه، أنه اليوم يجب أن يعرف كل شىء.. أجل هذا المساء سأقامر بالأمل الأخير.. فخمسة أسابيع من الحيرة تكفى أى إنسان....

سارا فى حديقة الحيوان، بضاحية بالفدار الفخمة سارا اليد فى اليد وكان

المساء باردا ولم تكن الحديقة مكتظة، ليس هناك إلا مجموعة من العشاق تناثروا فى الحديقة الكبيرة يتهامسون... راقبها طارق وهى تسير بجانبه، مطرقة مفكرة.. وبدا واضحا أنها - هى أيضا - تسيطر عليها فكرة ما وتجد صعوبة فى البوح بها.. وأدهشه أنها غير مستعجلة فى سماع (الشىء الهام الذى جاء من أجله) وأحس لأول مرة، أن سامية بعيدة عنه بأفكارها أكثر مما كان يتصور.. وتساءل، أين هذا اللقاء من اللقاءات الماضية؟

أما هى فراحت تقرأ أسماء الحيوانات بلا اكتراث لنظرات طارق الهائمة إليها.. متجاهلة ضغطات يده على يدها.. غير متلهفة على سماع الشىء الهام الذى وعدها به... وعاد طارق يقول لنفسه.. أين هذا اللقاء من اللقاءات الماضية.. كم يبدو ذلك بعيدا الآن.. كأنه لم يكن بينهما حب قط... ولكنه أصر على البوح بالشىء الهام الذى جاء من أجله.. لعلها تخرج عن برودها تجاهه.. فتنحنح، معلنا بداية الحديث قائلا:

- إلى متى سنبقى نلتقى دون علم أهلنا؟

فتمتمت فى برود.

- حقا إلى متى... فتجاهل طارق برودها وواصل...

- ولهذا قررت.

ثم صمت.. منتظرا أن تحثه على الكلام، ولكنها لم تفعل فواصل.

- ولهذا قررت أن أتقدم لخطبتك.. رمقته بنظرة حادة، أفزعته، وهتفت.

- مستحيل..

ذهل طارق لإجابتها ولسحبها العنيف ليدها من يده وتمتم مصدوما.

- مستحيل...

فألقت إليه بنظرة جانبية فإذا هو شاحب الوجه تماما، ذاهل النظرات، كمن تلقى طعنة فى القلب.. فرق قلبها لحالته البائسة، وقالت بشىء من الرقة.. ولكنها حافظت على حزمها.

- مستحيل الآن..

- لماذا؟ فتحرك رأسها فى حيرة، ثم قالت:

- مستحيل قبل أن تحقق شروط أمى... بدا الرعب فى عينى طارق وهتف.

- شروط أمك.. شروط أمك لا أحد يستطيع تحقيقها.. خصوصا أنا.. وأنت نفسك كنت ضدها، فماذا حدث الآن؟. ماذا تغير؟ فراحت تقول باندفاع ظاهر:

- أنت تعلم أن أمى تسيطر على البيت وكلمتها لا تناقش وهى إذا طلبت شيئا لابد من تحقيقه.. فقال طارق بمرارة:

- أمك تريد فيلا وسيارة وذهبا وفضة.. حتى لو سرقت بنكا لا أستطيع تحقيق ما تريد..

- ولكنها هى الكل فى البيت.. ولو تقدمت لخطبتى الآن سترفضك.. بل ستمنعنى من لقائك وربما من الخروج أصلا..

امتقع وجه طارق لما سمع هذا الكلام الكاذب من سامية وأفزعته الطريقة التى كانت تتكلم بها سامية، فقد كانت تتحدث وكأن الأمر لا يعنيها، بل هى مشكلة بين أمها وطارق ولا شأن لها بهذه المشكلة.. أخرست الصدمة طارق ولم يجد ما يقول.. ولما رأته على تلك الحال من التعاسة، رق قلبها لحاله وقالت محاولة إحياء الأمل فى نفس طارق الكئيبة..

- على كل حال لانزال صغارا يا طارق وأمامنا عمر طويل.

فأحس طارق بالغضب يتصاعد داخله وانفجر قائلا:

- لانزال صغارا يا طارق.. ولكننى أذكر يوما كنت أنت التى تلحين على أن أتقدم لخطبتك، قلت لى يومها إنك مستعدة أن تتزوجينى بلا ضجيج.. بلا حفل ولا شروط فماذا حدث الآن حتى أصبحت شروط أمك شيئا مقدسا..

فألقت عليه سامية بنظرة نارية - لم يرها فى عينيها من قبل قط - وبدا على وجهها تصميم من عزم على بيع صفقة ما - ولما رأى طارق تلك النظرة وذلك العزم فى عينيها، تراجع إلى الوراء بحركة تلقائية وكأنه يتفادى ما ستقول.. وظلت هى لحظات تسدد نحوه تلك النظرة اللامعة المتحدية... ثم، ولسبب مجهول تراجعت عما بدت أنها ستقول.. وخمد البريق الغريب فى عينيها وقالت:

- الآن غيرت رأيى فى شروط أمى..

- لماذا؟

فصاحت:

- لأنى الآن كبرت.. وبدأت أفهم الحياة.. فعندما قلت لك ذلك الكلام كان عمرى ست عشرة سنة فقط.. فتمتم طارق ولم يزايله الذهول.

- كنت أظن.. كنت أعتقد.. ولم يجرؤ على إكمال جملته، فقد كان يظن أنها منذ مدة تنتظر هذا التصريح.. والغريب أنها طالبته فى الماضى كثيرا بالتقدم لخطبته وكان هو يتردد.. وعاد يتمتم.

- كنت أظن... كنت أظن أنك تحبيننى و.. وقاطعته صارخة.

- ليس للحب دخل فى الزواج.. فازدادت دهشته وقال:

- ليس للحب دخل فى الزواج.. إذن لماذا يتزوجون الناس.. لأنهم لا يحبون..

فقالت بلهجتها الجديدة الحادة، التى لم يسمعها قبل اليوم قط.

- أعنى أن الزواج، مسئولية مادية قبل أى شىء آخر...

- إذا كان هذا صحيحا، فكيف يتزوج الفقراء إذن؟.. فصرخت.

- أنا لا أريد أن أتزوج كما يتزوج الفقراء.. إنى أكره الفقر ولا أحب عيشة الفقراء.. هل تفهم.. إذا أردت أن نتزوج يوما ما.. قبل فوات الأوان.. فعليك أن تحقق شروط أمى.. وساد الصمت بينهما وانتظرت أن يعلق بشىء على قولها، ولكن الصدمة أخرسته، فلم يكن هذا هو الكلام الذى جاء ليسمعه من حبيبته، بعد أن عبر لها عن رغبته فى التقدم لخطبتها.. كان يتوقع أن تطير فرحا بهذا النبأ.. ولما طال صمته اقترحت عليه العودة إلى الحى.. وفى الطريق قال لها بحزن:

- سامية، لقد تغيرت.. تغيرت كثيرا فى أسابيع قليلة.. فهل سمعت عنى شيئا أغضبك.. هل فعلت شيئا أساء إليك؟

فألقت إليه بنظرة جانبية.. تقول.. يالك من مغفل.. وقالت فى سخرية وجدها مدهشة.. ككل شىء فيها هذا المساء التاريخى:

- لا يا سيدى.. لا. أطمئن من هذه الناحية.. فأنا لم أسمع عنك إلا أنك كتبت قصيدة أو قصة أو شيئا سخيفًا من هذه القبيل.. ولم تفعل شيئا آخر إطلاقا... ثم أضافت بحدة.

- وتلك هى مشكلتك..

فتساءل:

- وماذا تنتظرين منى أن أفعل؟

فصرخت بحنق.

- ماذا أنتظر.. لقد انتظرت وطال انتظارى.. منذ سنتين ونحن نخرج معا... فماذا فعلت؟

فعاد يتساءل ببلادة.

- وماذا تريدين منى أن أفعل؟

فواصلت بحدة

- أريدك أن تكف عن كتابة الشعر، أن تكف عن شراء الكتب وإضاعة الوقت.. أريدك أن تغير عملك.. أن تكسب نقودا.. أن تكسب كثيرا من النقود.. أن تخرجنى من ذلك الحى القذر من تلك الحياة التعيسة.. هذا ما أريده فهل أنت قادر عليه.. أم أنك تنتظر حتى تصبح شاعرًا شهيرًا... فقال لها بضيق:

- قولى لى كيف أكسب مالا وفيرا؟

- قل، لى كيف يكسب الآخرون..

- لا أعرف..

- هذه مشكلتك....

- سامية هل هذا هو سبب تغيرك؟ هل هذا ما تريدين من مال وفير؟

- هل هذا سبب غير كاف؟

- لا أظن، فأنت تعلمين منذ البداية من أنا وما أملك. فلماذا لم يخرج

هذا الكلام الآن فقط.

- لأننى الآن كبرت.. نعم كبرت..

* * *

وفى طريقه للمقهى راح يستعيد هذا الحوار الصاخب خصوصا من جانبها.. وحاول أن يفهم سبب هذا التغير لكنه لم يجد فى ما قالته ما يبرر هذا التغير السريع العنيف.. فمن يصدق أنه منذ أيام قليلة كان هو - ولا أحد غيره - صنمها المعبود وأملها المنشود.. وعاد يتساءل مرة أخرى، ماذا حدث؟ مضى إلى المقهى مهموما داهشا لهذه المعاملة الساخرة التى راح يتعرض لها من حبيبته.. وأدهشه أنها راحت تسخر من أشعاره - التى طالما ألهمته كثيرا منها - وعبرت - فى الماضى عن إعجابها الشديد بما يكتب - هى الآن راحت تطالبه بأن يكف عن كتابة هذه السخافات... ويتفرغ لكسب المال.. المال.. المال وكما تعود أن يفعل فى المدة الأخيرة هروبا من حاضره التعيس.. راح يستعيد ذكرياته الماضية معها.. يستعيدها بدهشة وانبهار.. وكأنها أحلام قديمة.. ويذكر خصوصا كيف التقيا مصادفة ذات مساء، كان عائدا من العمل يومها وكان سعيدا.. ربما لأنه نشروا له قصيدة أو قصة قصيرة أو لأى سبب آخر.. ولكنه كان سعيدا.. كان مبتهجا.. يمشى بخطواته السريعة متحاشيا المستنقعات الكبيرة.. قافزا الصغيرة.. خائفا على ثيابه من الأوحال..

وبينما هو يقفز أحد المستنقعات.. إذا فتاة تخرج من بيت محمود حاملة سطلا مملوءا ماء وسخا وسكبته بعنف فى النهج الضيق وصادف أن كان هو مارا فى تلك اللحظة بالذات، فانسكب شىء من الماء القذر على ثيابه.. والتفت ليوبخ الفتاة، وسبقته هى قائلة:

- معذرة يا طارق..

ولما وقع بصره عليها وجد نفسه أمام فتاة بارعة الجمال تأمل بدهشة القامة الرشيقة والوجه الأسمر الجميل والعينين السوداوين الباسمتين والشعر الأسود الناعم الطويل. وتساءل بدهشة.

- ولكن من أنت؟

فضجت الفتاة ضاحكة وقالت:

- ماذا.. ألا تعرف من أنا؟ فعقد طارق حاجبيه تفكيرا ودهشة قائلا:

- دعينى أتذكر.. أحقا أنت، تلك الطفلة سامية التى كانت تجرى فى هذا الحى حافية القدمين مغبرة...

فضجت سامية ضاحكة مرة أخرى وقالت:

- نعم، أنا هى تلك الطفلة...

- حقا أنت سامية إذا، يا للسرعة التى بها كبرت...

فتساءلت.

- ألحظت ذلك؟

وأحس أن فى جملتها شيئا من العتاب، وكأنها تقول له كيف لم تلاحظ هذا قبل اليوم...

وقال لها:

- حقا كيف لم ألحظ هذا قبل اليوم..

فرفعت حاجبيها قائلة:

- على كل حال أتمنى أن تكون لحظته الآن..

وودعته ودخلت بيتها وهتف هو قائلا:

- دون شك....

وواصل طارق طريقه إلى بيتهم ولكن صورتها صاحبته.. وراح يقول لنفسه كم هى جميلة... كم جمالها باهر... وفى الليل قبل أن ينام كانت صورتها آخر شىء يراه..

وفى الصباح عندما استيقظ كانت صورتها فى انتظاره.. وبدت تنمو بداخله رغبة.. وجدها فى الأول شاذة.. رغبة جامحة فى أن يراها مرة أخرى.. وبدا له أن مجرد رؤيتها ولو من بعيد هى غايته فى الوجود... وأحس بمزيج من الرهبة والمتعة والخوف، أنها تأسره.. إن شيئا غامضا منها راح ينازعه عواطفه وقلبه ثم وقته... فقد راح فى المدة الأخيرة يتعمد الوقوف أمام عتبة باب بيتهم متظاهرا بإصلاح كرسى خشبى قديم أو بتنظيف الباب وأحيانا كان يداوم النظر إلى ساعته، متظاهرا بأنه ينتظر شخصا ما أتى للقائه هناك.. وكانت هى أول من أدرك سبب وقوفه أمام العتبة وكانت إذا خرجت لا تبخل عليه بابتسامة ساحرة، فتغمر السعادة قلب طارق الفتى... وكان يشعر أن الوقوف أمام العتبة كل مساء لا يمكن أن يستمر إلى مالا نهاية دون أن يثير القيل والقال.. وبحث عن الخطوة الثانية التى عليه اتباعها ولم يجد أمامه شيئا غير الكتابة، الشىء الوحيد الذى يجيده... وبجرأة لا يدرى من أين أتته، خط لها رسالة مؤثرة، وهى غير مصدقة أنه هو طارق بن يوسف الجار الطيب ابن الناس الطيبين يكتب رسالة غرام لبنت الجيران.. وأخت أحد أعز أصدقائه المقربين ويطالبها بلقاء... ولكنه كان عزاؤه أنه ومنذ البداية كان قصده تجاهها شريفا.. كما كتب لها...

وقضى يومين ينتظر الرد خائفا أن تكشف سامية أمر الرسالة لمحمود

فتكون الكارثة حقا...

ولكن رد عليها برسالة أكثر جرأة من رسالته وعبرت له عن استعدادها للقائه، بل حددت الموعد والمكان يوم الأحد الساعة الثالثة أمام حديقة الحيوان.. وطار طارق فرحا بهذا الموعد الذى تحول فى المدة الأخيرة إلى مسألة حياة أو موت... وأدهشه أن فتاة كسامية نشأت وترعرعت فى حيه ولم تكن فى الماضى بالنسبة له أى شىء محدد كل ما يعرف عنها أنها شقيقة محمود.. وجارة كعشرات الجارات الأخريات وأدهشه أن نفس هذه الفتاة، تحولت وبسرعة عجيبة إلى كل شىء فى حياته تقريبا.. لم يعد شىء يشغل باله.. كما تشغله هى، كل بسمة منها كل نظرة من عينيها تمنحه سعادة غامرة لا عهد له بها... ومن هناك راح طارق يتساءل بفضول.. إذا كان هذا هو الحب..

وتم اللقاء الأول بينهما فى حديقة الحيوان ببلفدار يومها تجولا، جانبا إلى جانب وتحادثا فى مواضيع بسيطة عادية... ولكن كم كان رائعا الحديث معها.. كل كلمة قالتها، كانت مدهشة وكان طارق سعيدا بوجودها بقربه لدرجة لا تصدق، ولم يأكل فى حياته كلها شيئا أحلى من السندوتشات الصغيرة التى تناولها وهما مستلقيان على الأعشاب الخضراء المبللة بالندى.. كان كل شىء فى الحديقة يومها مدهشا ورائعا وجديدا، وكأن طارق يكتشف المكان لأول مرة فى حياته...

ولما انتهى الموعد وافترقا على أمل اللقاء الأحد القادم فى نفس المكان الساحر، فإن سعادة لا وصف لها غمرت قلب طارق الفتى وجعلته يجرى فى الشوارع ويتعلق بأغصان الأشجار، ويقذف بقدميه الأحجار.. وكأنه رجع سنوات إلى الوراء، إلى الطفولة..

أجل كان يومها سعيدا كطفل...

تنهد طارق بحسرة وقال لنفسه، أجل كانت تلك أحلى الأيام... أيام الحب الأولى... ومرة أخرى كرر نفس السؤال الذى شغله خلال الأسابيع الماضية... ماذا حدث لها ماذا؟.

ولم يطل به الجلوس وحيدا فى المقهى، ففى تمام السابعة أقبل فتحى، أقبل يترنم بموال شعبى كان مشهورا فى تلك الأيام، وراح فتحى يغنى مطلع الموال بصوت مرتفع، عذب وحزين:

يا روح سلم على الروح..
أو بلغها سلامى...
أجر إلى كالطير المذبوح
على النار تشوت عظامى..

وانهالت التحيات والاستحسان على فتحى من الشيوخ والشباب..

مضى فتحى وجلس مواجها لصديقه، ولما رأى علامات الحيرة والحزن، بادية على ملامح طارق، قال له مداعبا.

- ولكنك شاعر يا صديقى وتعلم جيدا أن الحب ليس سعادة خالدة.. وقد قلت لك من البداية، لا تندفع ولا...

وقاطعه طارق محتجا فى ضيق.

- لماذا تحدثنى فى الحب؟

- لأن هو سبب هذا الحزن والتعب.

وعاد طارق يقاطعه فى احتجاج متأجج..

- أنا لا أحب أحدا... ولا أريد أن أتحدث فى هذا الموضوع مع أحد.. هل تفهم؟.

فصمت فتحى ولم يصمت طارق وواصل يقول:

- ما شأنك أنت بمن يحب ومن يكره...

وكان طارق يعلم، أن فتحى يعرف كل شىء عن علاقته بسامية - كما يعرف كثيرون - بطريقة جعلته يعتقد أن سامية نفسها روجت لهذه العلاقة فى الحى فى الأيام الأولى لحبهما.. أما الآن أه... وحتى محمود سمع شيئا عن هذه العلاقة، ولكنه تجاهلها، لثقته الكبيرة فى شقيقته وصديقه وكان يعتبرهما فى حكم الخطيبين ولكن طارق لم يتحدث قط عن هذه العلاقة مع أى شخص آخر.. وكان الشىء الوحيد الذى رفض الخوض فيه مع أصدقائه، برغم إلحاح فتحى وتلميحات سمير..

قال فتحى مغيرا الحديث:

- هل سمعت التصريح الأخير الذى أدلى به السيد الحبيب عاشور لجريدة الرأى...

وكان طارق يعلم أن السيد الحبيب عاشور هو رئيس الاتحاد العام التونسى للشغل وجريدة الرأى هى الجريدة الناطقة باسم الاتحاد.

وكان الاتحاد فى تلك الأيام قد بدأ يلعب دورا هاما فى الحياة السياسية والاجتماعية فى تونس...

ولكن طارق كان فى تلك الفترة مشغولا بحبيبته وبهجرها له... فلم يسمع بهذا التصريح الأخير ولم يهتم للإضرابات الأخيرة التى وقعت فى البلاد وتساءل بلا اهتمام حقيقى.

- وماذا قال؟.

وبدا كأن فتحى كان ينتظر هذا السؤال، فما أن سمع صديقه يلقيه عليه حتى اندفع يروى ما قاله السيد الحبيب عاشور بالتفصيل وبحماس عظيم غير متوقع من شاب مثله... وراح يتحدث وكأنه كان حاضرا أثناء الإدلاء بهذا التصريح...

واستمع له طارق بنصف انتباه ونصف دهشة...

ولما دخل المقهى سمير ومحمود فإن فتحى كف فجأة عن الحديث فى هذا الموضوع...

واكتمل المجلس فى المقهى، بعد أن لحق بهم طاهر إثر صلاة العشاء.. وكالعادة أتاهم العصفور بالقهاوى وورق اللعب، واستعدوا للعب ولكن سمير انحنى إلى المائدة هامسا.

- من منكم يشترى ساعة.. ساعة ذهبية...

فتساءل فتحى.

- ولكن من أين أتتك هذه الساعة؟

فقال له سمير بغضب:

- وما شأنك أنت، إنى أريد بيعها فهل تشترى أم لا.. وكان طارق يعلم مصدر هذه الساعة وساعات أخرى... وخواتم وأشياء أخرى.. فقد واصل سمير هوايته الجديدة فى السطو على السكارى وكان يشترط فى الضحية أن يكون رجلا تجاوز الخمسين نحيلا سكران طبعا.. وإذا عثر على أحدهم فى إحدى الحانات ينتظره ثم يتعقبه وفى مكان مظلم ينقض عليه.. وقد أطلق على هؤلاء السكارى لقب (سى العربى) أما عمله هذا فسماه (الساعات

الإضافية) وألمدهش حقا أنه لم يجد فى فعله هذا أى حرج، بل أقنع نفسه أنه يقوم بعمل طيب وأنه يسدى عملا ممتازا للمجتمع وحاول اقناع طارق برأيه هذا قائلا:

- باقتناع تام - إن هؤلاء السكارى الذين أخذ نقودهم، ما هم إلا كمشة من المدمنين الفاسدين.. كل مالهم ينفقونه فى شرب الخمور القذرة وإذا سكر أحدهم، يعود إلى بيته فيضرب زوجته وأبناءه وحتى أباه وأمه... ويقلق راحة الجيران ويعيث فسادا فى الحى... فلماذا لا آخذ أنا هذه النقود وأنتفع بها خيرا من أن تذهب فى الحرام....

وكان رأى سمير هذا يثير فى طارق مزيجا من المشاعر المتضاربة.. إعجاب واحتقار وحسد وخوف...

وكان يقول لصديقه: إنك رجل غير عادى...

وكان هذا القول يسعد سمير كثيرا، فهو إلى جانب أنه كان متأكدا أنه رجل غير عادى، فقد كان يعتقد أن الرجل العادى هو رجل بسيط مغفل...

ألقى محمود نظرة فاحصة على الساعة وقال:
- أعطيك عشرة دنانير...

احتد سمير وهو يقول:
- أيها الأبله إن عقاريها من ذهب...

فقال محمود فى حزم:
- من ذهب أو من فضة، قلت لك عشرة دنانير...

فقال سمير:

- هات العشرة دنانير عليك اللعنة، حتى وأنت أغنى إنسان فى الحى دائما فى شرك...

فهتف محمود بفزع.

- أنا...

- نعم أنت يا صاحبى.. يقولون إن قريبك، الذى يملك شركة الألمنيوم يملك معها مالا وفيرا.. وفيلا وأشياء أخرى.. عمارات ومغازات..

فقال محمود وكأنه يدفع عن نفسه تهمة خطرة..

- ولكنه قريبنا من بعيد.. من بعيد جدا...

أخذ سمير الدنانير العشرة من يد محمود وقال بخبث.

- إذا سارت الأمور كما أتصور، فأظنه سيصبح قريبا قريبكم من قريب... من قريب جدا...

وقهقه ضاحكا... ولكن محمود غضب، غضبا عظيما وألقى إليه بنظرة محذرة...

وفى لحظات سريعة غامضة غريبة.. تصرف الأصدقاء بطريقة مدهشة لم يفهمها طارق ولكن بدا واضحا أنه الوحيد الذى لم يفهم معنى هذا الحديث...

وقال فتحى متدخلا فى الحديث:

- على كل حال، قريبا سنقضى على الفساد والاستغلال.

فقال سمير ساخرا كعادته:

- من.. أنتم، جماعة الاتحاد.. أراهن أن الحكومة ستشنقكم جميعا قبل نهاية الصيف....

فقال فتحى بحماس:

- إن الاتحاد أصبح قوة عظيمة فى البلاد ولا أحد يستطيع أن يقضى عليه بسهولة...

وبدا أن هذا الحديث أيضا لم يرق لمحمود الذى قال:

- إذا واصل اتحادكم الدعوات إلى الإضرابات المتتالية فهو سيقضى على اقتصاد البلد...

فقال له فتحى بحدة ساخرة:

- ومتى خفت على اقتصاد البلاد يا محمود..

وقال سمير متفلسفا فى خبث:

- لا يخاف إلا من عنده شىء يخاف عليه...

فقال محمود فى احتجاج:

- هل تريدون أن تقولوا إننى لا أخاف على بلدى...

فعاد سمير يقول بنفس اللهجة الساخرة المتفلسفة.

- لا، أبدا.. إننا نقول إنك تخاف على بلدك ولكن تخاف على أشياء أخرى أيضا...

وعلق فتحى على قول سمير مقهقها.

- خصوصا على الأشياء الأخرى...

وضج الأصدقاء ضاحكين، إلا طارق الذى ظل صامتا ذاهلا.. كم يبدو ذلك غريبا و لكنه حقيقة لا مفر من التسليم بها.. أصدقاء العمر كله يضحكون وأنت جالس بينهم صامتا.. غير فاهم معنى حديثهم ولا تشاركهم

فيه.. ماذا حدث لك؟.. هل فقدت عقلك أم فقدت قلبك.. أم فقدت الاثنين..

وسأله طاهر برقة بدت له غريبة.

- ما رأى الشعر فى الاتحاد؟

تطلعت إليه العيون وانتظرت الرد... ولكنه أعاد السؤال إلى طاهر قائلا:

- وما رأى الدين؟.

فقال طاهر:

- إن الدين الإسلامى ضد الاستغلال والانتهازية، ولكن أيضا ضد بعض الأفكار الإلحادية اليسارية الداعية للعنف و...

وقاطعه فتحى صائحا.

- قل لنا كيف سنتخلص من الاستغلال؟

- بالقانون...

- أى قانون يا حضرة.. إن الحكومة هى القانون والحكومة هى الأغنياء أرباب العمل...

فقال طاهر:

- لا.. لا.. لا أعنى هذا القانون.. إنما القانون الإسلامى.. الشريعة...

فصرخ فيه فتحى.

- فهمت الآن... يعنى تريد أن نتخلص من واحد يستغلنا باسم القانون وحفظ الأمن، لتستغلنا أنت وجماعتك باسم الدين والشريعة...

اختد النقاش بين فتحى وطاهر... ولكن طارق بدا وكأنه فى غيبوبة... وتساءل منهم جماعة طاهر...

ولماذا يتكلم فتحى باسم الاتحاد.. ولماذا يغضب ذكر الاتحاد محمودا.. وهذه الساعة من أين سرقها سمير.. عجبا كيف تحدث أشياء كتلك فى حيه لأصدقائه المقربين دون أن يعلم عنها شيئا.. كأنه غريب.. غريب بين أصدقائه وفى بيته وفى فراشه... أه يا سامية لو تعلمين ماذا فعل بى حبك.. كم سخر فى الماضى من الحب والمحبين.. لم يصدق قصة واحدة من عشرات قصص الحب التى قرأها.. لم يصدق أن الحب يدفع بعض الناس للانتحار... حتى جاءه الحب أخيرا لم يحل بالقلب فجأة.. إنما نما شيئا فشيئا حتى تمكن.. استولى على القلب والفكر والحواس الخمسة.. لقد وهبتك كل شىء فماذا تريدين أكثر؟.

قال فتحى فى تحدٍّ:

- قال ماركس أو لنين أو ستالين، إن الدين أفيون الشعوب...

هذا لأن ماركس أو لنين أو ستالين لم يعرف الحب... لو عرف الحب لغير رأيه.. إن الحب أيها السادة هو أفيون الشعوب والقلوب والعقول...

فتحى فى حدة.

- لم لا؟ لم لا؟ ألا تعلم أن كثيرين فى الغرب... من الرجال العظماء من المفكرين الكبار يؤمنون أن أصل الإنسان قرد..

سمير ضاحكا.

- كلنا نؤمن بأن هذا هو أصل أبيك...

ضحك...

تضحكون وأنا بينكم أتألم.. ولو علمتم سبب آلامى لازداد ضحككم وضحكتم عنى.

طاهر

– لا يهمنى سمير، فهو إنسان لا يهمه شىء غير المال.. وهل يهمكم إنسان لايهمه شىء غير الحب.. حب فتاة لم تعد تحبه.. مدهش هذا وحقيقى ومؤلم..

– سمير : يحاكى طاهرا محاكاة كركتورية.

– سمير لا يهمنى، فهو إنسان لايهمه شىء غير المال.. ثم فى غيظ.

– وكأن المال لا شىء.. المال هو كل شىء فى هذا الزمن وهو غاية كل واحد منكم والفرق، هو أن لكل واحد خطته فى الاستيلاء على الأموال – ثم أعطنى مالا أجعل منك ماتشاء.. زعيم عمالى.. مفتى الجمهورية.. شاعر كبير.. لاعب كرة.. أى شىء.. فالمال هو القوة والحرية.. والسعادة..

– ولكنهم يقولون، إن المال لا يصنع السعادة..

– هذا كلام يردده الفقراء من أمثالك.. ثم ما السعادة. فتساءل طارق بلا وعى.

– حقا ما السعادة ؟

فقال له فتحى داهشا.

– ولكنك أنت الفيلسوف هنا..

فقال طارق ساخرا من نفسه :

– السعادة هى أن تعيش مع من تحب على شرط أن يحبك من تحب.. أو أن يحب الحب.

شرط مهم جدا.

هكذا هتف سمير وواصل.

- لكى يحبك من تحب، فعليك أن تأتيه بما يحب.. وبالمال وحده بإمكانك أن تأتى بما يحب من تحب ليحب الحب ولتسعد أخيرًا بحبك.

أصبت ياصديقى كلامك هذه الليلة حقائق جديدة لا شك فيها.

فهتف طاهر.

- ولكنى أشك فى كل كلمة قالها، فإذا أحبك أى شخص فيجب أن يحبك لذاتك، أما أن يحبك لمالك فهذا نفاق واستغلال.

فقال طارق وقد أعجبه هذا القول :

- أنت أيضا أصبت..

فصرخ سمير.

- وأنت ماذا أصاب عقلك، كيف توافق على الشىء ونقيضه حقا ماذا أصاب عقلى.. ولكن ما شأنك وهذا الحوار وما علاقتك بهذه الثرثرة.. هيا يا صديقى إلى وحدتك المقدسة.. إلى العزلة فى ظلام الغرفة.. هناك ستحلو لك الآلام.. وابك إذا حلا لك البكاء.. أما بلغت بك الحماقة أقصى الدرجات فليس غريبا أنك ستأتيك الكلمات الغريبة التى تخطها على دفترك وتسميها.. ذكريات.

* * *

كان سمير عائدًا من جولة ليلية بحثا عن السكارى عاد على أثرها خائبا هذه المرة.. ولهذا بدا عابسا غاضبا، ومضى يقول لنفسه.. ما هذا

البلد.. حتى السكارى انقطعوا فيه..

وعندما بلغ مشارف الحى سمع شخصا يناديه.. توقف والتفت نحو الشخص الذى كان ينتظره واندهش عندما وجده طارق وهتف قائلا :

- طارق.. ماذا تفعل هنا فى مثل هذه الساعة ؟.. ثم أضاف ضاحكًا.

- لعلك تكتب قصيدة عن النجوم..

فقال له طارق :

- هذه الليلة لا نجوم فيها.. وقد كنت فى انتظارك.

- حقا.. ماذا حدث ؟

- لم يحدث شىء.. أريد محادثتك على انفراد فقط.

- خيرا، فى أى موضوع تريد محادثتى..

- هلم معى إلى البيت..

- هل الأمر هام جدا..

- الحقيقة، لا أعرف إذا كان هاما أم لا.. ولكن بى رغبة كبيرة فى محادثتك..

- حسنا..

سار سمير خلف طارق وثار فضوله وجنح به الخيال.. ولما دخل غرفة طارق، جلس سمير على السرير وقام طارق بإغلاق الباب ومكث واقفًا صامتًا.. ثم أخرج علبة سجائر وأخذ واحدة وقدم أخرى لصديقه وقال

- الحقيقة، لست أدرى كيف أبدأ ؟

فقال سمير بدهشة تعمد أن تكون كبيرة

- عجبا وهل أمامك غريب..

نفخ طارق دخان سجارته وتقدم خطوة قائلا :

- طبعا لا.. ولكن الأمر يخصك أنت..

فقال سمير يحثه على الكلام :

- الذى يخصنى يخصك..

فعاود طارق نفخ دخان سجارته وهو يقول :

- ولهذا أنا دعوتك لأتحدث إليك فى هذا الموضوع لأنى ما يهمنى يهمك وما..

وقاطعه سمير بضيق قائلا :

- طبعا.. طبعا.. فإلى الموضوع رأسا.

فتنهد طارق قائلا :

- حسنا سأتكلم معك بصراحة.

- تكلم.

- بصراحة، لاحظت عليك فى المدة الأخيرة أشياء غريبة أنك تأتى بساعات ذهبية وخواتم وقلادات و..

وقاطعه سمير وقد هب غاضبًا واقفًا.

- رباه.. ما هذا الشاب الأبله.. هل أتيت بى فى مثل هذه الساعة إلى

هذا المكان لتقول لى مثل هذا الكلام.. تصورت أنك تدبر انقلابا.

فذهل طارق لهذا الغضب العارم وقال :

- أردت أن أقول، مادمت لاحظت أنا ذلك فكثيرون لاحظوه دون شك.. وهم (يتساءلون) من أين أتتك هذه الأشياء. فهز سمير رأسه فى سخرية ورثاء قائلا :

- ولكنك تعرف..

- لا أعرف..

- إنى أسرقها..

- تسرقها..

- ندت عنه بدهشة واستنكار - برغم توقعه لهذا الرد.. وقال سمير فى بساطة ساخرة :

- نعم أسرقها، أسطو على السكارى.

- هو ذاك إذن، حدثنى قلبى بشىء كهذا.

تبخر حماس سمير وطار فضوله وقال ساخرا :

- لم يحدثك قلبك بشىء.. أنا الذى حدثتك بكل شىء منذ مدة أخبرتك بما أفعل، فهل جد جديد جعلك تنزعج.

فقال طارق حائرًا :

- الجديد، أنك أصبحت تقطع الطريق على الناس الطيبين، كل ليلة كاللصوص المحترفة.. فقهقه سمير قهقهة ساخرة مرددا.

- الناس الطيبين.. ها.. ها.. الناس الطيبين..ثم فى حدة.

- أين هم الناس الطيبون يا مغفل.. فما هؤلاء إلا كمشة من السكارى المدمنين.

فقال طارق :

- حتى ولو كان هؤلاء، كما تقول، فإنك تقوم بعمل إجرامى يعاقب عليه القانون.

وهنا ضج سمير ضاحكا.. ثم تماسك وقال فى سخرية

- كيف تقول.. عمل إجرامى يعاقب عليه القانون.. وعاود الضحك.. ثم واصل.

- أراهن أنها جملة قرأتها فى أحد هذه الكتب.. وأشار إلى مجموعة من الكتب وضعت فوق رف قرب السرير. وواصل..

- يا طارق ماذا أصابك، أين تظن نفسك تعيش.. متى ستفهم أن الحياة فى الخارج ليست تلك التى تقرأ عنها فى الكتب.. ليس هناك قانون على الإطلاق لكل شخص قانونه الخاص.. كيف تعيش فى القرن العشرين وتندهش عندما تسمع أن هناك من يسرق.

فقال طارق :

- والذى يزيد دهشتى أنك تعترف ببساطة.

- ولماذا لا أعترف ؟. هل لاتزال تعتقد أن السرقة عيب ؟ فقال طارق بدهشة ؟

- ألا تعتبرها عيب أنت..

فصاح سمير.

- يا مغفل، ألا تعرف أن كل الناس يسرقون فى هذا الزمن وأن الذين يسرقون بحماية القانون يفوق عددهم آلاف المرات، الذين خرجوا عنه.. حتى هؤلاء الذين يكتبون - لك - عن الأخلاق والقانون فى الصحف و الكتب، هم أيضا مستعدون للسرقة - إذا أتيحت لهم الفرصة المناسبة و..

وقاطعه طارق قائلا :

- صحيح، اللص يظن أن كل الناس لصوص..
- والمغفل يظن أن كل الناس مغفلون مثله..

- قل لى بربك، هل تظن أنك ستصبح مليونيرا بسرقتك هؤلاء البائسين.

- أنا لا يهمنى أن أصبح مليونيرًا، كل الذى أريده هو إذا حل فصل الصيف تكون معى نقود كافية لقضاء أوقات طيبة فى جربة والحمامات وسوسة.

وانتابته موجة حماس فواصل..

- وأسبوع فى لندن وأسبوع فى باريس و.. وقاطعه طارق صائحًا.

- كف عن هذا الهراء.. ما هذه الأوهام التى تعيش فيها.. أسبوع فى باريس وأسبوع فى لندن.. من تظن نفسك.. ما الأحلام البائسة التى تسيطر عليك. عندها ثبت سمير نظرة ثاقبة فى عينى طارق وتقدم خطوة نحوه.. وبدا وكأنه صمم على البوح بكل شىء.. وقال

- حسنا.. أنت الذى أردت ذلك، سأقول لك من منا يعيش فى الأوهام؟. من منا يدخر سلسلة من الأحلام التافهة.. حضرتك كل أحلامك هى كتابة الشعر والطموح فى الزواج من سامية.. وكأنك إذا تزوجتها حلت جميع مشاكلك.. دق قلب طارق بعنف وتساءل فى احتجاج.

- ما دخل سامية هنا ؟

- لكن سمير تجاهل احتجاجه وواصل متكئا على نقطة الضعف عند صديقه بلا رحمة.. قائلا فى سخرية :

- حضرتك أتيت تنصحنى. فى عز الليل.. وناسى أن تنصح نفسك، قل لى كيف ستعيش معها بالثلاثين دينارًا التى تكسبها من عملك - وتشترى بنصفها كتبا - ولعلمك إن كنت تجهل، فهى لا تأكل أشعارا ولا تلبس قصائد.. وعلى أى حال، فهى أكثر طموحا منك ومنى وقد فاقتنى فى السرقة.. فهى تسرق القلوب.

قال هذا وأطلق قهقهة جوفاء ساخرة تردد صداها فى الغرفة الصغيرة كضحكات الشياطين.. ثم ركز بصره على طارق مرة أخرى، محاولا رؤية تأثير كلامه عليه.. وحدس طارق أن وراء المقدمة الساخرة، كلاما خطيرًا على وشك البوح به، فلزم الصمت حائرًا.

وتساءل سمير.

- ألا يهمك أن تعرف قلب من سرقت ؟

- إنى أعرف..

- لا، لا، لا، أظن أنك تعرف لقد سرقت شيئًا آخر من غيرك..

- حاش سامية من السرقة.. فواصل سمير فى سخرية مرة

- هى لم تسرق سكير ولا مغفل.. بل سرقت رجلا من زوجته..

تساءل طارق مذهولا.

- سرقت رجلا من زوجته.. ما معنى هذا الكلام ؟

- معناه واضح جدا.. فقد جعلته يطلق زوجته ليتزوجها

- كذب.. افتراء.. مستحيل..

ندت عنه الكلمات فى عنف وحزم وحدة - ولكن سمير واصل غير مكترث لصراخه.

- مستحيل بالنسبة لك أما هى، فلا تعرف المستحيل ألا تعرف أحمد الدريدى.

وعندما رأى أن طارق لا يتابعه تماما واصل موضحا.

- أحمد الدريدى، قريبهم من بعيد، صاحب شركة الالمنيوم حيث يعمل محمود وفتحى.. إنه هو عريس المستقبل.

فهتف طارق بلا وعى.

- ذلك العجوز..

- نعم ذلك العجوز.

- كذب.. افتراء.. من سيوافق على هذا الزواج ؟

فهز سمير رأسه فى رثاء ساخر قائلا :

- يالك من مغفل يا طارق، من سيوافق على هذا الزواج.. إن العائلة كلها دبرت هذا الزواج بقيادة سامية وأمها..

فعاد طارق يهتف.

- كذب.. كذب.. شائعات.. شائعات.. فصرخ فيه سمير بغضب .

- قلت لك الحقيقة - الحقيقة الوحيدة فى حياتك - لقد قال لى فتحى إنها التقت مع أمها فى إحدى المناسبات العائلية ولما لاحظت الأم أن الرجل أعجبه جمال ابنتها الباهر، أوعزت لابنها محمود - أن يدعوه لتناول العشاء عندهم.. وهكذا راح السيد أحمد يتلقى مرة فى الأسبوع - دعوة للعشاء فى بيت العم سليمان - وطبعا كان يتردد عليهم دون زوجته.. وكانت زوجته امرأة عاقر، وبرغم أنه متزوج منذ عشرين سنة فإنه تذكر أخيرا فقط، أن زوجته لم تنجب أبناء..

وكانت الأم الخبيثة تتعمد تركه فى الغرفة مع سامية وحدهما، أوقاتا طويلة، فاستطاعت سامية أن تقنعه بأن - البنون زينة الحياة الدنيا - وهكذا قام الرجل بتقديم قضية فى الطلاق من زوجته - بحجة أنها عاقر. وقرأ الفاتحة على سامية وقريبا ستعلن الخطوبة.

استمع طارق لشرح صديقه - كما يستمع تلميذ مبتدئ لأستاذ يشرح له - حركة الكواكب ودوران الأرض حول نفسها أصغى مذهولا مفتنا.. ثم صرخ فى فزع.

- لقد كذب فتحى.. فلا تصدقه.

ولكن سمير قال له بحزم :

– اسمع، دعك من الهروب من الحقيقة، فهو عمل غير مجدى.. لقد قال فتحى الحقيقة التى يعرفها الكل فى الحى.. لقد قرأ عليها الفاتحة وكل نساء الحى. – بما فيهم أمك – حضرن الحدث.

انكمش طارق على نفسه فى إحدى الزوايا وقد سيطر عليه إحساس غريب، مزيج من الذهول والشك والدهشة والخيبة والأمل.. إحساس إنسان وجد نفسه فجأة أمام حقيقة طالما تجاهلها.. حقا لقد سمع كلاما غامضا فى هذا الموضوع وهذا الاسم – أحمد الدريدى. سمعه مرات يتردد أمامه، مقرونا بسامية.. وسمع ورأى همسات وحركات – توحى بأن هذا الرجل تربطه علاقة ما مع سامية.. ولكنه لم يصدق.. ولا يستطيع أن يصدق.. قال بحماس حار – مدافعا عن حبه وأحلامه :

– لا يمكن أن يكون هذا صحيحا.. لا أستطيع أن أصدق.. سامية ستتزوج ذلك العجوز.. هذا مستحيل فهى تحبنى وسأتزوجها حتى لو لم توافق أمها فهى تحبنى وهى التى سأتزوج و..

وقاطعه سمير بحنق.

– يا أحمق، كف عن ترديد هذا الكلام السخيف.. لو كانت ترغب فى الزواج منك، لكانت تزوجتك منذ مدة.. وليكن فى علمك، أن سامية ليست – ملاكا سقط من السماء كما تتوهم.. إنها فتاة طموحة وجريئة جدا.. وعنيدة وإذا تزوجت من هذا الرجل فلأنها أرادت ذلك وليس لأن أمها فرضت عليها هذا العريس.. فهى لا يستطيع أحد أن يفرض عليها شيئا، بل هى تفرض وفرضت على كثيرين – قبلك – أشياء..

فصرخ طارق فجأة.

- ولكنها تحبنى.. قالت لى ذلك.. مرات عديدة.

- وقالته لغيرك أيضًا .. فأنت لست الأول فى حياتها ماذا تظن ؟ فالحب بالنسبة لها وسيلة للتسلية إنها لا تعرف الحب ولا يهمها.. فهى لاتحب شيئا غير نفسها والمال.. تريد أن تلبس ثيابا جديدة وأن تركب سيارة وتسكن فيلا.. وقد يسليها الحب والكلمات الغريبة التى تكتبها لها ولكن هذه أشياء لاتتزوجها ثم ألم تر الثياب الجديدة التى راحت ترتديها فى المدة الأخيرة.. ألم تر السلسلة الذهبية والخواتم والساعة.. ألم تلاحظ هذا التغير عليها.. من أين لها كل هذا ؟

وأضاف مجيبا عن سؤاله.

- إنها كلها هدايا من ذلك الرجل.. فكيف تتصور أنها ستتركه وتتزوج منك أنت.

فقال طارق محتجا :

- لأنها تحبنى وأنا أحبها.. وأنت لا تعرف ماذا بإمكانه أن يصنع الحب.. لأنك لم تحب ولا تعرف الحب..

فصرخ سمير مقاطعا.

- إنى أعرف الحب خير منك بكثير.. فأنا أحب من يستحق الحب.. أنا لا أحب من أول نظرة.. أى شىء.. البله وحدهم يحبون من أول نظرة.. ثم قل لى ما هذا الذى تحبه فيها؟

- أحب فيها كل شىء..

فقال سمير بهدوء - لأول مرة - :

– قد تكون تحبها بصدق ولكن للأسف هى لا تحبك كذلك وكما قلت لك ستتزوج أحمد الدريدى.. ستتزوجه حتى ولو كانت لا تحبه.. وأنت يجب أن تواجه الحقيقة وتفهم ما معنى ستتزوجه.. أى ستصبح زوجته..

فعاد طارق يردد بحيرة.

– من يصدق هذا الكلام ؟ سامية ستتزوج ذلك العجوز..

– يجب أن تصدق بلا تردد.. فهى ستتزوجه حتى ولو كان ميتا.. فهى لايهمها عمره، كل ما يهمها هو ماله وقد قلت لك الحقيقة التى كنت تتجاهلها ولامجال لتجاهلها بعد اليوم، فالخطوبة ستعلن قريبا ومن ثم الزواج مباشرة.

ساد الغرفة الصغيرة صمت كبير وانزوى طارق فى أحد أركانها جالسا على كرسى خشبى قديم واضعا وجهه بين كفيه.. حائرا بين الشك واليقين.. وقطع سمير الصمت قائلا:

– قلت لك هذا، حتى أفتح عينيك.. وأريك أن الحياة ليست مجرد قصائد وأشعار وهناك... واعترض قائلا:

– يكفى هذا المساء.... فأحنى سمير رأسه، انحناءة خفيفة محييا طارق ثم مضى خارجا.. مسرورا فقد تأكد من أنه أعطى صديقه – الأبله الساذج – درسا فى الحياة وفتح عينيه على مكر السيدات، ذهب سمير وظل طارق فى مكانه وقد سيطرت عليه الهواجس والأفكار وراح يتساءل بحيرة قاتلة، أيمكن أن يكون ذلك صحيحا.. سامية ستتزوج ذلك الرجل.. إنه أمر غريب ومحير.. وبرغم هذا فهو حقيقى.. فمن غير المعقول أن يكون سمير قد كذب.. فلماذا سيكذب؟ لماذا؟ ولكن هل يعقل أن تكون سامية تحب

ذلك البليد أحمد الدريدى... لقد رآه طارق مرات عديدة، وهو ينزل من سيارته ليدخل بيت العم سليمان. يومها لم يكن يتصور أن مؤامرة تدبر هناك سيروح هو ضحيتها.. ورآه طارق أحيانا يمر بسيارته قرب المقهى، فإذا هو عجوز متصابى تجاوز الخمسين دون شك. برغم المساحيق وعمليات التجميل.. وكان طارق يعلم أنه رجل فظ الطباع.. متكبر وخالى من روح الدعابة والمرح.. وفوق كل هذا فهو يكبرها بثلاثين سنة على الأقل.. وبرغم هذا فإن سامية تحبه وتخطط للفوز به.. إنه معجزة هذا الرجل.. ولكن هل هى تحبه لذاته.... وأجاب نافيا بحزم.. لا.. لا.. المعجزة الحقيقية فى هذا الزمن هى المال.. المال.. المال... كما ينادى سمير... من أجل المال فإن سامية مستعدة أن تقضى حياتها كلها مع رجل لا تحبه.. هذه أيضا معجزة المال...

* * *

واستيقظ فى الصباح على حلم بديع، فقد رأى سامية وحدثها بما سمع من سمير.. فبكت وقالت له: كيف تصدق هذا الكلام يا طارق؟ إنى أحبك ولا أرضى بأحد غيرك...

وراح يتساءل، حقا لماذا أصدق هذا الكلام.. لماذا لا أنتظر حتى ألقاها وأسمع منها الحقيقة... وهكذا مضى لملاقاتها يحدوه أمل عظيم ولكن أين سامية؟

تساءل وهو يحوم حول الحى... اختفت سامية تماما... ولم يرها طوال الأيام الثلاثة الماضية.. وضاقت به الدنيا.. وترك عمله وهام على وجهه لا يشغله شىء.. غير سامية وإمكانية التأثير عليها، كى تتحدى إرادة

أمها - وكان لم ييأس من جانبها - ويعتبر أن أمها هى المسئولة عن هذا الزواج...

وراح يقضى أوقاته يحوم حول الحى لعله يرى سامية التى حبسوها فى البيت - كما كان يتصور - ومضى يجوب الحى مرددا ساخرا من نفسه قصيدة لقيس بن الملوح يقول فيها:

أحوم حول الديار....
ديار ليلى....
يلاطمنى هذا الجدار...
وهذا الجدار...

وذات مساء نصب لها كمينا وهى فى طريق العمل وما أن مرت من أمامه حتى برز لها من خلف شجرة هاتفا.

- سامية...

وتوقع أن تصدم لمرآه فجأة.. ولكنها تصرفت بهدوء مدهش.. وكأنها كانت تتوقع هذا اللقاء، وواصلت طريقها متسائلة.

- ماذا تريد؟

سؤال لم يخطر له على بال.. لحق بها قائلا - وهو على وشك البكاء:

- كيف ماذا أريد..؟ لقد سمعت عنك كلاما غريبا.. فتساءلت فى برود.

- كلام غريب..

- أجل كلام غريب تصورى أنهم يقولون إنك ستتزوجين من رجل عجوز.. فألقت عليه بنظرة جانبية وقالت ببرود قاتل:

- وما شأنك أنت.. أذهله ردها، ملأه حنقا وغضبا.. وأفلتت منه أعصابه وقال صارخا:

- كيف ما شأنى؟ فتوقفت عن السير وعادت إليه وفى عينيها نظرات حازمة.. وقالت:

- ماذا تريد؟ هل تريد أن تعمل لى فضيحة فى الشارع؟ فقال محاولا الهدوء:

- طبعا لا..

- إذن أنا حرة أتزوج من أشاء.. وأنت لا شأن لك بى، لست أبى ولا أخى ولا حتى ابن عمى.. وقاطعها صارخا مرة أخرى.

- ولكنى أ... وقاطعته بدورها صارخة بفزع.

- ولكنك ماذا؟

هذا أيضا سؤال آخر لم يخطر بالبال من قبل، ذلك السؤال القديم الخالد، أنا من أنا... وقال محاولا السخرية ولكن مرارته كانت أكبر.

- أنسيت ماذا أنا؟ ألا تذكرين أحاديثنا فى الحديقة أنسيت وعودنا؟

عادت تسير فى طريقها وهى تقول - وقد عاد لها برودها المدمر - وكأنها شعرت أنها انتصرت عليه وانتهى أمره - أذكر مرة عرضت على الزواج، فقدرت مشاعرك نحوى.. ولكنى رفضت الزواج منك على الفور وانتهى الأمر... فقال ساخرا بلا روح:

- وانتهى الأمر.. ولكن ألا تذكرين أنك كنت متحمسة للأمر.. قبل أن تلتقى بهذا العجوز وتغريه.. فصرخت.

– لم أغرى أحدا.. ولم يحدث قط أننى فكرت لحظة واحدة فى الزواج منك.. لقد كانت علاقتنا ثقافية وانتهت فلنفترق بسلام...

ماذا تقول الفتاة، كانت علاقتنا ثقافية وهى لم تقرأ كتابا واحدا منذ أن غادرت المدرسة، ويذكر يوما كيف انزعجت عندما أهداها رواية وقالت له: لو أهديتنى قلادة أو اسورة لكان أفضل..

ولكن ما بال هذا القلب يتألم.. ما بال الدموع تتجمع عند نقطة الانطلاق.. وقال محاولا السخرية ولكن صوته تهدج وهو يقول:

– ولكنك قلت لى إنك تحبيننى... فصرخت بدهشة عظيمة.

– أنا.. أنا قلت هذا الكلام.. لماذا سأحبك؟ حقا.. لماذا؟ يبدو أن أسئلة عديدة جديدة عليك أن تفكر فيها وتجد لها أجوبة.. لو كنت فيلسوفا حقا لعشقت أسئلتها.. أكثر مما تعشقها.

قال محتدا:

– قلت لى هذا الكلام وكتبته وعندى الرسائل فلا تحاولى إخفاء الحقيقة بادعاءات كاذبة.. فتساءلت فى برود.

– الحقيقة ما الحقيقة أرجوك؟

ما الحقيقة – سؤال فلسفى آخر سيشغلك أيام...

قال محتدا:

– الحقيقة التى تعلمينها – كما يعلمها الجميع – أنك كنت تحبيننى (أو تتظاهرين بذلك) وكنت مستعدة وراضية بالزواج بى.. حتى التقيت بهذا البغل... أحمد الدريدى، وهو رجل عجوز سخيف، ولكنه ثرى وبإمكانه أن

يحقق لك أحلامك التافهة، كزيارة باريس ولندن وسويسرا وهذه الأماكن التى تحلمين بالذهاب إليها.. وهو أكيد سيأخذك إليها، ولا أعرف إذا كان هذا سيجعلك سعيدة - لأن السعادة ليست فى المكان إنما فى قلب الإنسان والخبثاء من أمثالك لا يستطيعون أن يكونوا سعداء حتى ولو كانوا فى الجنة نفسها...

فقالت ساخرة:

- سأكون سعيدة صدقنى.. فقال طارق متجاهلا سخريتها:

- ولكن يجب أن تذكرى شيئا آخر هاما، وهو زواجك من هذا الرجل تقومين ببيع نفسك.. أجل أنا كنت أحبك أما هو فقد اشتراك بنقوده.. ومن هنا وصاعدا لا تستطيعين أن تقولى أنك امرأة شريفة.. لأن الإنسان الشريف لا يبيع نفسه.. إنك لست حتى زوجته إنك شيئا اشتراه...

لما أنهى طارق كلامه هذا، صوبت إليه سامية نظرات حقد حقيقى.. أدهشته.. ثم جاء صوتها، حادا حاقدا فيه حشرجة وكأن الكلمات تحتك بحنجرة وتسمع لقوة الاحتكاك صدى مع الكلمات قالت وهى تنتفض: اسمع أيها الحقير.. سأتزوج هذا الرجل، لأنى لا أستطيع أن أقضى عمرى كله مع مخلوق مغفل مثلك. انك فقير تافه.. وبرغم هذا فإنك متكبر.. فأى جحيم الحياة معك.. أتحتقر الأثرياء يا أبله.. ألا تعلم أن هذا الرجل - الذى قلت عنه إنه عجوز سخيف.. هذا الرجل بإمكانه أن يبول عليك لو أراد.. أذهلته الجملة الأخيرة وأصابته فى صميم كبريائه.. فظل واقفا فى مكانه صامتا ذاهلا يسدد لها نظرات لا حياة فيها.. أما هى فلم تتركه وواصلت - طارق، لن تصبح شاعرا فى يوم ما - مهما حاولت - لأنك جاهل.. ألا تفهم.. لماذا تهرب من الحقيقة!؟.. إنك مجرد شاب تافه كآلاف

الشباب من أمثالك.. كتب عليك الفقر والجهل فلماذا التكبر؟ ولعلمك فإن هذا الرجل إلى جانب كونه ثريا ومهما فهو أيضا يحبنى... فقال ساخرا بلا حماس:

- يحبك.. لا تنتظرى من أمثاله الحب.. فهذا الرجل طلق زوجته - بعد عشرين سنة زواج - من أجلك أنت.. وبغل كهذا لا يعرف الحب، إنما حب الاكتساب هو الذى قاده إليك.. أراد أن يكتسبك، أن يشترى جسدك كما تشترى الخرفان فى عيد الأضحى..

- إنها الغيرة تتكلم..

- الغيرة.. هل تظنين أنى سأغار من هذا العجوز؟ إنى فقط آسف من أجل الشهور التى قضيتها معك، ولكن حقا، الحب أعمى، وإلا كيف استطعت خداعى كل هذه الأيام.. أين كانت تختفى حقيقتك القذرة طول هذه المدة.. والآن هأنا ماض وأتمنى شيئا واحدا وهو ألا أراك مرة أخرى مدى حياتى الباقية...

قال هذا واستدار مبتعدا، وتوقع أن تلحق به لطلب المغفرة على الأقل - لكنها لم تفعل.. فتوقف واستدار إليها، فرآها ماضية فى طريقها رشيقة الخطوات متأنقة كعادتها ولم تلتفت إليه بالمرة وكأنه شىء ألقت به فى سلة المهملات.. وكبح بصعوبة رغبة شاذة فى أن يعدو؛ وراءها ويضربها.. ولكنه قال لنفسه: ما الفائدة من هذا التصرف الأحمق الآن.. وبقى لحظات شاخصا فى الطريق الذى فيه اختفت.. ثم تثاقل عائدا إلى بيته.

إذن هذه هى الفتاة التى أحببت.. هذه هى سامية التى طالما ألهمتك قصائد العشق.. طالما شبهتها بالملاك وقلت عنها إنها سيدة الجمال والعطف..

وصوتها موسيقى.. يقطر رقة.. هذه السيدة فارقتك بلا حرج.. بلا دموع.. بلا ندم.. قالت لك - وصوتها يقطر حقدا.. إن هذا العجوز بإمكانه أن يبول عليك لو أراد.. حقا يالها من جملة جديرة بأن تدون فى كتاب - إنشاء الرسائل - فى ركن من حبيبة خائنة إلى حبيب مخدوع. ومن يدرى لعل ذلك العجوز قادر حقا على فعل ما يشاء.. ألسنا نعيش فى زمن البيع والشراء.. وتذكر بذهول أنه - وطول المدة التى قضاها معها - لم يقبلها قط ولم يحاول تقبيلها - كان يظن أنه بامتناعه عن محاولة تقبيلها يظهر لها مدى احترامه لها.. ومن يدرى لعلها هى كانت تنتظر تلك القبلة وتسخر فى سرها مما اعتقده جبنا وظنت برجولته الظنون... فأذهله هذا وزاده حزنا وسخطا على نفسه واحتقارا لها.. وشد رأسه بكلتا يديه وهو يردد يا أحمق.. يالنى من أحمق...

وعاوده حلمه فى أن يراها تبكى وتطلب منه المعذرة.. فقهقه قهقهة جوفاء مرددا.. أحلام تافهة.. أحلام سخيفة.. ولكن أليس من المدهش حقا.. أنك لا تزال تحبها.. برغم كل الذى قالته وفعلته فإن هذا القلب لا يزال يخفق بحبها.. وهنا تفطن بدهشة - وكأنه يكتشف ذلك لأول مرة.. تفطن أن آلامه تنبع من داخله.. وليس منها. إن قلبه هو المسئول عن كل هذا الذى حدث ويحدث له.. القلب.. ما السر فى وجده.. يقول بعض المغفلين:

إن الله خلقه لنا ليسعدنا بقدرته على الحب.. ولكن من يهمه الحب.. من يريد أن يتورط فى شراك الحب.. إذا أردت أن تعشق يوما فعليك أن تعشق نفسك.. ذاك هو العشق الحقيقى...

وقضى طارق أياما غريبة، ينتابه إحساس الرجل المخدوع.. وبرغم أنه لم يغير شيئا من طريقة حياته فإنه لا يذكر عما فعل فى تلك الأيام وكأن

حواسه كلها توقفت فظل جسده يؤدى وظيفة العمل والأكل.. وكأنه آلة فى شكل إنسان.

وكانت أخبار ما يحدث فى بيت الجيران تأتيه من فتحى وسمير، فعلم أن الهدايا تهاطلت على سامية وأمها من خطيبها أحمد، وكانت أجمل هدية تلقتها وفرحت بها كثيرا - جهاز تلفزة ملونة - أهداها لها خطيبها بعد أن لاحظ أن تلفزتهم غير ملونة، وكانت التلفزة الملونة تلك الأيام جديدة على تونس وعلى الحى خصوصا وأخبره فتحى أن هذه التلفزة سببت متاعب كبيرة لرجال الحى، فبعد أن رأى نساء وأطفال الحى تلك التلفزة، هرعوا لرجالهم مطالبين بتلفزة مثلها.. ووجد طارق نفسه ينتظر ليلة الزفاف بعصبية وكأنه زواجه الخاص.. ولما جاء اليوم الموعود، عادت إليه الأحزان والأحلام القديمة والذكريات..

وقضى طارق ليلته يتلوى فى فراشه مسهدا، يتخيل فى غرابة ودهشة نوعية العلاقة الجديدة التى ستربط بين سامية وأحمد الدريدى.. وقال لنفسه فى ذهول:

إن غدا ليلة الدخلة.. معنى هذا أن سامية ستكون بغرفة مغلقة مع ذلك المجهول أحمد.. بمفردهما فى غرفة النوم نفسها...

وراح يتخيل فى ألم ودهشة ما سيحدث فى الغرفة... هل حقا ستتجرد سامية من ثيابها وترقد عارية فوق الفراش فى استسلام تاركة جسدها - الذى عشقه طارق كثيرا - ذاك الجسد سيترك تحت رغبات العجوز المتصابى.. سيبتذله العجوز كما يشاء.. فأى عار بعد هذا...

وأحس بالغيرة تأكل رأسه فود لو كان بإمكانه أن يقتلهما معا قبل وقوع

هذا الحدث الغريب الذى يحدث ليلة الدخلة.. وكان حتى تلك اللحظة لم يهضم بعد، أن سامية أصبحت زوجة ذلك الرجل، بالضبط كما أمه زوجة أبيه.. أو أم فتحى زوجة العم على... كان مقتنعا أن هذا الزواج - مجرد عملية بيع وشراء... ولهذا تصور أن العلاقة التى ستربط بين سامية وأحمد الدريدى لا يمكن أن تكون علاقة بين رجل وزوجته.. وبرغم هذا فإن الرجل سيرتبط بها بعقد زواج.. كما يرتبط أى زوجين ببعضهما..

فراح يتخيل طول الليل هذه العلاقة - الشاذة - كما كان يراها - التى ستربط بينهما.. وفى صباح اليوم الموعود، غادر طارق بيتهم مبكرا وقرر أن يهجر الحى فى هذا اليوم الخالد.. ولم يجد مكانا يذهب إليه غير البحر.. البحر ذلك الصديق الوفى الذى يلجأ إليه كلما حلت به ضائقة.. صعد الصخور، التى تفصل بين الماء والرمال ولما وصل إلى صخرته المفضلة، حيث تعود الجلوس كلما شعر برغبة فى الانفراد بنفسه، نزع حذاءه وجلس عليه مدليا ساقيه لليم.. اليوم وفى هذا المساء.. تقفز سامية بن سليمان طبقتين كاملتين.. ستنتقل من البيت الصغير بالحى المنسى إلى فيلا بمنطقة المرسى.. فيلا على البحر.. حلمك القديم.. حققته حبيبتك مع رجل آخر.. هذه هى سخرية القدر التى طالما سمعت عنها... كم حلمت وتمنيت أن تحصل - يوما - ما - على فيلا على الشاطئ وتتزوج سامية وتعيشان فيها معا سعداء.. فحققت هى أحلامك مع رجل آخر... أما أنت فقد قالت لك (كتب عليك الفقر والجهل.. فلماذا لا تقتنع؟) حبيبتك، تريدك أن تقتنع.. وتعيش شاكرا وسط الفقر والجهل.. لتصبح هى - السيدة الدريدى.. أو على الأرجح - مدام الدريدى - لتقنع أنت بالفقر والجهل لتركب هى سيارة (فزفاقن) يقودها سائق خاص.. فمدام الدريدى - لا يجب أن تسير على الأقدام.. كما ستطبخ لها طعامها خادم وتغسل ثيابها خادم أخرى وستتكلم

الفرنسية.. وإذا غضبت ستقول (مارد..) أما إذا اشتد عليك الوجد وذهبت تحوم حول الفيلا فربما رأيتها فى الحديقة تسقى الأشجار أو تقطف بعض الأزهار وتزوق الياسمين، ستصبح فجأة من أحباء الطبيعة.. ولن تتابع بعد اليوم ما تكتب فى الجرائد.. لن يكون هناك وقت للقراءة.. هناك اهتمامات جديدة ستشغلها..

هل ارتفع الدولار؟.
وما سعر الفرنك الفرنسى..
والمارك الألمانى، لا يجب أن ينسى..
وهل الأمور ماشية على ما يرام فى الشركة؟
وأين سنقضى العطلة؟ فى باريس أم لندن أو جنيف... حقا اهتمامات جديدة عظيمة، ستخوض فيها سامية بحماس كبير..

وإذا نصبت لها يوما كمينا فى الطريق وتقدمت نحوها بجسارة مصافحا قائلا:

- أنا طارق.. طارق بن يوسف.

عندها ستنظر لك من فوق وتتساءل بدهشة.

- طارق بن يوسف.. هل تعرفنى أيها السيد...

وعبثا تحاول تذكيرها بمن هو طارق بن يوسف.. فقد نسيت بصورة لا تذكر بعدها شيئا.. نسيت من اللحظة الأولى التى أعلنت فيها الخطوبة..

وأنت أيضا لم يبق لك إلا النسيان.

- كنت متأكدا أننى سأجدك هنا.

التفت طارق لمخاطبه، فوجد أمامه فتحى واقفا فوق صخرة ماسكا بكيس صغير..

قال طارق بشيء من الاحتجاج:

- لماذا جئت.. كنت أظن أنك ستذهب معهم إلى بيت العريس..

نزل فتحى من فوق الصخرة ونزع حذاءه وجوربه وجلس بجانب صديقه مدليا قدميه للماء.. وقال:

- لقد ذهبوا كلهم ورافقهم سمير وطاهر، أما أنا فلست على علاقة جيدة مع العريس، فهو مؤجرى - كما تعلم - والعلاقات بين العمال ومؤجروهم ليست على ما يرام هذه الأيام..

فقال طارق:

- يبدو أن كل العلاقات ليست على ما يرام هذه الأيام.

فقال فتحى ضاحكا فجأة:

- آه لو رأيت سمير، إنه أكثر الناس سعادة.. يتصرف وكأنه هو الذى سيتزوج أحمد الدريدى وثروته.. وقد قال لى - لماذا يغضب ذلك المغفل طارق - لماذا يحزن لأن سامية ستتزوج هذا العجوز الثرى...

فقلت له:

- طبعا يحزن.. فالفتاة التى يحبها ستتزوج رجلا آخر فهل تريده أن يفرح لهذا الزواج؟

فقال لى:

- لو كنت مكانه لفرحت وطرت فرحا.. فهذه فتاة قضت معى أوقاتا طيبة.. وتعلم أننى أحبها ستتزوج من عجوز، فقط لأنه ثرى.. وبعد عشر

سنوات سيموت ويترك لها ثروة طائلة.. عندها سأظهر فى حياتها وأذكرها بالماضى السعيد.. وأتزوجها وأغنم ثروتها..

وتساءل طارق داهشا:

- ولكن من قال له أن الرجل سيموت بعد عشر سنوات.. فضج فتحى ضاحكا قائلا:

- قلت له هذا، وقلت له أن الموت والحياة بيد الله وحده ولا أحد يعرف من سيموت قبل من؟

فقال لى:

- أعلم هذه ولكن أراهن أن سامية لن تحتمله أكثر من عشر سنوات وإذا لم يمت ستساعده على ذلك...

وضج الصديقان ضاحكين وقال طارق:

- يا له من خيال شرير.. ولكنه نسى أن الانسان يتغير كثيرا فى عشر سنوات وتتغير مشاعره وحتى الحب نفسه يموت...

فقال فتحى مؤمنا على قول صديقه:

- صحيح، الحب يموت كما يموت كل شىء وبأسرع مما تتصور.. وحدها الصداقة تبقى..

ثم أخرج من كيسه قارورتين من الكوك وقدم واحدة لصديقه قائلا:

- لنشربا نخب الصداقة.

فتساءل طارق بارتياب.

- هل أتيت بها من الحفل؟

فقال فتحى ضاحكا:

- اشرب ولا تخف، لقد اشتريتها بنقودى..

عندها تسلم طارق القارورة ورفع الصديقان القارورتين لبعضهما وفتحى يقول:

- فلتحيا الصداقة وليسقط الحب..

فردد طارق ما قاله صديقه بصوت لا يخلو من الحزن.

- لتحيا الصداقة وليسقط الحب..

وراح الصديقان يشربان فى صمت والبحر أمامهما يراقب...

* * *

ذات مساء، فى أواخر ربيع سنة ١٩٧٧.

أوشكت الشمس على المغيب وهبت رياح منعشة من ناحية البحر واكتظت الكرم الشرقى بالرواد...

امتلأت المقاهى واحتل المترجلون الأرصفة وكثر زعيق السيارات العابرة وزاد من ازدحامهم ضيق الشارع الرئيسى..

وأقبل سمير من ناحية المحطة، يمشى دون مبالاة بمن حوله من ناس وسيارات وعربات، وكأنه خارج الزحام.. قطع الشارع الرئيسى متوجها إلى حانة الأسود، حيث تعود مراقبة السكارى..

ولما دخل الحانة وجد مفاجأة سارة فى انتظاره... فقد كان هناك الرجل (السكير القصير) كما سماه الذى سطا عليه مرتين وفى كل مرة وجد فى جيوبه ما يقارب الثلاثين دينارا.

كان الرجل يجلس فى نفس المكان - حيث رآه سمير لأول مرة عندما جاء الحانة يرافقه طارق - كانت أمام الرجل قارورة من الخمر الردىء وكأس...

اتخذ سمير مكانه مواجها للرجل وطلب قارورة من الجعة.. ولم يستحث الرجل هذه المرة، راح يشرب فى هدوء ومتعة مبشرا نفسه بصيد وفير..

وفجأة أحدث الرجل حركة لفتت إليه الأنظار.. فقد هب واقفا فجأة ماسكا بيده حزمة من الأوراق النقدية وصاح قائلا:

- يا جماعة زوجتى عاهرة وأنا سكير...

فضج الحاضرون ضاحكين فى صخب وقال له أحدهم:
- عائلة طيبة، ستنجبون كثيرا من أبناء الحلال..

وعاد الرواد يضحكون فى صخب وقاطعهم السكير وهو يشير للنقود قائلا:
- ولكنها تبيع جسدها من أجل النقود وأنا أسكر لأبذر هذه النقود...

وعاد صاحب النكتة يقول:
- وهكذا يتمتع الاثنان....

فضج السكارى ضاحكين.. وانهالت التعليقات فى حين طارت جميع الأفكار التى كانت تشغل فكر سمير ولمعت عيناه ببريق المغامرة، ونسى كل شىء إلا تلك الرزمة من الأوراق النقدية - التى أعادها الرجل بسرعة إلى جيبه - وتساءل متى يخلو به فى مكان مظلم؟ وكم هى يا ترى... وخطرت على باله فكرة أقلقته.. ماذا يحدث لو أن أحد الحاضرين خامرته فكرة الاستيلاء على تلك الرزمة من النقود التى أظهرها الرجل.. وأزعجته هذه الفكرة وراح يشتم السكير القصير ويرميه بالغباء.. لماذا أخرج ذلك المغفل نقوده أمام السكارى.. ألا يخاف عليها..

ولما أقلقته هذه الفكرة، هز قبضته قائلا لنفسه الويل لمن تسول له نفسه السطو على الرجل قبلى.. سأحطم رأسه بلا تردد..

وفى الخارج غابت الشمس تماما وانبعثت الأضواء من أعمدة الكهرباء.. وراحت عقارب الساعة فى دورانها الجنونى.. ولكن سمير لم يهتم للوقت ولمروره السريع وركز اهتمامه على الرجل يراقب جميع حركاته وسكناته

وبغتة هب الرجل واقفا ودفع حسابه ثم غادر الحانة. وبلا تردد نهض سمير ودفع حسابه على عجل وغادر الحانة سار الرجل فى شارع الحبيب بورقيبة يتبعه سمير على بعد خمسة أمتار على الرصيف الآخر...

وحدثت مفاجأة أخرى.. فلم يقطع الرجل محطة الكرم، كما فعل فى المرتين الماضيتين، بل واصل طريقه عبر الشارع المزدحم وتابعه سمير بقلق ظاهر.. وراح يتساءل فى سره.. إلى أين ذاهب يا بن الكلب.. إلى أين تأخذنى.. ولكن سأتبعك.. سأتبعك إلى آخر الدنيا.. إذا ذهبت.. فلن تنجو منى هذه الليلة.. تستطيع النجاة إذا دخلت إحدى هذه العمارات الممتدة على طول هذا الشارع.. إذا دخلت حقا إحدى هذه العمارات فقل على اليوم السلام.. فهذا الشارع اللعين لا يقفر حتى فى آخر ساعات الليل.. إنى لا أفهم لماذا يتسكع هؤلاء الناس فى هذا الشارع.. لماذا يلزمون بيوتهم.. أليس لديهم أشياء يفعلونها فى بيوتهم.. ألا يرتاحون ويريحون؟...

آه ها قد اجتزنا منطقة الكرم، فهل أنت ذاهب إلى حلق الوادى.. معك حق هناك كثير من الحانات تقدم خمرا معتقا.. ولكن احذر أن تبذر كل نقودك.. ويجب أن تعلم أننى قررت ألا أتركك هذه الليلة... هيهات أن أتراجع بعد أن سرت كل هذه الخطوات وراءك فى هذا الطريق.. وقد قال طارق أو قال فتحى أو قال المثل أو الفيلسوف.. أحدهم قال مرة (الرجل هو من يذهب دائما إلى آخر الطريق) فلأثبت لهم أنى رجل وأسير إلى آخر الطريق.. إلى آخر الطريق..

- مهلا ماذا أرى؟

ندت عنه بدهشة وحدق غير مصدق.. فقد مال الرجل إلى اليمين وقطع

محطة المرسى الجوية، ليدخل طريق العوينة.. المؤدى لمطار قرطاج الدولى..

تابع سمير الرجل وقد ازدادت دقات قلبه سرعة وشدة.. وتحفز للمغامرة، لمعرفته الجيدة بالطريق الذى راح فيه الرجل.. فهو أخلى من صحراء فى مثل هذه الساعة وحتى فى النهار لا تكاد ترى فيه عابر سبيل غير سيارات تمر مسرعة زاعقة فى طريقها إلى المطار أو منطقة العوينة..

هو طريق طويل على يساره بحيرة تونس القذرة.. وعلى يمينه (كانت هناك أرض خلاء شاسعة تمتلىء بمياه الأمطار فى الشتاء لتجف فى الصيف..) وتنتهى بمقبرة تعرف (بمقبرة الفرنسيس) الفرنسيين، ثم وراءها هناك الأحياء الشعبية..

ترك سمير الرجل يتوغل فى الطريق ويبتعد عن المحطة ثم وبلا تردد اندفع نحوه فى هجوم خطير.. لما جذب سمير الرجل من كتفه، محاولا إبعاده عن حافة الطريق وجد مقاومة مفاجئة من الرجل.. ولكن مقاومته لم تدم طويلا.. فقد سدد له سمير لكمة قوية أردفها بركلة - اشتهر بها بين أبناء الحى - فانطرح الرجل أرضا.. مغمى عليه.. ولما انحنى سمير لتفتيش الجيوب.. فإن ضوءا انبعث بصورة مباغتة من ناحية البحيرة.. وسمع صوت محرك سيارة وهو يخدم..

توقف ذاهلا... وبعد لحظات الذهول الأولى.. كان بإمكانه أن يرى سيارتين مندفعتين نحوه بسرعة جنونية..

... بوليس...

ترك الرجل واندفع يجرى فى الأرض الخلاء...

وفجأة توقفت أمامه سيارة.. قطعت عنه الطريق متوقفة أمامه بالضبط

بحيث كاد أن يصطدم بها ولكنه استطاع التوقف فى اللحظة المناسبة واستدار إلى اليسار وانطلق يجرى فى هذا الاتجاه، عندها طاردته السيارة الأخرى مزمجرة زاعقة واستطاعت اللحاق به ولمسته، لمسة خفيفة جانبية ولكنها كانت كافية لإسقاطه أرضا.. وانتفض سمير واقفا غاضبا وعاود الجرى... وسمع صوتا أجش يهتف به فى تحذير وترهيب... قف.. قف.. قف... هيهات أن يقف.. ضعف من سرعته وبذل أكثر من جهده بكثير.. وفى جريه اللاواعى، سمع الصوت يعاود هتافه المخيف... قف... قف... قف...

ولكنه لم يبال... ولن يبالى.. واصل جريه مندفعا بجسده كله وكأن جسده كله تحول إلى مجموعة من الأقدام وفجأة.. توقفت السيارة بجانبه زاعقة وأدارت له ظهرها فأصابت مؤخرتها قدميه بعنف.. فقذفت به بعيدا فى الفضاء، يضرب الهواء يحاول التعلق به، وهو يصرخ صرخة خوف وفزع.. ثم سقط على الأرض يتلوى ممسكا بساقه المصابة، وشاهد فى غموض مجموعة من رجال الشرطة يحلقون به، فأدرك بصورة يائسة لا حد ليأسها.. أنه فقد ذلك الشىء المقدس الذى اسمه.. حرية.

تلقى سكان الحى خبر إلقاء القبض على سمير وهو يسطو على سكير فى طريق العوينة بمشاعر مختلفة.. اندهش المعجبون وشمت الشامتون وذهل الأصدقاء وعندما تلقت أم سمير الخبر، لطمت خديها وندبت حظها وتجمع أمام باب البيت جمهرة من البشر المحبين لمصائب غيرهم وسدوا مدخل الحى وحاول بعضهم اقتحام البيت اقتحاما، ولكن العم مبروك طردهم وقال لزوجته.

- اسكتى يا امرأة، ماذا كان يفعل من أجلنا عندما كان هنا.. إنه فى السجن كما هو فى البيت، لا ينفعنا وجوده ولا يضرنا غيابه...

لكنه تذكر الثلاثين دينارا التى كان يعطيها له سمير كل شهر، فأسف عليها...

وطبعا وجد سكان الحى فى إلقاء القبض على سمير موضوعا مثيرا فخاضوا فيه أشهرا عديدة وزادوه من الخيال ما شاءوا.. وتحول سمير على ألسنتهم إلى حيوان أسطورى يأكل السكارى.. وقال شاب من الذين يكرهون سمير - وما أكثرهم! -

- قيل إنه لم يكن يكتفى بسرقة السكارى، بل كان يعذبهم أيضا.. وقد تسبب فى قتل أربعة منهم ولهذا ليس بالغريب أن يحكموا عليه بالإعدام...

وتلقى طارق الخبر بدهشة - برغم توقعه له - ولكنه لم يكن يتصور أن يحدث الآن.. فجأة.. وزاده حزنا إلى أحزانه ومضى إلى المقهى حائرا مهموما.. لا يعرف ماذا يقول أو ماذا يفعل من أجل صديقه؟

وفى المقهى وجد أصدقاءه قد سبقوه إلى هناك.. وقد تحلقوا حول المائدة فى جلسة غير عادية، بدا محمود شديد التأثر، جلس ملقيا برأسه إلى الوراء محدقا بعينيه فى السقف وقد شردت أفكاره.. فى حين انزوى طاهر منكمشا على نفسه، كأنه يجلس وحيدا.. وبدا فتحى عصبيا، فقد صدمه الخبر وفاجأه - هو الذى كان يظن أنه يعرف كل شىء عن أصدقائه حتى تلك التى لا يقولونها له - وما أن جلس طارق حتى بادره قائلا فى عصبية:

- هل قرأت الخبر فى الصحف؟

- طبعا قرأته..

فضرب فتحى المائدة بقبضته قائلا:

- سمير يسطو على السكارى، من كان يتوقع شيئا كهذا.

كنت أظنه قادرا على أشياء أكبر من هذا العمل السخيف لو سطا على بنك مثلا، لكان هذا عملا مفهوما ومتوقعا منه أما السطو على السكارى فهذا سخف.. سخف.. فقال محمود :

- والمدهش حقا، أنه كان يقوم بهذا العمل منذ مدة والغريب أنه كان يحتفظ بالبطاقات الشخصية لضحاياه، يحتفظ بها فى غرفته وهى الآن تستعمل ضده كدليل قاطع على عدد العمليات التى قام بها، أليس هذا هو منتهى الغباء ؟.

وتساءل طاهر فى قلق.

- هل تظنون أننا سنستدعى للتحقيق ؟

فقال فتحى بانزعاج :

لماذا ؟

- لأننا أصدقاؤه وسوف يظنون أن أحدنا كان يعلم شيئًا فقال طارق :

- لا تقلق فلن يدعوا أحدًا، فعندهم من الأدلة ما يكفى والآن يجب أن نفعل شيئًا من أجله.

- وماذا بإمكاننا أن نفعل من أجله..

- بإمكاننا أن نتفق على زيارته بدورية.

- طبعا سنفعل هذا.

* * *

قرأ سمير خبر إلقاء القبض عليه فى الصحف، فكاد يجن.. حنقًا وغضبًا

على نفسه.. قرأ، كيف لاحظ أعوان الأمن، أن جل عمليات السطو التى وقعت بالكرم كانت تستهدف سكارى.. يكونون عادة قد شربوا فى حانة الأسود، وأن معظم هذه العمليات تقع مساء الأحد.. فطلبوا من ذلك الرجل (القصير السكير) طلبوا منه الذهاب إلى الحانة مساء الأحد ويتعمد إبراز نقوده أمام الزبائن.. ثم يغادر الحانة ويتوجه إلى طريق العوينة.. حيث نصبوا كمينا هناك.

قرأ التفاصيل بدهشة وذهول.. هل وقع حقا فى شراك هذه الخطة - التى تبدو له الآن غاية فى البساطة - ولكنها البساطة القادرة.. تساءل بذهول، كيف لم يشعر أن حركة الرجل فى الحانة كانت متعمدة.. ولماذا لم يتراجع، عندما رأى الرجل يغير طريقه المعتاد.. وكيف لم ير ويحس بالسيارتين الراسيتين على حافة الطريق الخالى.. كيف وقع بهذه السهولة.. هو سمير بن مبروك - الذى كان يقول، إنه لايوجد أى شرطى فى العالم قادر على القبض عليه.. أوقعوه بخطة بسيطة، يمكن أن يتفاداها أغبياء الناس.. وشعر بالهوان وضعفت ثقته بنفسه وبذكائه الخاص درجات. وانتابه إحساس بأنه، كان جشعا طماعا.. لدرجة أفقدته عقله وجعلته يتهور.

وسأله المحقق، عن السبب الذى جعله يحتفظ بجوازات وبطاقات ضحاياه.

فلم يحر جوابا..

وزاد ذهوله بغبائه الشديد.. والأغرب أنه لم يكن ينوى أن يفعل أى شىء محدد بهذه البطاقات والجوازات والأوراق الخاصة لضحاياه.. لم يكن بإمكانه أن يفعل بها شيئًا على الإطلاق ولكنه حافظ على أخذها من أصحابها وببساطة مذهلة، بفتح درج خزانته ويضعها هناك قائلا لنفسه، ربما

أستحقها ذات يوم.. حتى عثر عليها المحققون، عندما قاموا بتفتيش غرفته، فإذا هى تجاوزت العشرين بطاقة تعريف وثمانى جوازات سفر وأوراق أخرى. وأمام المحكمة، جعل من يأسه قوة جنونية، ورفض كل التهم الموجهة له، ولم يعترف إلا بالعملية الأخيرة.. قائلا : إن الرجل أغرانى.. عندما أبرز أمامى تلك الرزمة من الأوراق النقدية.

وسألوه عن البطاقات والأوراق التى وجدوها فى درج خزانته فأنكر علمه بهذه البطاقات وقال بجرأة (ربما المحققون وضعوها هناك).

ولم يجد إنكاره، فآثر المفاوضة القانونية، قضت المحكمة بسجنه خمس سنوات.. على مجمل العمليات التى قام بها.

وتلقى الحكم بدهشة واستنكار.. وردد فى قاعة المحكمة باحتجاج.

- خمس سنوات.. هذا كثير..

لم يخطر هذا بباله.. كان يعتقد أن العمليات التى قام بها، هى لاشىء قياسا بالسرقات التى تحدث كل يوم. وبما أنه لأول مرة يلقى القبض عليه، ظن أنهم سيكونون متسامحين معه.. ولكنهم أخابوا ظنه وفاجأه الحكم.

* * *

عندما دعى سمير، لمقابلة شخص جاء لزيارته، مضى إليه فى فتور، ظنا منه أنه أبوه.. ولما وقعت عيناه على الزائر، ابتسم له ابتسامة حزينة وأقبل عليه صافح طارق صديقه بحرارة وهو يسأله

- كيف حالك ياسمير ؟

فهز سمير رأسه وكتفيه، متظاهرًا بالاستهانة قائلا :

- كما ترى .. الأيام فى السجن كبعضها.

ثم استدرك محاولا السخرية.

- كيف تذكرتنى.. ألا زلتم تذكرونى.

- وكيف ننساك يا سمير؟

فتنهد سمير بحسرة قائلا :

لقد مر شهران ولم يزرنى أى واحد منكم.

- لقد كانوا يمنعون زيارتك على غير عائلتك.. حتى بعد صدور الحكم، وما أن سمحوا بزيارتك حتى سارعت وسادت بينهما فترة صمت.. تفرس فيها طارق فى صديقه متفحصا.. فهاله ما رأى.. وفاجأه التحول الذى طرأ عليه.. وصدمته الحالة التى كان عليها صديقه.. وتساءل غير مصدق.. أهذا هو سمير ؟ لقد كان دائما يرى سمير شامخا كالجبال.. لا يتأثر بشىء على الإطلاق.. كم من مصيبة، مرت به فى صباه وشبابه ولكنه كان دائم الكبرياء.. يتخطى محنه دون أن تترك فيه أى أثر.. كان يظنه شيئا لا يقهر.

أما الآن ، فها هو أمامه.. رأسه منحنى، مهموم حيران.. عيناه حمراوان.. كأنه كان يبكى أو على وشك البكاء.. يائس حزين..

فأحس طارق بعطف وإشفاق كبيرين على صديقه، الذى بدا كأنه (عزيز قوم ذل) وشد على كتفه مشجعا قائلا :

- لا تقلق كثيرًا يا سمير ، كل شىء يمر..

فقال سمير بحزن :

- حقا كل شيء يمر، ولكنه سيمر وأنا فى السجن.. خمس سنوات كاملة من أجل حفنة من السكارى.. آه كم كنت أتوقع من هذه السنوات الخمسة الحاسمة.. كنت أظن أننى سأحقق جل أحلامى.

فقال طارق محاولا إحياء الأمل فى روح صديقه الكئيبة.

- أراهن أنهم سيفرجون عليك بعد سنة أو سنتين. فلاح الاهتمام على وجه سمير وتساءل.

- كيف عرفت هذا ؟

فقال طارق وقد أسره إحياء الآمال الميتة.

- استنتج ذلك ، بعد أن قرأت مقالا فى إحدى الصحف قال فيه كاتبه إن سجن العاصمة مكتظ ولهذا أظنهم.. سيفرجون على أعداد كبيرة من المساجين ولكن عليك أن تتصرف بهدوء داخل السجن ولا تثر مشاكل.. فأشرق الأمل فى عينى سمير وقال :

- إذا كان هذا سيتيح لى فرصة الخروج من هذا المكان سأتصرف كملاك.

فقال طارق :

- سترى أن كل شيء سيصير على أحسن مايرام.. فقط على الإنسان أن يتعلم ويأخذ درسا من كل حادث مهما كان وقاطعه سمير قائلا :

- أعرف ما تريد قوله ولكن دعنا من هذا الآن وقل لى ما هى أخبار الأولاد وماذا يفعل فتحى فإنى لم أره ولا أفهم لماذا لم يزرنى ؟

فتنهد طارق قائلا :

- ولا أنا.. لم أعد أراه كثيرًا، كما أصبح قليل الكلام وأظن أنه مشغول بالاتحاد.

- أى اتحاد ؟

- الاتحاد العام التونسى للشغل.

- آه، ألا يزال يطالب برفع الأجور؟

- نعم، وقد بالغ فى حضور الاجتماعات والتحدث فى هذا الموضوع، لاشىء يشغله غير الاتحاد.

فقال سمير ضاحكا لأول مرة :

- دعه يفعل فلعله يرفع الأجور وتستفيد منه..

وهنا دخل الحارس معلنا نهاية الزيارة، فشد سمير على يد طارق بحرارة قائلا :

- لا تنسنى يا طارق..

فقال طارق بصدق :

- أبدا لن أنساك..

* * *

فى بداية خريف سنة ١٩٧٨، كان الجو الاجتماعى فى تونس قد بلغ قمة التوتر، خصوصا بين الحكومة، الممثلة بالحزب الاشتراكى الدستورى وكبار الرأسماليين وأرباب العمل من جهة، والاتحاد العام التونسى للشغل والطلاب من جهة أخرى.

وقد كثرت بصورة ملفتة الإضرابات والمظاهرات والصدامات ولم يعرف طارق أين يضع نفسه من هذه الأحداث التى تقع فى وطنه فهو لا يعمل بشركة ليضرب عن العمل كأصحابه وطلب ليشارك فى الإضرابات التى يقوم بها الطلاب.. ولا منتسب للاتحاد.. إنه لاشىء على الإطلاق.. فاكتفى بالمشاهدة والاستماع.. كأن الأمر لا يعنيه.. وطبعا كثرت فى تلك الفترة الدوريات التى يقوم بها رجال البوليس فى الأحياء الشعبية خصوصا، وزادت معاملتهم للمواطنين قسوة وحقدا.. وهو حقد وجده طارق غريبًا، غير مفهوم، فرجال البوليس هؤلاء ماهم، أولا وأخيرا، إلا أفراد من أبناء الشعب التونسى. ومعظمهم من الناس البسطاء العاديين.

وقسوتهم ومعاملتهم للناس بمثل تلك القسوة والتكبر ناتجة عن رغبة ملحة جامحة، فى التميز والابتعاد عن صفوف الناس العاديين.

ولم يعد للناس حديث غير أحاديث الإضرابات والاتحاد.. وفى هذا الجو الخانق، راح طارق يلاحظ، أن أربعة رجال غرباء عن الحى راحوا يداومون على الجلوس فى المقهى.. متظاهرين بالانشغال التام بلعب الدمنو.. فى حين أنهم كانوا هناك ليسترقوا السمع على ما يقوله رواد المقهى ويتجسسوا

عليهم.. كان هذا نوع من التجسس الغريب الذى قامت به بعض البلديات ومراكز الأمن فى تلك الفترة على مواطنيهم الكرام..

وبرغم أن خبر الرجال، الجواسيس الأربعة، قد شاع بين رواد المقهى وسكان الحى، فإنهم لم يكفوا عن التظاهر بالانشغال بلعب الدمنو.. وشعر طارق نحوهم بمزيد من الاشمئزاز عندما رآهم أثناء رفع الأذان يتركون مائدتهم ويهرعون إلى الجامع متظاهرين بالتقوى.

وذات مساء فوجئ طارق بمحمود يزوره فى غرفته، وكان قد كف عن زيارته، منذ أن تزوجت سامية، وبدا محمود قلقا مرتبكا وراح يتفحص محتويات الغرفة وقال :

- لاشىء جديدًا، سوى أن مزيدًا من الكتب وضعت على مزيد من الرفوف.

فقال طارق :

- ولكن هذا جيد وجديد ومتجدد.

- حتى فى هذه الظروف.

- فى جميع الظروف وخصوصا فى ظروف كهذه.

فقال محمود :

- اسمع يا طارق، الحقيقة جئتك بسبب هذه الظروف.

- خير..

- هل رأيت الرجال الأربعة الذين لايفارقون المقهى فى المدة الأخيرة..

- طبعا..
- وهل تعرف لماذا أتوا حينا ؟

فقال طارق فى اشمئزاز :

- طبعا ، فهم مجموعة من السخفاء ترسلهم الحكومة للقيام بعمليات تجسس سخيفة على المواطنين..

فقال محمود :

- هم كذلك ، ولكنهم أتوا إلى حينا من أجل شخص واحد :

- من ؟

- فتحى..

فقال طارق بدهشة :

- فتحى..

- نعم ، فتحى بن على صديقك ولا أحد غيره..

- ولكن لماذا ؟

فتنهد محمود تنهيدة طويلة وقال :

- ألا تعلم، ألا تعلم أن فتحى أصبح يمثل الاتحاد فى الشركة..

فقال طارق :

- سمعت من طاهر، أما هو فلم يحدثنى فى هذا الموضوع. فقال محمود وقد بدأ ينفعل.

- إنه لا يكتفى بتمثيل الاتحاد فقط، بل راح يلعب لعبة خطيرة..

- أية لعبة؟

- إنه يلعب لعبة البطل، صديقك يريد أن يصبح بطلا وطنيا.. تصور أنه يجمع العمال، مساء ويلقى فيهم خطابا.

فقاطعه طارق ذاهلا.

- خطابًا..

- نعم خطاب، وخطاب حماسى يحث العمال على الصمود فى وجه الاستغلال.. ويتهجم على زوج أختى.. وعلى المسئولين فى الشركة والحكومة.. وقد قال لى زوج أختى الأحسن أن أبتعد عن فتحى لأنه شيوعى.. وهذا صحيح.. ففتحى لا أعرف كيف عثر على كتاب لعين اسمه (الكتاب الأحمر) فراح يبتر منه جملا ويعيدها على العمال وكأنها من تأليفه الخاص.

فقال طارق مقاطعًا :

- محمود، ألا تبالغ.. ففتحى ليس مجنونًا.

فصاح محمود.

- أعلم ياسيدى إنه جن.. بإمكانك أن تأتى للشركة مساء السبت وسترى وتسمع ما يذهلك، لقد حفظ الكتاب الأحمر وكأنه قرآن.. والمدهش أننى لما حاولت، نصحه طلب منى ألا أخاطبه أمام العمال، لأن ذلك يسىء إليه باعتبارى صهر أحمد الدريدى مدير عام الشركة..

فقال طارق :

- أرجو أن تغفر له هذا الكلام، فهو فى الأيام الأولى للحماس وبعد أيام

سيفتر حماسه ويعود كما كان.. فصاح محمود.

- إنه لن يعود كما كان.. إنه مندفع فى طريق لا رجوع منه بسلام.. وهو فوق هذا، لا يبالى بشىء، منذ أن دخل النقابة راح يتصرف وكأنه زعيم ثورة.. لا تستطيع أن تتصور الكلام الذى يتفوه به وسط العشرات من العمال مع العلم أن نصفهم على الأقل من الوشاة، الذين ينقلون ما يقوله لهم إلى من يهمهم الأمر.

وعندما أخبرته بهذا، قال لى كلام غريب.

قال لى - إن هؤلاء الناس لم يفهموا بعد، إن قوة جديدة نمت فى البلاد وإن هذا العصر ولى.

يتصور المغفل أن الحكومة خائفة من الاتحاد وغير قادرة عليه.. لقد قال لى أحمد : إن الحكومة تنتظر فرصة لضرب الاتحاد وحله، وهى إن لم تفعل ذلك الآن فلأنها تراعى رد الفعل العالمى وليس لأنها خائفة من الاتحاد كما يتوهم فتحى.

ولكن فتحى لا يصدق، وكلما نقلت له ما أسمع من أحمد. يقول لى : هل تريد تخويفى أم ماذا ؟ تصور.. إنه يصدق ما يقوله له أصحاب النقابة، بأن الاتحاد أصبح قوة لا تقهر.. وأنهم قادرون على شل البلاد إذا أرادوا.. وقد قلت له البارحة :

إذا وقعت صدامات مع الحكومة ورجال البوليس، فإن هؤلاء الذين يصفقون لك الآن سيكونون أول من يفر إلى بيته وأول من يشهد ضدك..

فتصور ماذا كان رده.

لقد قال لى :

- ومن أين لبرجوازى مثلك أن يعرف ويقدر قوة العمال الحقيقية.

يقول هذا الكلام لى أنا.. صديقه الذى ولد ونشأ معه فى نفس الحى وذهب معه لنفس الكتاب ونفس المدرسة ويشتغل معه فى نفس الشركة، ونسى أننى أنا الذى وجدت له عملا هناك.. ولهذا زوج أختى غاضب على، يقول إنى أقيم علاقات صداقة مع الخونة والحساد.. والآن ما رأيك ياطارق فى هذا ؟

فصمت طارق، باحثا عن كلمات مناسبة، فلم يكن ينتظر ولا يحب أن يقحم فى هذا الموضوع.. ثم قال :

- على كل حال سأتحدث معه فى هذا.

وهنا قهقه محمود فى سخرية وقال :

- تظن أنه سيتحدث معك أنت فى هذا الموضوع.

فقال طارق بدهشة :

- ولم لا ؟

- لأن صديقك يظن نفسه أصبح زعيما يقود ثورة وسوف يرفض التحدث معك فى هذا، لأنه راح يشبهك « بأبو نواس » فقال طارق فى فزع :

- أبو نواس..

- نعم أبو نواس، أتذكر قصيدتك الأخيرة ؟

- طبعا أذكرها.

- لقد قال فتحى بعد أن قرأها، إن طارق أصبح «أبو نواس» آخر..

ولما سألته لماذا يقول هذا الكلام، قال لى :

- إن «أبو نواس» عاش فى عصر كثرت فيه المؤامرات والدسائس والخيانات ولم يجد شيئًا يكتب فيه أشعاره غير الخمر.. وطارق يعيش فى بلد، كثرت فيه الإضرابات والمظاهرات والمؤامرات، ولم يجد شيئا يكتب فيه أشعاره غير الحب..

فقال طارق :

- لا أستطيع أن أتصور، أن فتحى يقول عنى إنى «أبو نواس» آخر...

فقال محمود بإصرار:

- لقد قال ذلك، وهو لا شىء بالقياس لما يقوله عنى.. فأنا أصبحت فى نظره رمزا للاستغلال.. وعلى كل حال يجب أن تتحدث معه، وحاول إقناعه بأن يكف عن شتم صهرى.. فهو يقود ضده حربًا حقيقية.. فجأة أصبح عدوه اللدود، أحمد الدريدى.. وليعلم أن زوج أختى أيضا يكرهه.. وهو أيضا أصبح يهدد وأنا أخذت بين نارين، صديقى وزوج أختى وكلاهما يتهمنى بأنى مع الآخر وضده.. فأرجو أن تساعدنى..

فقال طارق:

- سأرى فتحى غدا وسأتحدث معه وسأحاول إقناعه بالهدوء..

فقال محمود بلهجة جديدة لم يسمعها طارق من قبل لهجة فيها شىء من التهديد، الذى وجده غريبا، قال:

- يجب أن تقنعه وإلا فنهايته ستكون قاسية...

ففضل طارق الصمت وعدم الرد على هذا التهديد.. عندها حياه محمود وغادر الغرفة وهو يقول:

- قل له الحقيقة، قل له إنه ليس قويا ولا زعيما...

* * *

عندما ذهب طارق فى الغد لزيارة فتحى فى غرفته، وجده منهمكا فى قراءة جريدة الاتحاد..

ولما رأى طارق يدخل، نهض لاستقباله وهو يقول:

- سيضربون عن العمل، عمال شركة النقل..

فتساءل طارق قائلا:

- ولماذا يسعدك هذا الخبر؟

- وأنت ألا يسعدك..

- لا يسعدنى كثيرا، فإذا كانت هناك إضرابات فمعنى هذا، أن بلادنا تعيش ظروفا قلقة صعبة وهذا لا يمكن أن يكون سببا يدعو للسرور...

فقال فتحى:

- هذا إذا نظرنا للأحداث، بطريقتك الشاعرية، أما إذا نظرنا إليها، نظرة واقعية عملية، سنرى معناها أن شعبنا يتحرك ويأخذ بزمام الأمور ويتقدم..

فانتابت طارق رغبة فى السخرية من هذا الحماس الفياض.

وقال:

- وإلى أين نمضى؟

ولكن فتحى تجاهل سخريته وواصل بنفس الحماس.

- إلى التقدم إلى الازدهار إلى الحرية..

فقال طارق:

- إلى الحرية.. لقد وصلنا بسرعة للموضوع الذى جئت من أجله، ولكن دعنى أقل لك أولا، إننى زرت سمير فى السجن البارحة وهو يتساءل عن سبب عدم زيارتك له؟

فقال فتحى بثقة:

- سيعذرنى سمير، عندما يعلم بماذا كنت مشغولا؟

- آه، اطمئن من هذه الناحية، فسمير يعلم بماذا كنت مشغولا، كما يعلم كل الناس، فأنت لم تحاول قط إخفاء ما تفعل..

فتساءل فتحى.

- ولماذا تريد منى أن أخفى ما أفعل، ألست أقوم بعمل نبيل؟.

- صحيح، إن الدفاع عن حقوق العمل والعمال هو عمل نبيل ولكن عليك أن تكون واقعيا وتفهم دورك وحدودك.. لقد مررت بالشركة مساء اليوم ورأيتك كيف تدافع عن حقوق العمال واستمعت إليك وأنت تردد عليهم جملا ومختارات من الكتاب الأحمر.. فهل أنت تدافع عن حقوق العمال أم تطالب بتحرير الصين؟

فقال فتحى:

- كيف سنحصل على حقوقنا بدون الحرية..

فقال طارق بحدة:

- أية حرية.. إنك تقوم بعمل نقابى، أى عندك أشياء معينة تطالب بها،

كالترفيع فى الأجور وتحسين ظروف العمل.. إلى آخره. أما أن تروح تشتم أشخاصا معينين وتذكرهم بالاسم وتهتف كالمجنون.. نريد الحرية.. الحرية أو لا شيء.. فهذا غباء خطير.. فَمِن مَنْ تطلب الحرية؟.

فصرخ فتحى مقاطعا.

- الحرية تؤخذ بالقوة ولا تطلب من أحد..

- وبأية قوة ستأخذها؟

- بقوة الشعب..

أى شعب.. دلنى على شخصين فى حينا مثلك مستعدين لمواجهة جميع المخاطر فى سبيل الحرية التى تطالب بها.

فقال فتحى ساخرا:

- ومن أين لشاعر مثلك أن يعرف على ما إذا كان هذا الشعب قادرا إنك تعيش فى عالم من الأوهام، عالم من قصائد الحب الساذجة.. إن بلدك يعيش ظروف ثورة حقيقية.. وأبناء بلدك يموتون كل يوم.. وأنت ماذا تفعل، تواصل كتابة قصائد الحب التافهة.. وكأنك تعيش فى الجنة نفسها...

دعنى أقل لك، إنه لا يوجد أى ثورة فى هذا البلد، لا حقيقية ولا خيالية، لا وجود لأى ثورة إلا فى رأسك..

- على كل حال، أنا أحاول أن أفعل شيئا جيدا، أما أنت فماذا تفعل؟ لقد قرأت قصيدتك الأخيرة وشعرت بكثير من الاشمئزاز وأنا أقرأها.. إنك تذكرنى..

وصمت، فواصل طارق قائلا:

- إنى أذكرك بأبو نواس، أليس كذلك؟

فهتف فتحى.

- آه فهمت.. لقد قال لك محمود، ولعله هو الذى أرسلك ولكن دعنى أقل لك، ألا تصدق كل ما يقول محمود، فهو تغير كثيرا، منذ أن تزوجت شقيقته ذلك السخيف أحمد، لقد ذاق طعم الفلوس ولم يعد كما كان..

فقال طارق:

- الذى يهمنى الآن، هو أنت، إنى أراك مندفعا فى طريق خطرة دون أى تقدير للعواقب..

فقال فتحى:

اسمع يا طارق الأحسن أن تتركنى أفعل ما يحلو لى كما أتركك تفعل ما يحلو لك، وهى طريقة ستجعلنا نحتفظ بصداقيتنا فى هذه الظروف الصعبة، وإذا كان اندفاعى لا يعجبك، فإن خمولك وبقاءك على الحياد لا يعجبنى، ولهذا ليفعل كل منا ما يحلو له ويحتفظ باحترامه للآخر...

فنهض طارق واقفا وقال:

- حسنا، ولكن دعنى أقل لك مرة أخرى، اهدأ قليلا وفكر جيدا قبل فوات الأوان وتصرف بحكمة فى هذه الظروف الصعبة - كما قلت -

فقال فتحى:

- لا تقلق كثيرا.. فإنى أعرف جيدا ما أفعل وما أقول وقد يكون خطيرا.. ولكنى مؤمن بما أفعل ومستعد لمواجهة أى خطر...

فقال طارق:

- الشجاعة، ليست أن يلقى الإنسان بنفسه فى النار. يجب أن تفهم جيدا، أنك، أنت والاتحاد لا تستطيعان القيام بشىء كبير.. وذات مساء

ستجد نفسك فى السجن قبل أن تعرف لماذا؟

فعادت الحدة لفتحى وهو يقول:

- إنى أعذرك يا طارق، فأنت لم تفهم بعد، حجم التغير الذى حدث ويحدث.. فى تونس، إنك مشغول بقصص الغرام وقصائد الحب والهيام.. ودعنى أقل لك إن السجن لم يعد يخيف أحدا.. لأننا كلنا نعيش داخل سجن كبير اسمه تونس.. وعندما تأتى اللحظة المناسبة، سيثور الشعب ويتغير كل شىء..

فصرخ طارق.

- ما هذا الغباء يا فتحى.. عن أى ثورة تتحدث؟

فالاتحاد نفسه لا يطالب بثورة، إنه يطالب بالترفيع فى الأجور وتحسين ظروف العمل والعمال وهى مطالب مشروعة، يمكن مناقشتها.. أما هذا الكلام الخطير الذى ترددة ببساطة، سيكلفك الكثير.. وعندما تأتى اللحظة المناسبة - كما قلت - ستجد نفسك وحيدا... وسيحاسبونك على كل كلمة تفوهت بها، ولن يكون هناك أحد غيرك يطالب بثورة..

فعاد فتحى للسخرية وهو يقول:

- هيا يا أستاذ طارق، أعطنى دروسا أخرى، فحضرتك قرأت بضع كتب وكتبت قصائد فى الحب...

ثم فى حدة:

- ولكن يجب أن تعلم، أنه عندما تأتى تلك اللحظة.. فسوف لن أجد نفسى وحيدا - كما تتوهم.. لأن السجون يومها ستمتلىء بمن ناضلوا ومن لم يناضلوا.. كلنا سنلقى نفس المعاملة، الذين تفوهوا بكلمات معادية والذين لم

يتفوهوا بشيء.. وإذا كنت تظن ببقائك على الحياد، ستجنى السلامة.. فإنك مخطيء.. وبما أنك تحب القصص، سأروى لك واحدة عن الحياد فى مثل هذه الظروف..

هناك قرية فى أحد بلدان أمريكا الجنوبية، تقع على الحدود.. وكانت فى ذلك البلد ثورة مسلحة... واختار سكان تلك القرية أن يظلوا على الحياد.. فلم ينضموا للثورة ولم يساندوا الحكومة.. وأحيانا كان الثوار، يجتازون الحدود ويدخلون تلك القرية.. فيقتلون من يظنون أنه يتعاون مع الحكومة ويأخذون ما يشاءون من ماشية ومواد غذائية وينصرفون.. وبعد ذهابهم، تأتى القوات الحكومية، فتقتل بدورها من تظن أنه يتعاون مع الثوار.. وتسرق الفلاحين. وتغتصب نساءهم وتقتل شبابهم.. وهكذا وبعد سنتين من الحياد، قتلوا معظم سكان القرية وشردوا البقية ولم يبق فيها إلا بضع شيوخ وعجزة..

أفرأيت ماذا يفعل الحياد فى مثل هذه الظروف؟

فقال طارق:

- ولكن يا فتحى، نحن لسنا فى أمريكا الجنوبية.. ولا توجد هنا ثورة مسلحة ولا ثوار.. ليس هنا إلا قوة واحدة وهى الجيش والبوليس وكلاهما تسيطر عليه الحكومة.. التى ترغب أنت (بمفردك) الثورة عليها.. صدقنى أن الحكومة لا تقيم أى وزن للاتحاد؛ وهى تنتظر الفرصة للانقضاض عليه وضربه وحله.. ثم تنفرد بأمثالك ويومها سوف لن يهتم بأمركم أحد فى هذا العالم... فكل القوى التقدمية والنقابية العالمية، ستركز جهودهما على محاولة الانقضاض على حياة المسئولين الكبار فى الاتحاد..

أما أنت وأمثالك فلن يهتم بكم أحد.. غير عائلتكم.. وأنت تعلم أنها غير

قادرة على فعل شيء من أجلكم غير الحزن والبكاء.. ففكر جيدا قبل أن تندفع فى القيام بعمل يائس، وفكر خصوصا فى عائلتك وأصدقائك والناس الذين يؤذيهم ما يؤذيك..

فبدا التأثر واضحا على ملامح فتحى وهو يستمع لطارق.

ولكنه قال بعناد:

- إنى أفكر فيهم، وإلا فمن أجل من أنا أقوم بهذا العمل أليس من أجلهم؟ أليس من أجل غد أفضل لهم ولكل أبناء الشعب التونسى؟ إنى أفكر فيهم بطريقة جيدة.

فصرخ طارق بعصبية.

- ولكنك تقوم بعمل يائس.. يائس، أتفهم ما معنى يائس فقال فتحى فى بساطة:

- ولكن الأشياء لا تتغير، إلا إذا قمنا بعمل ما، حتى ولو كان يائسا.. لأن هذا العمل الذى نقوم به الآن، سيكون عملا تمهيديا.. إنه الخطوات الأولى فى طريق طويل..

فهتف طارق بدهشة.

- ما هذا الكلام الخطير، الذى ترده ببساطة؟ دعنى أذكرك. إذا كنت نسيت.. أنك طردت من المدرسة لسبب كهذا.. ولم تمهد الطريق لشيء.. فالأشياء فى المدارس والجامعات لا تزال كما تركتها، لم يتغير شيء.. لأن التغير لا يحدث فى مجتمع ما لأن شخصا أو مجموعة من الأشخاص المتحمسين أرادوا الثورة والتغير.. أؤكد لك أن الذين يصفقون لك الآن سيكونون أول الهاربين عندما تطلق أول رصاصة فى الفضاء.. لأنهم لا يؤمنون بالتغير ولا يفكرون فى الثورة ولا حتى فى الحرية...

فعاد فتحى للسخرية قائلا:

- شكرا يا أستاذ طارق على بلاغتك الرائعة، ولكن دعنى أقل لك : إذا كنت تظن أنك ببلاغتك هذه ستغير رأيا.. فقد خاب ظنك، لأنى تعودت على هذه البلاغة الفارغة وهذا الكلام على الهواء، فعندما كنت فى المدرسة كان بعض الأساتذة يحدثوننا عن الحرية بحماس عظيم فى حين كانوا يتصرفون كالعبيد.. ولهذا أقترح أن تكف عن إسداء النصائح لى، لأنى لن أتراجع عن هذا العمل النبيل..

فحياه طارق وغادر الغرفة وهو يقول:

- ولكن تستطيع أن تهدأ قليلا:

فقال فتحى وهو يودعه.

- سأحاول..

فى صباح مشمس من أحد أيام جانفى ١٩٧٨.

كان الاتحاد قد أعلن أن ذلك اليوم سيكون، يوم إضراب عام فى كل الجمهورية فى جميع القطاعات، برغم معارضة الحكومة وتهديداتها..

ومنذ الصباح الباكر راح العمال والمتعاطفون معهم يتجمعون أمام مقر نقابة العاصمة، حيث سيلقى رئيس الاتحاد الحبيب عاشور، خطابا هاما.. وقامت قوات الشرطة بإقامة حواجز أمام الطرق المؤدية للمبنى..

وفى ذلك اليوم نزل طارق للعاصمة، لمشاهدة ماذا سيحدث؟ وقرر أن يتجول قليلا فى شوارع وأنهج العاصمة قبل التوجه لحضور الاجتماع والاستماع للخطاب الهام..

ولما كان صاعدا شارع مدريد، إذ اعترضته موجة من البشر، يقودها

مجموعة من الشباب المتحمس وراحوا يهتفون ويرددون هتافهم... يحيا الوطن.. يحيا الوطن... ووسط صراخهم وضجيجهم.. سمع طارق بصورة لا خطأ معها - سمع صوت رصاصات وهى تلعلع وراءهم.. فتراجع القهقرى خائفا... وحملته الموجة معها.. وتاه وسطهم، ودفعته المرافق والأقدام الخائفة.. وهزته الأغانى الحماسية، فمضى معهم دون أن يدرى إلى أين هم ذاهبون.. ومضوا فى صراخهم وأغانيهم، حتى اعترضهم حاجز أقامته مجموعة من رجال الـ (ب..ب) وهم رجال شرطة مدربون ومجهزون لقمع المظاهرات...

ولما حاول رجال الـ (ب..ب) تفريق التجمع بعصيهم الغليظة، رد عليهم المتظاهرون بالحجارة وفى الحال.. لعلعت رصاصات فى الفضاء.. فى الأول.. ثم انهالت القنابل المسيلة للدموع على المتظاهرين..

ووقعت واحدة قرب طارق، ولما حاول دفعها بساقه بعيدا صعد دخانها إلى وجهه.. فعطس وبزق وأحس بحريق فى عينيه وجف حلقه.. فاستدار مبتعدا عن المظاهرة.. والمتظاهرين.. دائخا.. مصدوما.. ولما استفاق وعاد إليه وعيه.. وجد نفسه قد بلغ باب سويقة.. فتساءل ماذا يفعل هنا؟ ومن أحد الأنهج الصغيرة، خرجت مجموعة من الشباب الهائجين واندفعوا فى الحى العتيق.. صارخين.. يحيا الوطن... يحيا الوطن.. وراحوا يلقون بالحجارة على المغازات والدكاكين.. مرددين.. الله أكبر... الله أكبر... ومن مكان ما.. لعلع الرصاص من جديد.. ومن جديد انتاب الخوف طارق فهرول صاعدا الطريق.. ومن بعيد رأى بأم عينيه.. ولأول مرة فى حياته... بمثل هذا القرب.. رأى مجموعة من الدبابات وهى تنزل باب سعدون فى طريقها لوسط العاصمة.. فتساءل بذهول، هل نزل الجيش إلى الشوارع ماذا يحدث

يا رب فى بلده.. هل هى حرب أهلية...

مضى مبتعدا، محاولا تحاشى المظاهرات... وفى أحد الأنهج اعترضته مظاهرة أخرى وجهتها مجموعة من رجال الشرطة العسكرية، وراح المتظاهرون يهزون أيديهم وينشدون.. حماة الحمى... وفجأة اندفع شاب من بين صفوف المتظاهرين وألقى بقارورة على أحد جنود الشرطة العسكرية.. وهنا رفع الجندى بندقيته وصوبها نحوى الشاب ثم... أطلق النار.. وفى لحظة صادمة خر الشاب صريعا.. هوى بلا مقاومة وسال دم أحمر حار ساخنا على قميصه الأبيض فصبغه بلون الموت... وبدت الصدمة واضحة على ملامح الضحية، وكأنه لا يصدق هذا الذى حدث له.. واندفع أربعة شباب وحملوا القتيل على أكتافهم وهم يهتفون.. الله أكبر... الله أكبر... ثم حدث الصدام غير المتكافىء.. حجارة وقوارير من ناحية.. ورصاص وقنابل مسيلة للدموع من الناحية الأخرى..

ولما رأى طارق ذلك حدث أمامه، انتابه رعب عظيم واندفع يجرى هاربا، خائفا أن تصيبه رصاصة طائشة فيموت وهو لم يبلغ بعد العشرين... ولم يتوقف عن الجرى حتى بلغ باب البحر.. وهناك وجد الشارع الرئيسى قد أقفر.. ورأى سيارات عديدة أحرقت ومغازات كسرت وأضرم فى بعضها النار.. ورأى سيارات الإسعاف وهى تحمل عدة من المصابين وكأن حربا وقعت هنا.. وشاهد الجنود وهم يتمركزون فى الممرات الرئيسية ومر أمام مجموعة منهم خائفا أن يكلمه أحدهم... ولم يشعر بشىء من الراحة إلا لما ركب القطار عائدا إلى الكرم...

* * *

وهناك وجد أبناء حيه هائجين وعلم أن الاضطرابات شملت جميع مدن

الجمهورية وأن القتلى فى كل مكان.. وتحدثت الإذاعات الأجنبية عن ألفى قتيل سقطوا فى ذلك اليوم المشئوم..

وأعلنت الأحكام العرفية ومنع التجول من السادسة مساء إلى الخامسة صباحا.. كما منع التجمع.. وفى تلك الليلة وقعت مداهمات لبعض البيوت، حيث ألقى القبض على جميع المسئولين فى الاتحاد من الرئيس الحبيب عاشور إلى آخر مسئول.. وكان من بين الذين ألقى عليهم القبض تلك الليلة فتحى بن على..

ولما علم طارق بالخبر شعر بخوف كبير على صديقه وعلى نفسه برغم أنه لم ينخرط قط فى الاتحاد.. وفى الغد ذهب إلى العمل ككل صباح، وعند الساعة العاشرة، دخل المحل شرطيان وسأل أحدهما بعجرفة - من هنا اسمه، طارق بن يوسف... ولما أجابه طارق، طلب منه أن يتبعهما إلى المركز.. ومن الطريقة التى أمسكاه بها، كل واحد منهما أمسك كتفا من كتفى طارق، أدرك طارق أن الشرطيين لا يصحبانه إلى نزهة على حافة البحر... وسار وسطهما صامتا ذاهلا.. لا يدرى لماذا قبضوا عليه ولم يجرؤ على سؤالهما ولما صعدوا الدرجات الأربعة للباب الخارجى للمركز وجد طارق أن الممر هناك سد مدخلاه بمجموعة كبيرة من الشباب، كما أن سيارتين من سيارات الشرطة تقفان أمام الباب الخارجى، كانت هى أيضا قد أتت بحمولة أخرى من الشباب... واستطاع طارق أن يرى المكاتب وقد اكتظت بالشباب.. وكان التحقيق يجرى مع مجموعة منهم فى حين وقف الآخرون ينتظرون دورهم فى صمت وذهول... و وشق الشرطيان طريقا لهم فى الزحام دون أن يتركا كتفى طارق لحظة وكأنه مجرم خطير...

وأوقفاه أمام مكتب على اليسار، استطاع طارق أن يقرأ لفتة ثبتت على

الباب كتب عليها (رئيس المركز).

وقام أحدهما بفتح الباب فى حين دفع الآخر بطارق إلى الداخل فى عنف.. وبينما هو مندفع إلى الداخل وقد فاجأه عنف الحركة.. إذ بساق تعترض طريقه.. فاختل توازنه وسقط على أرض الحجرة العارية فى عنف. ولما رفع رأسه رأى...

كان أمامه مكتب وخلف المكتب جلس رجل فى العقد الرابع.. يضع على عينيه نظارة طبية.. ويرتدى بدلة زرقاء أنيقة ورابطة عنق زرقاء هى الأخرى... وراح الرجل يتفحص طارق بدهشة مبالغ فيها... وبين يديه مجموعة من الأوراق... راح يلقى عليها بنظرة صغيرة ثم يعود وينظر لطارق... وظل طارق راكعا على ركبتيه حائرا.. لا يدرى هل يقف.. هل يسأل لماذا هو هنا؟ ولكنه لم يفعل شيئا... ولما طال صمت الرجل قرر طارق النهوض.. فتكاسل واقفا..

وهنا حول الرجل بصره عن طارق وسأل الشرطيين بدهشته المبالغ فيها..

- أهذا هو طارق بن يوسف؟

فأجابه أحدهما. فى حين قام الآخر بغلق الباب..

- نعم هذا هو طارق بن يوسف.. وعاد الرجل - الذى بدا واضحا أنه هو رئيس المركز - عاد ببصره لطارق قائلا:

- إذن أنت هو شاعر الجماعة... فتساءل طارق على فور بذهول.

- أية جماعة؟ فهز الرجل الخطير، حاجبيه ورأسه معا قائلا:

- آه.. أية جماعة.. ألا تعرف فتحى بن على وجماعته؟.. فقال طارق:

- إن فتحى بن على صديقى ولكن لا أعرف له جماعة... فعاد الرجل يهز رأسه فى حركة تكاد تكون بهلوانية وأشار إلى الأوراق فوق مكتبه قائلا:

- ألست أنت من كتب هذا الكلام... فاقترب طارق فى خوف من المكتب وألقى بنظرة إلى الأوراق المشار إليها وصدم.. صدم صدمة كبيرة.. أخرسته... فقد كانت هناك فوق مكتب رئيس المركز.. أوراقه... أوراقه الخاصة الحميمة.. التى لم يحلم قط أن يجدها فى مكان آخر.. غير حقيبته الصغيرة المعلقة فى غرفته فوق سريره... إنها قصص وقصائد وخواطر.. وأفكار.. أوراق صغيرة حميمة كتبها طارق فى فترات متباعدة ويحتفظ بها لنفسه فقط.. هذه الأوراق العزيزة الخاصة.. تطفل عليها هؤلاء الرجال وأتوا بها إلى رئيسهم.. لسبب مجهول..

ولما طال صمت طارق صرخ فيه رئيس المركز.

- هل أنت الذى كتب هذا؟

فقال طارق ولم تزايله الدهشة:

- نعم، إنها أوراقى.. ولكن ماذا تفعل هنا؟ فشتمه الرجل بحدة قائلا:

- نحن الذين يلقون الأسئلة هنا يا بن.... وشعر طارق بالخوف يسيطر عليه من جديد.. ولزم الصمت وأخرج الرجل من بين الأوراق الخاصة لطارق، قصيدة كتبها طارق منذ مدة بعيدة ونسيها بين أوراقه..

أخرج رئيس المركز الآن فى ضيق وهو يقول مهتاجا..

- أنت.. أنت الذى كتب هذا الكلام...

فأجاب طارق بنعم، دون أن يدرى سبب اهتمام رئيس المركز بهذه القصيدة بالذات... عندها قال رئيس المركز للشرطيين:

- اسمعا ماذا يكتب عنا هذا الشاعر... وراح يقرأ عليهما قصيدة طارق - حبيبتى الحرية..

.... لحبك الأزلى...
.... سأعشق أحزانى...
.... وعن آلامى...
.... سأكتب مجلدات...
.... ومن مأساتى أخترع
.... أروع الكلمات...
.... لأغنيك مدى الحياة...
.... لأغنيك لحد الممات...
.... ومن قيودى أصنع لك...
.... جناحين لتطيرى...
.... لكل مكان...
.... فيه شعب يكبله الطغاة...
.... فتحدثيه عن سر الحياة...

وما أن أنهى الرجل قراءة القصيدة حتى صرخ فى هياج - نحن طغاة.. يا كلب.. نحن طغاة... فقال طارق فى رعب:

- أقسم لك أننى لم أقصد شيئا مما ذهبت إليه... كنت أظنها مجرد قصيدة بسيطة تافهة... ولكن استعطاف طارق، لم يزد الرجل إلا هياجا وصرخ..

- إنها تافهة، كما أنك تافه... تافه..

وعاد يخرج من بين الأوراق ورقة أخرى فى عصبية وهو يقول:

- وهذه... وهذه.. ماذا عنيت بها.. وأخرج هذه المرة، قصة قصيرة

بعنوان (فى القطار) وكانت فى القطار، قصة قصيرة، كتبها طارق بأسلوب ساخر.. تتحدث عن قصة قطار تأخر أربع ساعات عن موعده، لأن السائق نائم.. ولم يجرؤ أحد على إيقاظه. والآن فقد أشار إليها رئيس المركز وهو يصيح - من.. من هو السائق النائم يا كلب.. من؟

فقال طارق وقد أذهله البعد الذى أخذته أوراقه البسيطة...

- إنها الرتابة.. عنيت الرتابة... فصرخ الرجل متسائلا.

- ما الرتابة هذه؟ لماذا تتكلم بالنحوى؟ فقال طارق موضحا:

- أعنى الروتين... فصرخ الرجل.

- كذبت.. كذبت والله كذبت.. هل تظننا مغفلين.. إننا نفهم كل شىء.. نفهم الغمز واللمز.. إنك بحديثك عن السائق النائم، كنت تعنى سيادة الرئيس...

وأوشك طارق أن يقع من هول التهمة الخطرة، التى ألصقها به هذا الرجل فى بساطة وجهل.. وصرخ.

- الرئيس... فضرب الرجل المائدة بقبضته فى تعسف قائلا:

- نعم، إنك تتهجم على سيادة الرئيس... فما القطار غير المجتمع ومن هو السائق الذى يقود المجتمع إلا سيادة الرئيس.. وعاد يصرخ.

- أتتهجم على سيادة الرئيس يا كلب يا بن الكلب.. سنؤدبك.. سترى... فصرخ طارق فى ذعر.

- أقسم لك أنى لم أتهجم على أحد.. وعلى الأخص لم أقصد فقط سيادة الرئيس...

ولكن الرجل تجاهله فى ازدراء، وأشار للشرطيين اللذين كانا يقفان ينتظران هذه الإشارة.. فما أن أتى بها رئيس المركز حتى انقضا على طارق وراحا يصفعانه ويلكمانه ويرسلانه أرضا ثم يرفسانه بأحذيتهم بلا رحمة.. وسال الدم والدمع والعرق.. وتساءل ذاهلا لماذا يضربانه بهذه الوحشية.. إنه لا يعرف هؤلاء الناس.. ولم يسبق له أن أساء معاملة أحدهم.. فلماذا يعاملانه وكأنه عدوهم اللدود.. لماذا يجدان متعة فى ضربه وإهانته والدوس على كرامته.. أليس هو مواطنا؟ أليست له حقوق على هؤلاء الناس؟ أليس البوليس جعل ليكون فى خدمة المواطنين؟ ليحمى أمنهم ويصون كرامتهم.. إذن لماذا يهينونه هم أنفسهم.. كان من المفروض أن يحموه...

ولما سقط أرضا - دون أن يجد جوابا على أسئلته.. كان الآن منهوك القوى والمعنويات.. ذليلا مصدوما.. خائفا أن يقتلاه.. وأمسك أخيرا الشرطيان عن ضربه... وقام الرجل من كرسيه، بعد أن تمتع بالمشاهدة... ووقف عند رأس طارق وهو طريح جريح.. مهان وقال له:

- هذا جزاء لك على تهجمك على سيادة الرئيس، أما دعواتك للثورة والحرية.. فستحاسبك عليها المحكمة ثم قال للشرطيين:

- خذوه...

فقام الشرطيان بسحبه خارج المكتب وقاداه إلى سجن المركز الصغير المزدحم.. وفى السجن وجد طارق كثيرا من شباب الكرم.. ولكنه لم يجد فتحى.. وأدهشه أن يجد هناك صبيا من أبناء حيه لم يتجاوز الثانية عشرة سنة.. ولما سأله عن سبب وجوده هناك أخبره الصبى، أن سيارة الشرطة تقف أمام باب المقهى وإذا مر بهم شاب طلبوا منه بطاقة التعريف والذى لا يظهر هذه البطاقة يقبضون عليه.. ولما مر بهم الصبى وكان لا يملك بطاقة

تعريف بعد فقد قبضوا عليه لطول قامته وعبثا حاول إقناعهم بأنه لم يتجاوز الثانية عشرة...

ولاحظ طارق أنه كلما مرت دقائق زاد عدد المساجين فى السجن الصغير وارتفع عدد المجروحين من الضرب.. وكثر البكاء والعويل والخوف.. لا يدرى طارق كم ساعة أو دقيقة، مرت وهو قابع هناك فى إحدى زوايا السجن، جريح محتقر وقد جف دمه على جروحه ثم جاء شرطى وسأل بحدة:

- من منكم طارق بن يوسف؟

ولما يرز طارق من بين الصفوف، طلب منه الشرطى أن يتبعه.. وفتح له الباب.. سار طارق خلف الشرطى متسائلا عن سبب إخراجه من السجن.. وهو الذى كان متأكدا أنه سوف لن يخرج من هناك إلا بعد مدة طويلة، نظرا للتهم الخطرة التى ألصقت به، وقال لنفسه، لعل رئيس المركز لم يشف غليله منه بعد، ولهذا طلب إحضاره ليضرب مرة أخرى أمامه ويتمتع هو بالمشاهدة، التى بدا أنه راغب فيها. ولكن الشرطى أخذ طارق إلى حنفية وطلب منه أن ينظف عن وجهه الدماء التى جفت عليه... وأمام دهشة طارق العظيمة قام الشرطى بمساعدته على مسح الدم الذى سأل من أنفه وفمه...

وقال طارق إن أمر هؤلاء الناس غريب، لقد ضربوه وأسالوا دمه والآن يساعدونه على إخفاء وطمس معالم الجريمة.. عندما أدخل طارق مكتب رئيس المركز، بلطف هذه المرة.. وجد هناك إلى جانب الرجل المخيف، محمود ورجل آخر طويل عريض بوجهه الأسمر وشاربه القصير.. يقف هناك مشمخا، متأنقا، ونظارته السوداء لا تفارق عينيه.. وكان طارق يعلم أنه باستعماله الدائم لهذه النظارة، يحاول إخفاء التجاعيد حول عينيه.. التى لم

تنفع العقاقير فى إخفائها وإزالتها... وتساءل طارق، ماذا يفعل السيد أحمد هنا؟ لماذا تنازل وجاء بنفسه إلى هذا المركز، هل هو أيضا يهتم ويفهم فى الشعر والأدب..

وتقدم طارق نحوهم خائفا برغمه.. وكان فى تلك اللحظات الحرجة تحول إلى شخصين يشتركان فى جسد واحد.. كان يحتقرهما ويكرههما ولا يخشاهما بعقله.. فى حين كان جسده يرتعد خوفا وجبنا وكان قلبه ممزقا مضطربا بين الرغبة فى التحدى والرغبة فى الخروج من هذا المكان بأى ثمن...

وكان محمود أول المتكلمين، فقد سارع إلى طارق.. وصافحه قائلا وهو يبتسم ابتسامة عريضة دافئة - لا تقلق يا طارق لقد قرروا الإفراج عنك... وذهل طارق للطريقة التى تصرف بها محمود، فقد كان يتكلم ويتصرف وكأنه واحد منهم، واحد من هؤلاء الذين قرروا الإفراج عنه وكأن الرجلين صديقان له وهو يعد الآن تواطؤا مثيرا لطارق، لكى ينظم هو بدوره لهذه الصداقة ولكن طارق لا يستطيع أن ينسى، أن أحدهما ضربه وأهانه وشتمه ووجد متعة فى ذلك.. والآخر أخذ منه الفتاة الوحيدة التى أحب، وكان السبب فى سجن أحد أعز أصدقائه..

ظل طارق واقفا صامتا كصنم، وأنذره رئيس المركز بسبابته قائلا:

- اسمع جيدا ما سأقول، سنفرج عنك، إكراما للسيد أحمد الدريدى.. الذى تدخل لفائدتك.. ولكن لو سمعت أنك عدت للكتابة من هذا النوع.. سأجعلك تندم بأسرع مما تتوقع وسـ..

وقاطعه طارق فجأة وقد أفلتت منه أعصابه وسيطرته على نفسه وانفجرت عواطفه المكبوتة واندفع يقول فى حدة وتهور..

- إنى لم أكتب شيئا أستحق عليه العقاب.. لقد كتبت قصائد وقصصا صغيرة تافهة، وأنتم الذين شوهتموها بتفسيركم السيىء لها ولكل شىء.. أنتم الذين جعلتم منها قضية.. فضرب الرجل المكتب بقبضته وانتفض واقفا فى تعسف صارخا.

- اصمت... اصمت يا كلب.. اصمت، لا ترفع صوتك هنا.. ألا تعلم فى من تكلم.. أتريدنى أن أذكرك... ثم التفت للسيد أحمد قائلا بالفرنسية:

- ألم أقل لك، إنه وقح قذر.. ولم يرد أحمد بشىء... فتدخل محمود قائلا فى استعطاف:

- معذرة يا سيدى الرئيس... إنه لم يقصد الإساءة لأحد.. فعاد رئيس المركز إلى طارق متجاهلا محمود ونظراته المستعطفة.. وقال لى طارق وهو يشير نحوه بسبابته

- اسمع يا بنى... ألا تزال تحاول استبلاهنا؟ ألا تزال تصر على معاملتنا كأغبياء.. وضرب مكتبه بقبضته من جديد صائحا فى هياج.

- لا، لا، لا يا سيدى.. لسنا مغفلين كما تتصور.. نحن أيضا نقرأ الكتب ونفهم فى الأدب.. لست وحدك الذى يقرأ الكتب فى هذا البلد ويفهم رموزها.. صدق أو لا تصدق نحن أيضا نفهم... نفهم... نفهم.... فقال طارق بعناد وإصرار:

- ولكنى لم أكتب إلا قصائد وقصصا بسيطة... فصرخ الرجل فى زعيق.

- لا نريد منك أن تكتب شيئا على الإطلاق.. أتفهم، لا نريد هنا من يكتب شعرا ولا قصصا.. أما إذ تصر على الكتابة فاذهب لتعيش فى بلاد

أخرى.. فنحن هنا لسنا بحاجة لشعرك.. وإذا قبضنا عليك مرة أخرى سأقطع أصابعك.. ثم واصل حديثه متوجها به إلى محمود.

- تستطيع أن تأخذه وأنصحك أن تقنعه بعدم الكتابة فى هذا الموضوع مرة أخرى.. لأنه إذا حصل مرة أخرى فلن تستطيع إنقاذه..

فبالغ محمود فى شكر الرجل، ثم أمسك طارق من كتفه قائلا:

- هيا يا طارق، اطلب المعذرة... ولكن طارق حافظ على صمته، فتطلع إليه رئيس المركز بنظرات كلها انتظار.. واستدار إليه أحمد الدريدى يرمقه من وراء نظارته السوداء وكانت تلك أول مرة يتحرك فيها.. ولما طال صمت طارق راحت نظرات رئيس المركز تتجهم وتزداد حقدا.. وهز محمود كتف طارق هامسا - هيا تكلم.. تكلم.. عندما قال طارق وهو يشعر بالذل يغزو كبرياءه وهمهم قائلا:

- أرجو المعذرة يا سيد... ولم يستطع إكمال جملته، فقد كانت المهانة أعمق مما يحتمل بشر.. فهذا الرجل ضربه وأهانه وشتمه وسجنه بلا ذنب والآن ينتظر منه أن يطلب المعذرة... وصرخ الرجل فى غضب.

- اغرب عنى وجهك، لست بحاجة لاعتذارك.. اذهب من هنا. فتراجع طارق القهقرى وغادر المكتب مسرعا، يتبعه محمود والرجل يقول بالفرنسية للسيد أحمد الدريدى - يظن نفسه جريئا ذلك الأحمق، يتصور أنه بطل... عندما غادر طارق المركز، لحق به محمود وقال له غاضبا:

- لماذا؟ لماذا لم تشكره؟ وتعتذر.. فقال طارق بحدة:

- أشكره.. تريد أن أشكره، أشكر الرجل الذى ضربنى وأهاننى

وسجننى.. هذا الرجل تريد أن أشكره.. فقال محمود:

- كان يجب أن تعتذر إكراما لزوج أختى.. فصرخ طارق بآلامه:

- ولماذا تريدنى أن أكرم زوج أختك... فقال محمود بدهشة:

- لماذا؟ تقول لماذا؟ من تظن أخرجك من هناك.. أؤكد لك، لولا تدخله هو لما خرجت من هناك قبل أن تمضى عشرين سنة على الأقل... فقال طارق بفزع:

- ولكنى لم أفعل شيئا.. فقال محمود ساخرا من بساطة صديقه:

- لم تفعل شيئا.. وهل تظن أن السجون امتلأت بالذين فعلوا أشياء...

وعلى ذكر السجون بدا أن طارق تذكر شيئا هاما وهتف

- وفتحى.. هل رجوته أن يتوسط لفتحى.. فنظر إليه محمود نظرة كلها دهشة وذهول قائلا:

- مدهش جدا أن تفكر فى فتحى الآن.. ولكن عندى لك نبأ سيئ، فاعلم أن أحمد يمقت فتحى مقتا شديدا ويكره ذكر اسمه.. وقد قضيت أربع ساعات أنا وسامية نرجوه أن يتدخل لفائدتك أنت وطاهر ولم يوافق إلا بعد أن أكدت له أنك حاولت مرارا إقناع فتحى بالكف عن إثارة المشاكل فى شركته، وأحمد الآن لو طلبت منه أن يتدخل لفائدة فتحى ممكن جدا أن يسجننى معه.. ثم فتحى نقل للعاصمة وأصبح أمره بين يدى العدالة.. فصرخ طارق غير مصدق.

- العدالة.. أية عدالة التـ..

وقاطعه محمود برجاء.

- لا ترفع صوتك أرجوك، ثم ما ذنبى أنا، هم سموها هكذا. فقال طارق بمرارة: يبدو أن فتحى لم يعد يهمك أمره..

- يهمنى أمره، ولكن للأسف لا أستطيع أن أفعل من أجله شيئا..

- ولكن زوج أختك يستطيع..

- حتى ولو كان يستطيع فهو لا يفعل شيئا من أجل فتحى فقال طارق بحدة:

- إن زوج أختك رجل مريض، يريد أن ينتقم من شاب كل ما فعله هو المطالبة بتحسين الأجور للعمال، يريد أن يرسل إنسانا إلى السجن، ليقال عنه إنه قوى وقادر.. وأنت الآن تنحاز إلى الظالم ضد المظلوم وكأن فتحى عدوك اللدود.. كأنه لم يكن فقط صديقك... فهتف محمود. آه صديقى.. تقول صديقى.. كان صديقى.. ثم (دمر كل شىء كان بيننا). لماذا تظنه يثير المشاكل فى الشركة؟ هل تتصور حقا، أنه يحب الدفاع عن حقوق العمال.. هل تظن أن تحسين ظروف العمل غايته؟ لا يا سيدى لا.. إن صديقك حسدنى، منذ أن تزوجت أختى أحمد وأصبحت المسئول الثانى فى الشركة.. ظهرت فجأة عوارض الحب للحق والعدل عند صديقك.. لماذا لم يدافع عن شىء من قبل.. أجل لم يبدأ فى تخريب الشركة إلا بعد أن تزوجت أختى صاحبها وآلت أمورها لى فحسدنى وحقد على... واستمع طارق لمحمود وهو يهذى، استمع له صامتا حزينا وواصل محمود حديثه هامسا فى حقد، وكأنه يحدث نفسه ولا يبالى بوجود طارق بجانبه.. واصل حديثه الحاقد الغريب الجديد.. الذى لم يسمعه طارق من قبل ولكنه ذكره بحديث سامية أيام قبل زواجها.. وتساءل إذا كان الغدر والحقد من الأمراض الوراثية... قال محمود:

أجل حسدنى، حسدنى.. كلكم حسدتمونى... وبرغم هذا عندما علمت أنهم قبضوا عليك فعلت المستحيل لإخراجك... ثم فى حدة وقد توقف واستدار إلى طارق.

- وهو يا سيدى الذى أخرجك من هناك.. هو، الرجل الذى طالما حقدت عليه وحسدته.... فصرخ طارق.

- لم يحدث فقط أن حقدت على إنسان.. أما الحسد فأنا والحمد لله لا أعرفه، لأنه لا يوجد شخص فى العالم يملك شيئا يستحق أن أحسده عليه، خصوصا ليس هو ولا أنت ولما كانا قد اقتربا من الحى وأحسا فى نفس اللحظة كلاهما، أنهما سيفترقان مختلفان سارع محمود يقول - على كل حال قمت بواجبى نحوك، فأرجو ألا تنسى هذا. ولكن طارق قال بضيق:

- إذا كنت قمت بواجبك كما تقول، فلماذا تريد منى أن أشكرك عليه؟ فصرخ محمود.

- لأنك تبدو كالأبله.. إنك لم تفهم بعد من الذى أنقذك بفضل زوج أختى.. الذى تصر على كراهيته..

- لا أستطيع أن أحب شخصا سجن أحد أعز أصدقائى... فقال له محمود وهو يبتعد:

- طارق لتذهب إلى الجحيم..

وقضى طارق ليلته لا ينام، يتقلب فى فراشه مصدوما من هذا الذى حدث له.. لقد كان يظن نفسه مواطنا محترما. أليس هو يكتب قصصا وأشعارا تنشر فى الصحف؟ أليس هو الذى قرأ كل هذه الكتب حوله.. كتبا كثيرة عظيمة فى الأدب والفلسفة والدين والتاريخ.. ألا يعلم هو عن بلده أكثر

مما يعلمه رئيس المركز.. أجل لقد سمع فى الماضى قصصا عن ناس أخذوا إلى المراكز وضربوا وأهينوا وسجنوا... ولكنه كان دائما يعتقد أنهم ارتكبوا جريمة ما.. فلا أحد يهين أحدا بلا سبب... حتى جاء دوره واكتشف أنه ممكن جدا وببساطة مذهلة أن يجر إلى أقرب مركز ويضرب ويهان دون أن يهتم أحد بحقوقه.. بكرامته... بشرفه.. بإنسانيته المهانة.. كان بإمكانهم فى المركز أن يسحقوه كحشرة، دون أن يستطيع الدفاع عن نفسه.. عن قيمه المداسة... أجل كان مغفلا عندما كان يظن أن الأدب وحده يهمه.. والشعر والقصة عالمه والتاريخ والدين والفلسفة راحته.. لا ولا ولا.. هناك أشياء أخرى مهمة فى حياة الفرد عليه أن يطلع عليها، كعلاقته بالشرطة وبرئيس المركز ورجال السياسة.. أجل ما هى علاقته بهؤلاء الناس القادرين على التدخل فى حياة الفرد اليومية هؤلاء القادرون على الضرب والسجن والإهانة.. أى قاسم مشترك يجمعهم فى وطن واحد.. بأى حق كان رئيس المركز المتفرج وكان طارق المضروب.. أى قانون يبيح شيئا كهذا ويحترمه المواطنون.. وتذكر جملة قرأها ذات يوم، تقول، الشرطة فى خدمة المواطن.. فأى خدمة قدموها له هذا المساء؟

ثم جاءتنا التهمة الموجهة لفتحى، وهى مهاجمة مركز بريد بضاحية صلامبو وتكسير صندوق الهاتف فيها والاستيلاء على ما حواه من نقود.. وقيل إن فتحى اعترف بأنه لحق على مائتين فأخذها معتبرا ذلك (أموال الشعب) ويوم المحاكمة ذهب الأولاد لحضور الجلسة وهم يتندرون على التهمة التى وجهت لفتحى، وهى أخذ مائتى مليم من صندوق الهاتف، ظنا منهم أنها تهمة سخيفة، لتفاهة المبلغ.. ولكنهم لما بلغوا (قصر العدالة) وجدوه مكتظا بالمشاهدين والمتهمين على حد السواء ولما رأوا الطريقة التى يتم بها محاكمة المتهمين، أدركوا أن التهمة الموجهة لفتحى ليست سخيفة على

الإطلاق.. وراحت الأحكام تأتى سريعة قاسية بحيث لا يمكث متهم أمام هيئة المحكمة أكثر من دقائق معدودات، ثم يصدر عليه الحكم بالسجن كذا سنوات...

ولما جاء دور فتحى، كانت التهم الموجهة له تكفى لإرساله إلى السجن مدى الحياة.. منها الاستيلاء على أموال عامة.. التظاهر والمشاركة فى أعمال شغب.. التخريب ونهب أملاك الغير.. استفزاز قوى الأمن ورشقهم بالحجارة.. إلى آخره.. ووقعت محاكمته، كمجرم من مجرمى الحق العام وليس كسجين سياسى كما هو فى الواقع... وجاء الحكم صادما مخيفا.. فقد حكمت المحكمة بسجن فتحى بن على عشر سنوات.. وبدا وكأن الأحكام موجهة إلى المتهمين والمشاهدين ولكل من تسول له نفسه التظاهر مرة أخرى....

إن طارق وهو يقف مع العم على منتظرا دوره لزيارة صديقه فى السجن، راح يتلفت حوله ناظرا إلى الزوار الآخرين ولم يدهشه أن يكون معظمهم نساء.. فالرجال امتلأت بهم السجون.. ولمح امرأة شابة تسند رأسها إلى كتف عجوز وقد انخرطت فى بكاء مرير.. وأدرك أنها تزوجت حديثا عندما رأى يديها بالحنة وفهم أن زوجها سجين.. ومن بعيد تنادت أصوات امرأتين تتخاصمان.. فتساءل بضيق، لماذا يتخاصمان.. ألا يكفى ما هم فيه الآن..

وأخيرا جاء شرطى نزق، جاء يجر قدميه جرا بطيئا.. ثم صعد واقفا على كرسى خشبى وهمهم بحزم.. فساد الصمت بين الحاضرين، وراح الشرطى يتطلع إليهم ثم نزع قبعته وهرش شعره بقسوة ومسح العرق عن جبينه بكم قميصه.. ثم بصق على يساره، غير مبال بالعيون المتعلقة به.. وأخيرا أخرج ورقة وراح بصعوبة مدهشة يقرأ الأسماء المدونة عليها، وكلما استطاع أن يقرأ اسما، تتقدم المعنية وتدخل من باب صغير خلف الشرطى وإذا حدث

وتباطأت إحداهن.. نهرها الشرطى وصرخ فيها وذهل طارق عندما سمعه يشتم إحداهن بكلمات غاية فى البذاءة.. فأحس بالغضب يشتعل داخله وود لو كان بإمكانه أن ينقض على هذا الشرطى الجاهل...

ولما جاء دور الزوجة الشابة، راقب طارق الشرطى وقد انتابه شعور لا اسم له.. راقب الشرطى وهو يلتهم المرأة بعينيه التهاما نزق غاية فى الوقاحة.. فى حين كانت هى تتقدم متعثرة فى خجلها وارتباكها.. وراح الشرطى الآن يهز رأسه متظاهرا بالأسف متمتما.. خسارة.. خسارة... خسارة... وبدا أن العم على فهم الحالة التى كان عليها طارق فقد سارع وأمسكه من معصمه وهمس له قائلا:

- أرجو أن تهدأ ولا تبال بما حدث هنا، ولا تنس أن هذا الشرطى بإمكانه أن يسبب لنا متاعب إذا أراد فأرجوك لا تتدخل فى (يقول أو يفعل)...

* * *

عندما وقعت عينا طارق على صديقه فى السجن وجد نفسه أمام جثة.. فقد نحل فتحى بصورة لم يكن حتى خياله قادرا على تصورها.. بدا فتحى ذاهلا حزينا ضعيفا كأنه بعث لتوه من قبر قديم.. كان لم يصدق بعد أنه سيقضى عشر سنوات سجينا... ولما رأى طارق أمامه، ابتسم فجأة ابتسامة بلهاء واسعة وكأنه تذكر فجأة، أن هناك حياة خارج السجن وأنه كان فى يوم ما رجلا حرا... ومن وراء الحاجز الحديدى مد يديه الاثنتين وكأنه يريد أن يأخذ صديقه بالحضن وأحس طارق بحجم المأساة التى يعيشها صديقه.. وفرت منه الكلمات، فراح يحملق فى هذا النحول الغريب الذى أصاب فتحى.. ولم يفهم ماذا يجب أن يقول فى تلك اللحظات.. ما يقال لإنسان

حكموا عليه بعشر سنوات سجن لأنه شارك فى مظاهرة.. إنسان لم يعرف السجن فقط فى حياته وفجأة وجد نفسه سيقضى فيه عشرة... وبدأ فتحى الحديث قائلا:

- طارق، أهلا.. أهلا، كيف حالك وحشتنى كثيرا.. فقال طارق:

- أنت وحشتنى أكثر مما كنت أتصور، وقد كنت أرغب فى زيارتك منذ مدة، ولكنهم كانوا يمنعون زيارتك

- آه.. أعلم وكيف حالك الآن وكيف حال طاهر؟

- إننا بخير، وهو سيزورك فى المرة القادمة، كما إن محمود يرغب فى زيارتك وقد كلفنى أن أقول لك هذا ليعلم رأيك. فهمس فتحى فى حدة.

- لا أريده أن يزورنى... فقال طارق:

- اسمع يا فتحى، محمود ليس له دخل فى ما حدث.. وعاد فتحى يهمس فى حدة.

- أرجو ألا تحدثنى عن محمود بعد اليوم..

- ولكن لماذا؟

- لماذا؟ ألا تعلم أن صديقك راح يمارس مهنة جديدة انتشرت فى تونس هذه الأيام..

- أية مهنة تعنى..

- أعنى أنه (صباب) أتفهم ما معنى صباب...

فقال طارق بذهول - وكان يعلم أن كلمة صباب هو اسم يطلقه التونسيون على مجموعة من الناس استخدمتهم بعض المراكز والبوليس

كوشاة، فكانوا يتجسسون على أصدقائهم ومعارفهم ثم ينقلون ما يسمعونه منهم لمن يهمهم الأمر....

قال طارق:

- لا تترك الغضب يذهب بك بعيدا فتلصق تهمة كبيرة بصديق قديم..

فقال فتحى:

- مع الأسف، إنها الحقيقة لا دخل للغضب فيها..

- لا تسق التهم الخطيرة بلا دليل..

فقال فتحى:

- ولكن عندى كثير من الأدلة، اسمع يا طارق، إن المحققين الذين حققوا معى ذكروا لى أشياء قلتها وفعلتها منذ سنوات، ولا يمكن أن أكون قلتها وفعلتها إلا أمامكم أنتم، أنت وطاهر ومحمود.. ولا شك أحدكم أعادها عليهم وبإمكاننا أن نتصور من المستفيد... ثم لقد قبضوا عليك كما قبضوا على طاهر ولم يمسه سوء فلماذا؟ ثم من قال لهم إنك تكتب القصة والشعر ومن قال لهم إن طاهر شديد التدين... أسئلة كثيرة تؤدى إلى استنتاج واحد وهو أن أحدنا واش.. صباب..

- ولكنك لا تعلم أنه هو الذى أخرجنى كما أخرج طاهر..

- ولكنه لم يخرجنى، وأنا الذى كنت مهددا فعلا أما أنتما فصداقتكما لى هى التى أدت إلى القبض عليكما وليس الدين والقصة... فقال طارق بحيرة:

- ولكن لا أستطيع أن أتصور محمود واشيا.. لا لا أستطيع..

- هذا لأنك لم تفهم أن محمود تغير، لم يعد ذلك الطفل الذى نشأت معه فى نفس الحى.. أصبح رجلا ذا طموحات كبيرة.. يريد أن يرث صهره فى

كل شيء.. وصهره لا يبخل عليه بنصائحه المفيدة، من نوع، إذا أردت أن تصبح ثريا فافعل أى شيء يؤدى إلى كسب الفلوس... والأعمال قبل الأصدقاء.. ولا أحد ينفعك غير نقودك.... لقد رأى وأحس بقوة المال عند صهره وأحب أن يصبح مثله.. وهو الآن يحاول إقامة علاقات صداقة مع أصحاب النفوذ وتصور أن الوشاية طريقة تؤدى إلى كسب ود أصحاب النفوذ....

فقال طارق وقد دخل الشك رأسه :

- ولكن، لا أستطيع أن أتصور محمود وهو يشى بأصدقائه.

فقال فتحى :

- على كل حال عليك أن تحترس فى الحديث معه..

فقال طارق :

- دعنا منه الآن، وأخبرنى كيف حالك أأنت بخير ؟ فابتسم فتحى ابتسامة مرة وقال :

- بخير.. إنى فى السجن يا طارق، وسأقضى عشر سنوات هنا.. فمن أين سيأتى الخير.. السجن شر كله..

فقال طارق :

- اسمع يا فتحى، إن الاستسلام للأحزان لا يفيدك كثيرا، يجب على الإنسان أن يقاوم.. إنى أراك ذبلت ونحلت وكأنك زهرة أهملوا سقيها.. يجب أن تصمد وتتأقلم مع الظروف ولاتفقد الأمل.. أنسيت الحكمة القديمة التى طالما رددتها علينا.. لا يأس مع الحياة.. فقال فتحى مستسلما لأحزانه :

- صحيح لا يأس مع الحياة.. ولكن السجن هو الموت.. راودتنى كثيرًا فكرة الموت هذه المدة.

فقال طارق فى ذعر :

- فتحى.. لا تفكر فى مثل هذا العمل.

- ولم لا، ما الذى بقى لى فى هذه الدنيا ؟

- بقيت لك أشياء كثيرة لا تراها.. أبوك وأمك وإخوتك وأصدقاؤك وحياة أخرى جديدة تنتظرك.. وبإمكانك أن تتعلم حتى وأنت فى السجن بإمكانك أن تقرأ.. أن تكتب.. أن تستمع لما حدث للآخرين.. فأنت لست وحدك المظلوم.. كثرون مثلك، فالمطلوب منك أن تقاوم وتصمد حتى تتغير الظروف.

فابتسم فتحى ابتسامة فاترة وقال :

- إنك لا تعرف السجن ولهذا تتحدث بحماس عن التعلم والاستفادة من السجن والمساجين.. ولكن أنا أعرفه كما أعرفهم.. ألا تعلم أنى أحيانا أحمد الله لأنى وجدت سمير هنا.. هل تفهم معنى هذا، إنى أحمد الله، لأنى وجدت أعز صديق لى فى السجن.. يعنى إنى سعيد بذلك وعندما أتذكر أنه سيغادر السجن قبلى يصيبنى رعب كبير.. سمير تأقلم مع ظروف السجن وأصبح زعيما هنا كما كان زعيما فى الخارج.. أما أنا فإنى ضعيف تافه نبذتنى الحياة.. فلماذا أتعلق بها ؟

لماذا تتعلق بها ؟ لأنها حياتك وهبها لك الله وليس من حقك تدميرها و...

وقاطعه فتحى قائلا :

- إن سجن إنسان عشر سنوات هو تدمير لحياته..

- ولكن حياة الإنسان ليست عشر سنوات فقط.. ويجب أن تفكر ولو مرة واحدة فى من يهمهم حياتك.. فحياتك ليست ملكك واحدك هنا ناس يتحملون معك عذابك ففكر فيهم ولو مرة.. ارحمهم من مزيد من العذاب.. فصمت فتحى مفكرا حزينا.. وهنا أعلنا عن نهاية الزيارة، فسارع فتحى يقول :

- عند ما تأتى لزيارتى المرة القادمة زودنى بكثير من السجاير - فهى العملة الصعبة هنا - كما أرجو أن تأتينى بكتب دينية ومصحف.

ومن هناك وصاعدا راح فتحى فى سجنه يدمن قراءة الكتب الدينية ويؤدى الصلوات الخمسة.. ولم يكن وحده.. فإن الناس، خصوصا الشباب منهم وتحت وطأة الشعور بالاضطهاد والظلم راحوا يلجؤون إلى الدين وراحت المساجد تمتلئ وبدأت الجماعات الدينية تتكون (اشتهرت منها فيما بعد، جماعة الاتجاه الإسلامى).

* * *

أما طارق فقد وجد نفسه فجأة بلا أصدقاء.. فاختلف سمير وفتحى فى السجن وراح طاهر يقضى معظم أوقاته فى المسجد منضما إلى جماعة دينية راحت تنمو هناك، ولاحظ طارق كيف أن طاهر أرسل لحيته وكلما ازدادت طولا قلت أحاديثه.. أما محمود فقد بدا وكأنه انتقل ليسكن مع شقيقته فى فيلتها.. وفى المدة الأخيرة تعرف على أصدقاء جدد أثرياء فهجر الحى تماما..

وقضى طارق أياما غريبة وحيدًا.. كان فيها وكأنه فقد حاسة الشعور بالزمن والناس وبكل شىء.. فترك عمله وراح يقضى أوقاته وحيدًا لايكاد

يكلم إنسانًا واحدًا فى يومه الطويل المضجر.. وتراه جالسا على رمال الشاطئ وحيدًا، ويقضى ساعات طويلة ممددا فى فراشه لاينام ولا يصحو.. لم يكن منشغلا بشىء حتى بالتفكير.. ولا يشغله شىء إطلاقا.. إلا الفراغ.. الفراغ الذى سيطر على كل شىء.

واستسلم طارق للملل واليأس أسابيع عديدة.. وذات قيلولة اشتدت فيها الحرارة، غادر بيتهم ومضى يخترق الحى ناظرا أمامه ساهما ولم يبال بأشعة الشمس التى راحت تلهب رأسه وجعلت جبينه يتصبب عرقا.. ولما بلغ المقهى بلغته أصوات روادها وهم يلعبون الورق ويقهقهون، فتساءل بدهشة، لماذا يضحكون ؟ وكيف يستطيعون الجلوس فى المقهى ولعب الورق وكأن شيئا لم يحدث.. وتجاوز المقهى وقد زادته قهقهاتهم ضيقا.. وواصل طريقه بخطواته التائهة، وعندما بلغ المحطة تساءل إلى أين.. وخلف هذا السؤال وراءه فراغا كبيرًا، حقا إلى أين ؟

إنه لم يعد يحتمل الجلوس فى المقاهى وحيدًا.. أما الجلوس فى غرفته لكتابة الشعر، فهذا سخف لم تعد تحتمله أعصابه.. وقادته قدماه كعادتها إلى البحر وهناك جلس فوق الصخور التى تفصل بين الماء والرمال. وراح يراقب المصيفين والأجانب وهم يسبحون ويلعبون الكرة على الضفة.. فتساءل، أليس مدهشا، أن يكون الغرباء وحدهم سعداء فى بلادنا.

وبينما هو هناك يراقب باخرة، فى أعماق البحر، كانت قد غادرت ميناء حلق الوادى فى طريقها إلى ميناء آخر فى هذا العالم الواسع الكبير.

عندها، فى تلك اللحظة اخترقت الفكرة ذهنه.. أشرقت فى داخله فجأة كوحى من السماء.. إن الله يمد له العون أخيرا، يلهمه فكرة حكيمة..

واستوى فى جلسته وهو يقول، بتأكيد وبصوت مرتفع وكأنه يحاول إقناع شخص وهمى يجلس بجانبه ويرفض فكرته.. قال طارق أجل، أجل، لماذا لا أركب إحدى هذه البواخر وأهجر هذا البلد.. لأذهب لأى بلد آخر.. ما يبقينى هنا.. لقد تفرق الأصدقاء، وتزوجت الحبيبة، ومنعت من الكتابة قبل أن أبدأ.. لم يعد هناك أى أمل فى أى شىء.

لم يبق لى شىء هنا.

فى البلد الآخر.. سألتقى بناس جدد وعالم آخر.. وثقافة أخرى.. وستكون لى حياة أخرى وحظ آخر.. سأتعلم أشياء جديدة وستنمو علاقات جديدة وحظ جديد.. ونهض طارق واقفا وقد اتخذ قراره بالرحيل.

* * *

وراح طارق يدور على الإدارات بعزم وإصرار لاستخراج جواز السفر.. ولم تمض إلا أيام قليلة حتى كان جواز السفر بحوزته وتذكرة على الباخرة الحبيب إلى مرسليا.. ثم قرر زيارة صديقيه فى السجن قبل الرحيل وشجعه سمير بحماس على الهجرة.. أما فتحى فاستقبله قائلا باستغراب :

- حقا ستهاجر..

- صحيح..

ولكن، ماذا ستفعل فى فرنسا؟

- ما أفعله هنا.. سأواصل بيع الطماطم والفلفل.. وربما واصلت الكتابة، من يدرى.

- ولكنك قررت الرحيل فجأة.

- وهكذا تتخذ القرارات الهامة عادة..

- إذن ستتركنا.

- مع الأسف..

فقال فتحى بتأثر :

- طارق أريد أن أقول لك شكرًا.. شكرًا جزيلا.. وقاطعه طارق قائلا :

- لا داعى للشكر.. ثم شكرا على ماذا ؟

فقال فتحى :

- لا، اتركنى أقل لك ما أود قوله الآن مهم أن أقوله فنحن سنفترق.

وعاد طارق يقاطعه قائلا :

- ولكننا سنلتقى دون شك..

- ربما.. ولكن بعد فترة طويلة، تكون فيها الأشياء تغيرت.

- إلا صداقتنا فهى شىء لا يتغير.

فقال فتحى بحزن :

- علمتنى التجارب، أن لاشىء يعود كما كان.. حتى نحن إذا عدت بعد سنوات وجمعتنا الظروف، فلن تكون الأشياء بيننا كما هى الآن..

فقال طارق باحتجاج :

- ولكنك تسىء الظن بصداقتى.

فقال فتحى :

- أبدا، إن صداقتنا حقيقية قوية لايرقى لها الشك.. ولكن ظروف الإنسان تتغير ومشاعره أيضا وأنت ستهاجر لبلد آخر، وستكون لك حياة أخرى وصداقات جديدة وظروف أخرى وستتجدد مشاعرك.. أما أنا سأتعفن داخل هذا السجن وسوف لن تجد الوقت للتفكير فالذين تركتهم فى البلاد.. ستشغلك الحياة.

فقاطعه طارق :

- ولكنى سأعود دون شك، وسوف لن أنسى شيئا، فالذى كان بيننا شىء لاينسى، إنها حياة كاملة.. حياتى نفسها فكيف أنساها.

فقال فتحى :

- طارق، إنى لا ألومك لأنك ستهاجر ولا ألومك حتى إذا نسيتنى، لأنها هكذا هى سنة الحياة تجدد كلما التقينا ناس آخرون.. فقط، أردت أن أقول لك قبل أن تذهب.. إنى فخور، كونى كنت أحد أصدقائك وسعيد كوننا قضينا معا فترة طويلة، كانت لنا فيها ذكريات لاتنسى.

فقال طارق بصدق :

- فتحى، إنى أعدك إذا ذهبت لفرنسا أو كندا أو أى مكان آخر.. سأظل كما عاهدتنى، مخلصا لصداقتنا مخلصا لذكرياتنا ولنفس الأشياء التى أحبها.. وإذا جمعتنا الظروف مرة أخرى.. ستجدنى كما عاهدتنى دائما.. أعدك بهذا.

فقال فتحى بتأثر :

- إنى أثق بوعدك..

ثم تصافح الصديقان بحرارة وطارق يقول :

- سوف لن أنسى أبدا، أن لى هنا أصدقاء وناسا أحبهم ويحبوننى.

* * *

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

وفى فجر يوم من أيام صيف ١٩٨٠. كان الحى لا يزال هادئا فى حين أرسلت الشمس إشعاعها الأول على المنطقة مبشرة بقدوم يوم ساخن.. فتح باب بيت العم يوسف وغادر طارق بيتهم حاملا حقيبة صغيرة وتوجه خفيفا نحو الميناء.. وفى طريقه، توقف وألقى بنظرة شاملة على الحى.. وقال إنه فى هذا الحى الذى سيتركه سيخلف وراءه أعز الناس عنده، أبوه وأمه وأخوته وأصدقاءه.

فى هذا الحى البسيط عرف أعظم المشاعر الإنسانية عرف الأخوة والصداقة والحب.. وهنا عرف أهم ما يعلم. وبرغم هذا فهو سيتركه ويذهب.

ولكنه سيعود.. أجل سيعود غدا.. غدا عندما يصبح رجلا قويا قادرا على الدفاع عن نفسه وعن مبادئه وقادرا على حماية من يحب.. أجل سيعود عندما يصبح رجلا محترما.. رجلا حرا..

ثم استدار ومضى فى الطريق الذى سار فيه قبله كثيرون.

(انتهت)

طيب بن بوبكر

باريس - (٦ / ٢ / ١٩٨٩)

رقم الإيداع	١٩٩٠ / ٨٦٣٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3118-5

٢ / ٩٠ / ٥٦٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

٢٥٠ ص

طبع بمطابع دار المعارف